

## كلمة البيان

### حديث حول التغيير الاجتماعي والسياسي في العالم الثالث

بقلم: سليمان الحزامي \*

لعل أهم مراحل تغيير الحياة عند الإنسان وعند الكائنات الحية بشكل عام هي الانتقال من حالة إلى حالة ومن فترة إلى فترة، ولناخذ الإنسان، فهناك الطفولة وهناك مرحلة الشباب وهناك مرحلة النضج والشيخوخة فالكهولة، مراحل يمر بها الإنسان وتمر بها جميع الكائنات إلى أن تصل للموت وهي النهاية المحتمة، وخلال هذه الرحلة يمر الإنسان والحضارات بمراحل متغيرة بين صعود وهبوط، بين لعمان وخفوت، بين قوة وضعف، بين حقيقة وخيال، حياة الإنسان مليئة بالمشاقص لذلك نرى أن أهم أسباب المتغيرات ما يسمى بالثورات، ثورات اجتماعية وثقافية وسياسية وثورات اقتصادية، كل هذه الأحداث تجعل الحياة ذات طعم خاص، مرة تجده حدثاً مفرحاً وأخرى تجده حدثاً مؤلماً حزيناً..

وهنا نقف أمام ما يحدث في العالم الثالث في القرن الحادي والعشرين سواء على مستوى الوطن العربي أو دول أخرى في آسيا وأفريقيا، حيث نجد أن المفاهيم السياسية والاجتماعية لم يعد لها مفهوماً واحداً وإنما مفاهيم متعددة حسب ما يريد الإنسان أن يرى هذا التغيير. وهناك حدث ما قد يراه البعض إنه حدث ثوري وجديد. ويهدف إلى التغيير، ونفس الحدث يراه آخرون إنه قمة في التخلف والتأخر ورفض الحداثة، وكل منا- أقصد البشر- كل منا يرى الحدث من الزاوية التي يريد أن يستفيد من خلالها تماماً كأي بضاعة معروضة في مخزن ما، فهي قد تعجب (س) من الناس وقد تكون بضاعة غير صالحة لـ (ص) من الناس وهي نفس البضاعة..

فالثورات التي حدثت فيما يسمى بالربيع العربي، البعض يرى أنها حركة إصلاحية وتقدمية وذات أهداف إنسانية، والبعض الآخر يرى فيها عكس ذلك تماماً، وهنا يضيع الرأي لسبب بسيط أن كل فريق يغني على ليلاه وكل فريق يريد ما يتفق وما يرى إن كان آتياً أو مستقبلاً؛ والشعوب المغلوبة على أمرها تقف بين التيارين حائرة لا تعرف أذهب يميناً أم تذهب يساراً؛ لأن لقمة العيش أصبحت صعبة المنال، والإنسان في الوطن العربي يرى تماماً أن تقسيم الثورة لن يعد تقسيماً عادلاً على مستوى الأفراد بل حتى على مستوى الدول، فأنت تجد دولاً لديها من

الثروات ما يزيد عن حاجتها عشرات المرات ودولاً أخرى تبحث عن ما يسد الرمق في المشاريع الإصلاحية والصحية والتعليمية، وهنا نجد التباين في استقبال حركات ما يسمى بالربيع العربي. ولعلنا نلاحظ بعد مضي ثلاث سنوات على حركات الربيع العربي أننا لم نصل بعد إلى الاستقرار المنشود من فصل الربيع الجميل وإن الربيع كان اسماً إنشائياً ولم يكن فعلاً حركياً. اختفت أسماء وجاءت أسماء أخرى تتصارع على السلطة، والشعوب فقدت استقرارها وفقدت راحتها والإعلام لعب ويلعب دوراً حاداً في قلب وجهاً النظر وليس تقريب وجهاً النظر، هناك إعلام يعمل على تأييد تلك الحركات، ونجد أن هناك إعلاماً مضاداً يتغنى في الماضي من الأيام وهنا المفارقة التي حيرت الإنسان العربي إلى أين يتجه، فبوصلة التفكير عند هذا الإنسان الكادح فقدت اتجاهاتها والإعلام أيضاً لعب ويلعب دوراً في عدم توجيه البوصلة الإنسانية إلى الجهة التي يرتاح منها الإنسان الكادح، فالثروات في أيدي قلة من الناس والقرارات في أيدي قلة أخرى أما السواد العام من البشر فهم بين المظاهرة واعتصام وتردد فاتخاذ الموقف الصحيح. وهنا نتساءل: مسؤولية من هذا الضياع؟ ضياع الشعوب بين الرفض والتأييد بين القبول والعصيان، هل هي مسؤولية من جاؤوا بما يسمى بالربيع العربي أم هي مسؤولية تلك الأجهزة الحديثة «تويتر» وخلافه؟ أم هي لغة الإعلام التي تسبح في محيطات المصلحة المنفعية والخاصة بهذا الفريق أو ذاك الفريق؟ الإنسان يقف حائراً متردداً لا يعرف كيف يتصرف، يعرف ما يريد ولكن لا يجد الوسيلة التي توصله إلى ما يريد، فالطرق.. معظم هذه الطرق لها اتجاه واحد هو اتجاه التأييد أو الرفض، وهنا المعضلة، فلا توجد إرشادات على هذا الطريق وإن كانت الإرشادات موجودة فهي إرشادات مصلحية دعامتها الأولى الرفض عن طريق المظاهرات أو القبول عن طريق المظاهرات.

حقيقة إنها مفارقة تجعل الإنسان العربي حائراً لا يعرف أين يتجه وهو يرى العالم الآخر يتقدم وهو يراوح في مكانه.

إن مسؤولية أصحاب الفكر وأصحاب الأقلام ومن بيدهم السلطة.. سلطة التغيير ولا أعني سلطة الحكم، عليهم أن يوجهوا هذه الشعوب، فالثورات أمر مشروع على أن تكون نحو الأصلح والأفضل وليس الانشقاق والتناحر من خلال شعارات بعيدة عن واقع الإنسان العربي حتى وإن لبست تلك الشعارات ثياب الدين أو القومية، علينا أن نلبس ثوباً واحداً يجمع بين كل هذه الأمور، بين دينك وبين عروبتك أو قوميتك، كفانا ضياعاً أيها السادة وإذا كان فيما ذكرت شيء من عدم الوضوح أو الغموض فأرجو منك -عزيزي القارئ- إعادة قراءة هذا المقال.

والبيان في هذا العدد يزين غلافها السيدة: دسهام الفريح التي نرى أن من واجب البيان

أن تحتفي بالدكتورة سهام لما لها من وقفات مع الشباب، ولما لها من مؤلفات تدور في مرابع اللغة العربية والأدب العربي، ونحن نرى أن من الواجب أن نزين غلاف البيان بصور لعدد من النساء الفاعلات في ميادين الثقافة والأدب وما يتفق مع خط البيان الإعلامي كمجلة تعنى بشؤون المؤلفين والأدباء أصحاب المنهج الواضح في تقديم صورة الأدب بما يليق للحركة الأدبية في الكويت وفي الوطن العربي، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن من يمتحن مهنة الأدب سواء من خلال التدريس الأكاديمي أو المؤلفات أو الإبداع كالشعر والقصة والرواية وما يتعلق بهذا النوع من الأدب فهو محل تقدير الجميع لذا وجدنا في البيان أننا نعمل على نشر سير هؤلاء الأديبات من باب التكريم لهن ولما أعطينا من حراك ثقافي في المجتمع الكويتي الذي هو جزء لا يستهان به من الأدب العربي.



## ملف البيان

(السيرة الذاتية / العلمية)

د. سهام عبد الوهاب الفريح \*

## .. تجسيد مثالي للتعليم



### الشهادات العلمية :

الدرجة العلمية : دكتوراه في الأدب والنقد

### الخبرات العلمية :

- رئيسة قسم اللغة العربية وآدابها ١٩٨٥ .
- عميدة كلية الآداب ١٩٩١ .
- رئيسة قسم الإعلام ١٩٩١ وقامت على انشائه .
- تقدمت بمقترح إنشاء مركز لدراسة آثار الغزو عرض بمجلس الجامعة ١٩٩٢ ، وبعد أن تمت الموافقة جاءت تسميته بـ ( مركز الدراسات والبحوث الاستراتيجية ) .
- مقترح بإنشاء كلية البنات ١٩٩٣ ونوقش هذا المقترح بمجلس الجامعة ، حتى تمت الموافقة عليه في عام ٢٠٠٢ م .
- نائب الرئيس في المجلس العلمي الاستشاري ٢٠٠٣ .



### العضوية في الهيئات العلمية والثقافية ومنها:

- عضو مجلس قسم الدراسات الإسلامية - جامعة ديوك - الولايات المتحدة الأمريكية منذ إنشائه عام ٢٠٠٣ حتى الآن.
- أنشأت الجمعية الوطنية لحماية الطفل ورئاسة مجلس الإدارة منذ عام ٢٠٠٦ م .
- صاحبة الاحتفالية الخيرية السنوية الخاصة لتعليم المحتاجين في الكويت بدأت عام ٢٠٠٤ م.
- عضو المجلس الاستشاري الأعلى بوزارة الإعلام - الكويت ٢٠٠٤ م .
- عضو المكتب التنفيذي لأكاديمية الكويت للفنون - ٢٠١١ م .
- عضو الهيئة العلمية العليا لجائزة الشيخ زايد من ٢٠١١ حتى الآن.
- عضو مجلس أمناء كلية القانون الكويتية العالمية منذ إنشائها ٢٠١٠ م.

### خبرات علمية أخرى ، والعضوية في الهيئات العلمية ومنها:

- مستشارة بالهيئة الاستشارية لمجلة عالم الفكر - وزارة الإعلام - الكويت يوليو ١٩٩٢ م.
- عضو مجلس إدارة رابطة الأدباء . لمدة ثماني سنوات والآن عضو الجمعية العمومية بالرابطة.
- عضو مجلس إدارة رابطة الاجتماعيين منذ ٢٠١٠ حتى الآن.
- عضو هيئة تحرير مجلة دراسات الخليج - جامعة الكويت ١٩٩١ - ١٩٩٣ .
- عضو هيئة تحرير عالم المعرفة (المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب) - الكويت لعدة سنوات . ١٩٩١ - ١٩٩٤ .
- عضو لجنة التأليف والترجمة والنشر ( مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ) ١٩٩٣ - ١٩٩٥ .
- عضو لجنة تحكيم جوائز البحث في المجال الإنساني والاجتماعي ( مؤسسة الكويت ١٩٩٧ ) .
- عضو لجنة بناء منهج دراسي عن الديمقراطية وحقوق الإنسان في الكتب المدرسية وزارة التربية ١٩٩٩ - ٢٠٠٦ .
- مقرر لجنة البحث لترشيح عشر شخصيات علمية في مجال الفنون والآداب لمؤسسة الكويت للتقدم العلمي ٢٠٠٣/٢٠٠٤ .
- عضو مجلس الجمعية الكويتية لحقوق الإنسان لمدة عشر سنوات.
- ممثل مركز الدراسات العربية والإسلامية في الشرق الأوسط في جامعة سان دييغو .
- رئيسة لجنة وضع كتاب إرشادي للمعلم حول حقوق الإنسان والديمقراطية والدستور لمرحلة المتوسطة ، وزارة التربية الكويت ٢٠٠٤ .
- رئيسة اللجنة المشكلة لوضع ستة كتب للمعلم وثلاثة كتب للطلاب حول الدستور وحقوق الإنسان والديمقراطية للمرحلة الثانوية ٢٠٠٤-٢٠٠٦ م .
- عضو لجنة التحضير والمتابعة لمؤتمر الإصلاح العربي - مكتبة الإسكندرية - مصر ، ٢٠٠٤/٢٠٠٥ م .
- عضو اللجنة التنسيقية للحوار الوطني للإصلاح السياسي - جمعية الشفافية ٢٠٠٨/٢٠٠٩ م .

- مشارك وعضو مجلس إدارة مؤسسة الفكر العربي - بيروت - لبنان .
- عضو اللجان التحكيمية لجائزة الشيخ زايد للكتاب لعام ٢٠١١ .
- عضو الهيئة العلمية العليا لجائزة الشيخ زايد حالياً .

### درجات الشرف ، الجوائز والمنح ومنها :

- درجة امتياز من مرتبة الشرف الأولى عند الحصول على درجة الدكتوراه بتاريخ ١٩٧٩/١٢/٢٣م من جامعة القاهرة .
- جائزة الباحث المتميز على مستوى جامعة الكويت بتاريخ ٢٠٠٣/٦/١٧م .
- جائزة جمعية لسان العرب لرعاية اللغة العربية لعام ٢٠٠٨م .
- جائزة الإبداع الإعلامي للدور في دعم مسيرة الإعلام في الكويت خلال فعاليات ملتقى الكويت الإعلامي العربي - الكويت ٢٠١٠م .
- التكريم الخاص بشرف السبق والريادة في جميع المجالات في الملتقى النسائي (المرأة الكويتية في ٥٠ عام ( ٨ مارس ٢٠١١ الكويت .

### الإنتاج العلمي :

#### الكتب :

- الجوّاري والشعر في العصر العباسي - شركة الربيعان للنشر والتوزيع - الطبعة الأولى ١٩٨١م
- الطبعة الثانية دار قرطاس - الكويت - ٢٠٠٠م .
- ديوان ابن قلاؤس ( دراسة وتحقيق ) - مطبعة المعلا - الكويت - الطبعة الأولى ١٩٨٩م - الطبعة الثانية - المكتبة العربية - المجلس الأعلى للثقافة مصر - ٢٠٠١ .
- الوصايا في الأدب العربي القديم - مطبعة المعلا - الكويت - الطبعة الأولى ١٩٨٩م - الطبعة الثانية - شركة الربيعان للنشر والتوزيع - ١٩٩٧ الكويت .
- عزوف الطلبة الثانوية عن دراسة اللغة العربية - مطابع الخط - الكويت - الطبعة الأولى ١٩٩٣م - مشترك - المشرف الرئيسي . نال تقدير امتياز عند تحكيمه من إدارة الأبحاث - جامعة الكويت .
- إزالة الأنماط السلبية في أدوار الرجل والمرأة . حولية كلية الآداب - جامعة الكويت - الحولية ( ١٤ - الرسالة رقم ٩٢ ) ( ١٩٩٣ - ١٩٩٤ ) .
- أوس بن حجر ومعجمه اللغوي - مجلة حوليات كلية الآداب - الحولية التاسعة عشرة - الرسالة رقم ١٣١ - ١٩٩٩/٩٨ الكويت .
- هنا الكويت : دراسة تحليلية عن الإعلام في دولة الكويت - دار قرطاس - الكويت ١٩٩٩ .

- الأعشى ومعجمه اللغوي - مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت ٢٠٠١ .
- امرؤ القيس ومعجمه اللغوي - مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت - ٢٠٠١ - الطبعة الثانية - المجلس الأعلى للنشر .
- نظرة المجتمع الكويتي إلى عمل المرأة - دراسة تحليلية ميدانية في المناهج التعليمية والوسائل الإعلامية - ديوان الخدمة المدنية - الكويت - ٢٠٠١ .
- مزايا الذات : الانصاري بين الكتابة والنظم - إصدارات خاصة - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت ٢٠٠٣ - ١ الطبعة الثانية - مكتبة آفاق .
- المرأة العربية والإبداع الشعري - دار المدى - دمشق ٢٠٠٤ - الطبعة الثانية - جريد الأردن .
- جاسم عبد العزيز القطامي : منظلومة متكاملة من العطاء - بالاشتراك - المطبعة البريطانية ، الكويت ٢٠٠٤ .
- النابغة الذبياني ومعجمه اللغوي - المجلس الأعلى للثقافة - المكتبة العربية القاهرة - ٢٠٠٦ - الطبعة الثانية - المجلس الأعلى للثقافة - مصر ٢٠١٣ .

Creativity & Exubrance in Arab Women's Poetry - information Minisitry - Kuwait

- ( إشرافات في الثقافة والأدب ) - مطبعة الفيصل - ٢٠٠٧م الكويت .

**كتب تم إعدادها والإشراف عليها ومنها :**

- بحوث في اللغة والأدب - الكتاب التذكاري بمناسبة مرور ٢٥ عاماً على تأسيس قسم اللغة العربية وآدابها - جامعة الكويت ١٩٨٧م . فقد هذا الكتاب من مكتبات الجامعة .
- آراء وتوجيهات في القضايا الكويتية بعد الأزمة - ١٩٩٢م . قامت الجامعة بطبعه لنشاط مركز الدراسات المؤقت بلندن خلال أحداث الغزو .
- الكتاب التذكاري بمناسبة وفاة المرحوم الأستاذ الدكتور ( أبو ريدة ) كلية الآداب - جامعة الكويت - ١٩٩٣م .

### **بحوث في مجال التخصص ومنها :**

- الوصايا ومدى تطورها في العصر العباسي - حوليات كلية الآداب - الرسالة الثانية والثلاثون - الحولية السادسة ١٩٨٥م .
- الشمس ودلالاتها في شعر المتنبي - مجلة الضاد - الجزء الرابع ، ذي الحجة ١٤١٠هـ - تموز ١٩٩٠م .

● الغيث ألفاظه ومعانيه - مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة - العدد ١ - المجلد ( ٥٠ ) مايو ١٩٩٠ م .

● السريان ودورهم في نقل الثقافة اليونانية - المجلد الثالث والعشرون - حولية كلية الآداب جامعة عين شمس - القاهرة ١٩٩٤ - ١٩٩٥ .

● قضايا فكرية في الشعر الجاهلي [ العدم في مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة المجلد ٥٦ عدد ٣ يوليو ١٩٩٦ م .

#### THE STATUS OF WOMEN IN EARLY ISLAMIC COMMUNITY

● مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة - المجلد ٥٧ عدد (١) يوليو ١٩٩٧

● وقفة مع ثلاث كتابات في القصة القصيرة في السعودية - نشر في مجلة البيان - العدد ٣١٢ - ٣١٣ يوليو - أغسطس ١٩٩٦ .

● من هي بلقيس عرض لكتاب [ بلقيس امرأة الألفاظ وشيطانها ... زياد مني - رياض الرئيس - لندن - بيروت ١٩٩٧م - نشر في مجلة العربي - الكويت - مايو ١٩٩٩م .

● جمالية المكان في القصيدة الكلاسيكية [ العباسية - مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة - المجلد ٦١ العدد ١ يناير ٢٠٠١ م .

● ( ملامح رومانسية في شعر الأنصاري ) دراسة مقبولة للنشر في مجلة فصول - القاهرة / مصر .

● الزمن ألفاظه ومعانيه في شعر الأعشى - الكتاب التذكري - عاشق اللغة العربية - العالم الجليل أحمد مختار عمر - مؤسسة جائزة عبد العزيز البابطين - الكويت ٢٠٠٤م .

● سطورة اللغة في رواية حاتم للكاتبة السعودية رجاء عالم - بحث قدم في مؤتمر الكويت الدولي حول تحليل الخطاب ٢٨-٢٩/٣/٢٠٠٥ .

#### بحوث أخرى ومنها:

● المرأة الكويتية ودورها في التنمية الوطنية - بحث لاجتماع مجموعة الخبراء حول موضوع ( دور ووضع المرأة العربية في التنمية الوطنية ) المنعقد في نيقوسيا - قبرص - في الفترة من ٢٢-٢٦ إبريل ١٩٨٥م - لم ينشر .

● المرأة السعودية ودورها في التنمية الوطنية . بحث اعد بناء على طلب مجموع الخبراء حول موضوع [ دور ووضع المرأة العربية في التنمية الوطنية - لم ينشر .

● المرأة العمانية ودورها في التنمية الوطنية . بحث اعد بناء على طلب مجموع الخبراء حول الموضوع [ دور ووضع المرأة العربية في التنمية الوطنية - لم ينشر .

● المرأة البحرينية ودورها في التنمية الوطنية . بحث اعد بناء على طلب مجموع الخبراء حول موضوع [ دور ووضع المرأة العربية في التنمية الوطنية - لم ينشر .

● (معوقات نجاح المرأة الخليجية في المراكز القيادية العليا) بحث مقدم في ندوة (الفكر القيادي



- للمرأة... مع إطلالة القرن الحادي والعشرين في دبي ٢٨-٣٠/١٩٩٤ - لم ينشر .
- تقرير عن (المؤتمر الإقليمي الرابع للمرأة في المجتمع والجزيرة العربية) في مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية- العدد الخمسون- السنة الثالثة عشرة- إبريل ١٩٨٧- الكويت.
  - (أهمية القراءة وأثرها في حياة الفرد والمجتمع ورقة قدمت في ندوة) العزوف عن القراءة بين الشباب الخليجي العربي : دواعية وأثره في حياة الفرد والمجتمع - في المركز العربي للبحوث التربوية لدول الخليج في الفترة من ١٥-١٩ إبريل ١٩٩٥ تم نشره في الموسم الثقافي [ الدورة الثانية ١٩٩٥ .
  - فكرة وإعداد برنامج [ الشباب: هموم وطموح عشر حلقات قدمت في القناة الأولى لتلفزيون الكويت - ١٩٩٦ . بعد دراسة ميدانية حول اهتمام الشباب بالبرامج التلفزيونية بالكويت .
  - المرأة ودورها المبهم في مسيرة التنمية [ ٢٠٠٠-٢٠٢٥ ورقة عمل مقدمة في ٢٤/١١/١٩٩٧ ضمن فعاليات الحوار الوطني حول الرؤيا التنموية في المدى البعيد وزارة التخطيط الكويت - لم ينشر .
  - عرض لكتاب ( الديمقراطية وحقوق الإنسان ) لمحمد عابد الجابري مجلة المستقبل العربي - العدد ٢٥٧-٢٠٠٠ / ٧ - مركز دراسات الوحدة - بيروت - لبنان .
  - ( رفاعة طهطاوي والأخر الحضاري ) ورقة علمية في الندوة الدولية لنوعية ( رفاعة الطهطاوي ) المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة في الفترة ٢٠ - ٢٢/٤/٢٠٠٢
  - المجتمع العربي وموقفه من المرأة المبدعة - المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - في الحلقة الدراسية من ٢٨ - ٣٠ مايو ٢٠٠١ الكويت .
  - مفاهيم الديمقراطية وحقوق الإنسان في الموروث العربي الإسلامي - الندوة الدولية حول ( الرؤية الثقافية الإسلامية في معالجة قضايا حقوق الإنسان ) الشارقة - ١٥ - ١٧ مارس ٢٠٠٥ .
  - لغة الحوار في لغة الاستشراق - في مؤتمر حوار الثقافات - جمعية التراث - بيروت ٦ - ١٠ ديسمبر ٢٠٠٣م .
  - التعقيب على ورقة عمل الندوة العربية حول ( اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة) - بيروت ٢٦ يناير ٢٠٠٤ م .
  - المرأة العربية والإبداع الشعري - حول أربع شاعرات : نازك الملائكة ، فدوى طوقان ، لميعة عباس عمارة ، سعاد الصباح ، محاضرة في جامعة ديوك - الولايات المتحدة الأمريكية - ١١/١١/٢٠٠٦ م .
  - الإسلام السياسي والعنف ضد المرأة ، ورقة لمؤتمر ( المرأة الواقع والمستقبل ) في ٢٨/١٠/٢٠٠٨ ، مؤسسة نحو أداء برلماني متميز ، الكويت .



## ملف البيان

(حوار)

### د. سهام الفريح ل: البيان إرساء تعليم حديث هو شرط أساسي وضروري لتفتح المجتمع.

أجرى الحوار: خليل السلامة\*

● نشأت طفلة وحيدة  
ليس لدي أشقاء من  
الإناث أو الذكور.

- الدكتورة سهام الفريح علم من أعلام الفكر والأدب والترفية، حياتها مليئة بالعطاء ثرية وأخلاقها دمثة وتعاملها راق وعلمها وافر والتعامل معها فرحة وكلامها قطوف واحة، وهي شخصية فريدة جمعت تواضع العالم ودأب الباحث فأثرت

بمؤلفاتها المكتبة الكويتية والعربية، هي إنسانة ودودة جمعت قلوب طلبتها وحفزتهم على المثابرة والدرس فكانت تجسيدا مثاليا للتعليم.. فهي ترى قصورا في المناهج الدراسية وتجربتها في التدريس أثبتت لها بُعد الطالب عن لغته وموروثه.. تدعو إلى فهم التراث فهما سليما، وترى بأننا اليوم في أمس الحاجة إلى تأسيس قراءة جديدة ودقيقة لماضينا وأنه لا بد من تعليم متطور يعتمد التعلم لا التلقين.

#### ■ بداية.. هل نستطيع أن نتعرف على بدايات الدكتورة سهام الفريح.

- كأى طفل، أو طفلة نشأ في فترة خضعت فيه تلك الأجيال إلى تربية تتسم بالحزم، وقد نمتها البعض بنظرة سلبية أنها تربية تقليدية، لكننا نحن أبناء ذلك الجيل وجدنا فيها ما أضاف لنا الكثير، ومدنا بقدرات ساعدتنا على تسمية شخصياتنا التي نحن عليها اليوم، وذلك لأنها تربية قامت على الحزم الذي يغمره فيض من الحنان والحب والرعاية اللازمة.

وخصوصيتي في مرحلة الطفولة، أنني نشأت طفلة وحيدة ليس لدي أشقاء من الإناث أو الذكور. وأحمد الله كثيرا لأسباب أسرية عديدة أنني لدي من الصديقات كالشقيقات والخصوصية الأخرى لطفولتي هي أنه أريد مني أن أكون نموذجا في كل شيء، وهو أمر قد يكون عسيرا على الأهل وعلى الطفل ذاته، ولعل الذي ساعد على تحقيقه ليست التربية والنشأة وحدهما، وإنما المرونة والاستجابة في جينات تلك الطفلة، ولعله السبب الرئيسي الذي

● كنت أحصل على  
الدرجة الكاملة في  
بعض المواد ولم تهتم  
المدرسة بهذا التميز  
أو تنمية قدراتي.

\* تربوي وثقوي من سوريا مقيم في الكويت.

### ● المناهج الدراسية لا تمنح الطالب فرصة التعلم الذاتي.

تجاوزت فيه تلك الطفلة الكثير من شقاوة الطفولة، ونزق المراهقة، لعله ما أحيطت به تلك الطفلة بألوان وأشكال من الدلال، حتى كانت مركز الاهتمام، لكنه لم يتحول في يوم من الأيام إلى التدليع مطلقاً. فأحمد ربي كثيراً بأن هذا النوع من التربية له أهمية في بناء شخصية قوية معتدة لا تترك أي أمر من أمورها إلى الفوضى وعدم التنظيم.

ولم ينصب الاهتمام على السلوك العام فقط، إنما كان الاهتمام البالغ بالتحصيل العلمي بما يصل بهذه الطفلة إلى التميز في كل المستويات. إلا أن المدرسة - وللأسف الشديد - كانت مقصورة حتى يومنا هذا بأن تقوم بواجبها تجاه المتعلم. ليس تجاه المتعثر وحده، وإنما التميز أيضاً أي وإن كان هذا المتعلم متفوقاً في جميع الدروس فلا بد أنه متميزاً في بعضها، فكانت تلك الطفلة تحصل على الدرجة الكاملة في بعض الدروس كالرياضيات والهندسة والجبر والمثلثات، فلم تسع المدرسة إلى الاهتمام بهذا التميز وتنمية قدرات هذه الطفلة بتلك المواد، إنما تركت إلى أن تنتهي كيف شاءت. ونعود إلى تلك التربية التي يراها البعض بأنها تقليدية وغير حديثة، إلا أنني وأجيال معي نجدها هي التي رسخت في شخصياتنا روح التحدي والمثابرة، التي أوصلتنا إلى ما نحن عليه اليوم.

■ نرى أن العالم يتجه لدراسة اللغة العربية وآدابها بينما نرى في الوطن العربي وفي الجامعات العربية تراجعاً وتخلفاً وعدم اهتمام بهذه اللغة العظيمة فما أسباب هذا الموقف المتناقض في رأي الدكتور ساهم؟ وكيف ترين مستوى التعليم في الكويت؟

- الأهداف والخطط في برامجنا ومناهجنا التعليمية يكتنفها القصور في جوانب شتى يتمثل هذا القصور من المراحل المبكرة حتى نهاية المرحلة الجامعية. فالمناهج الدراسية لا تمنح الطالب فرصة التعلم الذاتي والوصول إلى المعلومة بذاته ولا يملك الحق في المناقشة والتعبير عن ذاته ونجده حتى لو أعطيت الفرصة في حالات معينة لا يتمكن من ذلك وإنما يصيبه الارتباك لأنه لم يمنح تلك القدرات والفرص منذ المراحل الأولى من حياته.

■ من خلال تدريسك للأدب العربي بشكل عام، كيف تجد الدكتور ساهم التفاعل مع الأدب العربي المعاصر والقديم عند جيل الشباب.

- أما بالنسبة لتدريسي مادة الأدب لسنتين طويلة فقد كشفت لي هذه التجربة الطويلة بعد الطالب عن لغته وموروثه، حيث لم يقرب له هذا الموروث الزاخر بلغة جميلة سلسلة، وكذلك من خلال حسن اختيار النصوص والشخصيات والمواقف والأحداث فالاختيار السيئ يباعد بين الطالب وبين لغته وموروثه وأدبه حتى يصل هذا التباعد إلى كراهيته، بل معاداته، لذا نجد حتى الدارسين والباحثين في مجال اللغة العربية لا يميل إلى دراسة القديم، أو مقارنته بالحديث، بل معظمهم يميل للحديث.

● الاختيار السيئ للنصوص والشخصيات والمواقف يباعد بين الطالب وبين لغته وموروثه.

■ هل اهتمام الدولة بالأدب العربي يتفق وقيمة هذا الموروث العظيم.

- إن الموروث العربي/ الإسلامي القديم يحمل الكثير من المفاهيم والقيم الإنسانية الرفيعة التي يمكن إحيائها ونفض غبار الزمن عنها وعن ما علق

● **المعاصرة هي تفهم  
العصر والانسجام  
معه ليكون ضمن  
الذات العربية.**

بها من أعراف وتقاليده غريبة هي ليست من نسيج هذه الأمة، وليست من تعاليم ديننا الحنيف، وأن ما علق أصبح عائقاً ثقيلاً ومنصراً. لأبناء هذه الأمة، حتى دفع بهم إلى النفور والاختراب عنه، بل معاداته. ولن يكون الطريق ممهداً إلى فهم التراث فهماً سليماً يلغي من ذهنية الإنسان العربي ما علق بها من عوامل الرفض، أو التهافت المانع عليه (أي التراث) إن لم نرسم علاقة صحيحة بيننا وبين موروثنا القديم.

وعلينا أيضاً قبل أن نتحدث عن لغة الحوار مع الآخر أن نشين لغة الحوار بيننا نحن أبناء الأمة الواحدة، لذا فإن أول ما علينا أن نفرض الخلاف بين مفهومي الأصالة والمعاصرة. ويبدو أن النقاش بين مفكرينا العرب حول مفهومي الأصالة والمعاصرة، يوحي وكأنهما مفهومين مختلفان يجري كل منهما في واد هو نقيض الآخر، لكن عند التمعن في هذه الثنائية نجد أنهما متكاملتان، وأن لا وجود لأحدهما دون الآخر.

إذ أن المعاصرة ليست التتوقع والثبات عند الماضي دون الانطلاق منه لتبني قيمه والتجديد فيه. وليست المعاصرة الاستلاب، وليست هي تبني لمعطيات الآخر (الغرب) ومبتكراته وقيمه، أو الذوبان فيه، بل هي تفهم العصر والانسجام معه ليكون ضمن الذات العربية، وتجدر الإشارة بأن الأصالة ليست مفهوماً خاصاً عند العرب وحدهم. فلكل أمة من الأمم أصالتها. على رأي القليل من مفكرينا الذين استملعوا الربط بين الماضي والحاضر.

فكيف يتهيأ لنا هذا الأمر ونحن في مؤسساتنا ذات العلاقة نفتقد الكثير من الآليات والخطط والكوادر البشرية القادرة على تحقيق هذه الأهداف، فقد كشفت إحدى الدراسات المسحية أن ثلاثاً من وزارات الثقافة في البلاد العربية فقط اهتمت بمخاطبة الأطفال من خلال مواقعها، وفي أغلبها لم تكن أدواتها مقصورة على مخاطبة الطفل، إنما هي ضمن موضوعات تقدم لفتات أخرى، إضافة إلى أن جميع هذه المواقع لا تظهر اهتماماً باللغة العربية.

- إن المؤسسات البحثية والثقافية والتعليمية المختلفة يجب أن تقوم بهذا الدور وهو الربط بين التراث والمعاصرة بهدف إزالة ذلك الاعتقاد المسيطر على ذهنية الكثير من المتقنين بأن كل اهتمام بالتراث هو نابع من نزعة أصولية، وأن كل اهتمام بالمعاصرة هو نابع من نزعة ليبرالية، وذلك بسبب الجهل إما بهذا أو ذاك عند هؤلاء الكثيرين، وهذا الجهل يؤدي إلى موقف انفعالي عاطفي، ومادام عاطفياً فهو متحيز. فتعد في هذا الشأن إلى بعض الدراسات الجادة التي منها كتب محمد عابد الجابري في هذا الشأن. فعلياً القول وبكل وضوح بأن هذه المؤسسات لم تعمل من خلال الدراسات الإنسانية على أن تزيل هذا التصادم بين هذين المفهومين، فلم يهتم في وضع الدراسات ودعمها وتشجيعها التي تهتم بمفهوم الأصالة دون انغلاق عليها، ذلك الانغلاق الذي يخلق خصومة ثقافية ونفسية مع الثقافات الأخرى.

■ **كيف ترى الدكتورة سهام العلاقة بين الثقافة العربية والأدب العربي في يومنا هذا؟**

- إن الأدب العربي لا يمكن له أن يكون بمعزل عما تعانیه الثقافة العربية، وذلك بسبب قراءتنا للتاريخ التي ظلت مرتبطة بسرد جزئي دون أن تعتمد التحليل الموضوعي بأدوات علمية جديدة، لذا جاءت هذه القراءات بفهم خاطئ للأحداث التاريخية.

ثم أن هذه القراءات للتاريخ أسقطت الحاضر بكل تداعياته المأساوية وظلاله القائمة على الماضي لذا جاء الماضي بكل أحداثه ووقائمه وشخصياته بتلك

● **أشارت الدراسات**

**أن ثلاثاً من وزارات**

**الثقافة في البلاد**

**العربية فقط اهتمت**

**بمخاطبة الأطفال.**



### • المؤسسات الثقافية

### العربية لم تعتن بالتراث

### (الفلكلور) كعناية

### المؤسسات العالمية به.

الصور المزرية تلقيناً جيلاً بعد جيل، وقد غاب عن ذهن هؤلاء أن ماضي أي أمة من الأمم مهما بلغت في مضمار الحضارة والمدنية، لا بد وأن في ماضيها مواقف فيها الكثير من الضعف والتخلف، كما فيها مظاهر عديدة من القوة والازدهار.

وهكذا هو حال الأمة العربية/الإسلامية، فكما سجلت صفحات من تاريخها مظاهر الظلم والظلمين والفساد، سجلت صفحات أخرى مواقف تشتم بالعدل والإنصاف، لذا فنحن اليوم في أمس الحاجة إلى تأسيس قراءة جديدة ودقيقة لماضيها بعيدة كل البعد عن تلك الأحكام المسبقة فيها الروح النقدية، تتمثل فيها الروح النقدية الواعية المتصفة بالموضوعية لجميع عصورنا التاريخية.

وكذلك الحال بالنسبة للتراث (الفلكلور) لم تعتن به المؤسسات الثقافية كعناية المؤسسات العالمية به من حفظ وتوثيق وتصوير بالصوت والصورة.

إن العناية بالتراث يحقق الكثير للجانب التعليمي، وإن التقصير واضحاً، حيث أن ما يقدم لا يعكس الشراء الحقيقي ولا المخزون العميق الذي تتميز به ثقافة هذه الأمة في المجالات المختلفة. ولا يمكن إظهار هذا الإرث الحضاري المادي والفكري إلا بتجسيده تجسيداً مشوقاً يبقى على الحقيقة ولا يجانبها مهما جاءت، ولا يؤدي في الوقت ذاته إلى التشويه الذي يؤدي بالتلقي العربي إلى الاتجاه إلى ثقافات أخرى.

### ■ عصر الإنترنت هل هو عامل بناء للموروث العربي أم الكلمة.

- لا يمكن لأي مجتمع من المجتمعات من النهوض، ورفع حقوق الإنسان والمواطن فيه إن لم يأت التركيز فيه على ميادين التربية والتعليم، فلا يمكن تحقيق التطور دون إصلاح النظام التربوي في ذلك المجتمع، وتطوره، فإرساء تعليم حديث هو شرط أساسي وضروري لتفتح المجتمع وتمكين أفراد من الإلمام بالعلوم والتكنولوجيا كل هذا من خلال وضع مناهج متطورة تتناسب مع تطورات العصر، وتعتمد التعلم لا التعليم أي التلقين.

وفي مثل تعليم متطور يمكن غرس مبادئ وقيم عديدة منها غرس روح الوطنية والانتماء، وبث روح الاستقلالية واحترام الذات حتى يستمتع كل فرد في هذا المجتمع أن يسهم في بناء مجتمعه على أسس حديثة ومتقدمة.

إن التعامل مع هذه الوسائل إن أحسن استخدامها ففيها فوائد جمة لكل دارس أو باحث. وهي ليست من الوسائل التي تباعد بين الدارس وبين الكتاب والمادة الورقية، وهذه حقيقة واقعة فلو أمعنا النظر في الكثير من المجتمعات المتقدمة التي أصبحت هذه التقنيات وسيلتهم في كل شيء لا يزال للكتاب مكانته. لذا يمكننا القول يمكننا استغلال هذه التقنيات في حفظ الكثير من موروثنا، وليس هذا فحسب فيمكن من خلال هذه التقنيات تقريب هذا الموروث لأهل العصر وليس المتخصصين فقط، وكذلك تقريبه للنشء. لكن علينا الحذر فليس كل ما ينشر من تاريخنا وتاريخ عقيدتنا من خلال هذه التقنيات هو دقيق وسليم وبعيد عن التدخل والتشويه فيأتي هنا دور المؤسسات الثقافية العلمية في الإشراف على هذا الجانب، وتقع المسؤولية أيضاً على المتخصصين والمفكرين والثقافيين المتصلين بهذا الموروث وتاريخ وآداب هذه الأمة.

### • يمكننا استغلال

### التقنية الحديثة

### في حفظ موروثنا

### وتقريبه لأهل

### العصر.

### ■ علاقتك مع الشاعر الراحل عبد الله زكريا الأنصاري كيف كانت

### أدبياً؟ وماذا عن الكتاب الذي جمعت فيه نتاجه الشعري؟

- عندما شرعت في قراءة ما وضعه عبد الله الأنصاري من كتب ومؤلفات،

● **قد ينال البعض الدعم والتكريم لكنه - للأسف الشديد - ليس بمقياس الكفاءة والتميز وإنما من باب المجاملة والمحاباة.**

وتنحصر ما جاء فيها بنظرة ثاقبة يهدف الكشف عما يحمله عقله وفكره، وفي محاولاتي للكشف عن خلجات نفس هذه الشخصية، التي تبدو لمن يلتقيها منذ الوهلة الأولى أنها شخصية مسريلة بالوقار ومثقلة بالهموم والأحزان، فلم تكشف عنها هذه الكتب الزاخرة بأبوابها وموضوعاتها، سعيت إلى نتاجه الشعري الذي وجدت أنه لم ينشر منه إلا النزر اليسير وهو الذي يدفعه إلى النشر عندما تهزم بعض المواقف الوطنية أو القومية، أو عند أي مناسبة تثير اهتمامه فينظم تجاهها شعراً متأثراً في بعض الصحف المحلية أو المجلات. وقد كان يبعث بأشعاره لتشر في بعض المجلات العربية في بغداد وسوريا، إلا أن الكثير من شعره ظل مدفوناً بين خلجات النفس وبين أكوام الورق التي تملو مكتبته، حتى لانت عريكته بعد عدة مقابلات للرد على العديد من تساؤلاتي حول جوانب أو مواقف في حياته، أو ما أثارها مؤلفاته؛ فمن عليّ بذلك النتاج الشعري الزاخر. وخلال تلك الرحلة الشائقة، التي تنقلت فيها عبر نتاجاته المتنوعة، وجدت نفسي في مواجهة نزعتين تسعى كل منهما إلى تولي قيادتي عند إعداد كتاب مرايا الذات، وكنت في البدء لا أدري لأيهما سيكون النصر.

كانت الأولى نزعة جُبِلنا عليها - نحن كجيل من الأكاديميين - منذ مراحلنا الأولى في التحصيل والدرس، في تبجيل وتكريم من سبقونا في العلم والمعرفة وليس بالضرورة أن يكون من سبقونا قد تلقوا علومهم في المؤسسات العلمية العالية، وإنما تملكوا العلم والمعرفة من رغبة تدفع بهم إلى تلقف كل معلومة ترد إليهم عبر تلك الوسائل المتواضعة في عصرهم، حتى كانوا الرواد في المجتمع الكويتي. وقد تعالت هذه النزعة في الذات مع شيوع العلم في مجتمعنا، وزيادة عدد حملة الشهادات العالية إلى درجة تداخلت فيها الأوراق، واختلط الغث بالسمين، حتى طغى في حالات، هذا الغث على السمين، في ساحات العلم والفكر والأدب.

ويتضاءل شخصي أمام من سبقونا في البحث والتقصي وإن لم ألق بهم مباشرة لكنني التقيت بفكرهم وأديهم وتجاريهم التي تمدني بها مؤلفاتهم. والنزعة الثانية هي التي ساهمت في تشكيل شخصيتي الفكرية وما أنتجته من أعمال ومؤلفات أمدتني بها سنوات طويلة أمضيتها في البحث العلمي لدقيق، الذي يقوم على التحليل الموضوعي والدقة العلمية، إضافة إلى تجربة ثرية ثمرتها بناء جيل من الدارسين في جامعة الكويت. وفي نهاية المطاف توافقت هاتان النزعتان في انسجام تام، ولم تطلغ إحداهما بسلطوتها على الأخرى، فكان لهذه الشخصية مكانتها من التقدير، ولهذا البحث دقته وموضوعيته في مسيرتي في كتاب مرايا الذات. ولأستاذ عبد الله زكريا الأنصاري خالص شكري وعظيم امتناني على ما مدني به من كوز نتاجه الفكري الذي كشف عن مفكر أخلاقي مؤمن بالقواعد، متمسك بالعقل في صميم وجدانه.

وأملني أنني وفقت - بعد أن سعيت جاهدة - بأن أضع هذا النتاج في المكانة اللازمة التي تليق بالأنصاري كرائد من رواد الحركة الثقافية والفكرية في الكويت.

● **اعتماد نظام التعلم لا التعليم يحجر على عقل المتعلم حتى يصبح بسببه مستهلكاً لا منتجاً للمعرفة.**

■ **كيف ترى د. سهام دور المؤسسات الثقافية ذات الاختصاص في دعم انتشار اللغة العربية في داخل الكويت وفي الوطن العربي وخارجه؟**



● **قلة الإقبال على  
دراسة اللغة العربية  
هو سوء تعليم هذه  
اللغة الذي أدى إلى  
معاداتها.**

- عندما نؤمن النظر نجد أن الكويت احتوت، ومنذ سنين مؤسسات حكومية عديدة، وتبعتها مؤسسات خاصة للعناية بالشأن الثقافي من جوانب مختلفة، وعندما ننظر إلى الأفراد ونشاطاتهم في المجالات الفكرية والعلمية والفنية والأدبية نجد أن الكويت حُبلى بالمبدعين في هذه المجالات وغيرها، ومن الجنسين، وأن لبعضهم الحضور المتميز في خارج الكويت وداخلها وكذلك الحال بالنسبة لجيل الشباب الواعدين، ومن الجنسين أيضاً. وقد تقام المهرجانات والمؤتمرات والندوات الثقافية طوال العام. لكن السؤال: في ظل هذا كله هل ينال كل فرد في المجتمع حقه ونصيبه من هذه الثقافة أخذاً وعطاء؟

وأعني أخذاً وعطاء: هل يصل للفرد والمجتمع الإبداع الحقيقي من هذه المؤسسات؟ أم أن ما يصله في الغالب هو ذلك الغث بسبب عدم الفرز السليم بين الغث والسمين، وبين المبدع الحقيقي ومدعيه، فقد يسلط الضوء وينال الدعم هؤلاء المدعون على حساب المبدعين فتشيع أعمالهم وتنتشر مما يؤدي إلى الإضرار بالثقافة وتدنيها وإلى الإضرار بالذائقة الفنية والأدبية والعلمية للمجتمع عامة.

وقد يصدر الدعم للحياة أو مجاملة، أو بسبب ضغوط قُوية لرفع أحدهم وهو لا يستحق، وقد يرضخ ممن هم على رأس المسؤولية في هذه المؤسسات لهذه الضغوط حتى تضيع حقوق المبدعين الحقيقيين، حتى لا تصلهم فرص الدعم والرعاية اللازمة. وقد ينال بعض من هؤلاء الدعم والتكريم لكه- وللأسف الشديد - ليس بمقتياس الكفاءة والتميز، وإنما من باب المجاملة والمحابة أيضاً. ففي هذه الحالة إساءة للمبدعين الحقيقيين عندما يساوي بينهم وبين عديمي الإبداع وإساءة إلى الإبداع ذاته.

والأدهى عندما يكون ذات التعامل مع جيل الشباب، إذ يدعم ويسلط الضوء على من لا يملك مؤشرات الإبداع على غيرهم، ولأنه خالي الوفاض يصيبه القُرور ويتملكه الزهو حتى ترتفع أقدامه عن الأرض زهواً وغروراً، ويبقى على حاله هذه جثى يكبر ويشيخ، ونمض نعانى من أمثال هؤلاء الذين اعتقدوا وهماً أنهم ملكو الثقافة والفن والأدب في الكويت أباً عن جد، فأمثال هؤلاء وبالأعلى على الثقافة والفكر والفن، وعلى أنفسهم أيضاً.

أما المهرجانات والمؤتمرات الفنية والأدبية ففي أغلبها معاد مكرر سواء في الشخصيات المشاركة أو في الأوراق والأعمال المقدمة، فقد تختلف في كل مؤتمر بمسمياتها. إلا أنها هي .. هي في مضامينها. إلا في القليل منها، فطبيعي أن لا يكون فيها ذلك العائد في إذكاء الحركة الثقافية في الكويت على عكس ما كان عليه الأمر في ستين مضت أيام تلك الشخصيات الرائدة في نشاط الحركة الثقافية والنهوض بها مثل عبد العزيز حسين وأحمد العدوان وغيرهم كثير مما أشرفوا على تلك المؤسسات، وعنوا بها وبالمبدعين عناية حقيقية، حتى كان لهم الأثر الكبير في إذكاء الحركة الثقافية في الكويت التي تركت صداها عالياً حتى أصبحت الكويت وهي البلد الصغير منارة للثقافة والأدب.

ويستوقفني في هذا المقام ما يكتب وما يقدم للطفل من أدب ومن فنون، فقلة قليلة ممن تهتم بأدب الطفل وفنونه تعي المسؤولية الجسيمة في هذا الشأن، بإحساس عال بأن الكتابة والفن المقدم للطفل من أصعب الآداب والفنون، للأسف الشديد نجد الكثيرين من يستسهل هذا الأمر ويستهن به فيهل علينا في كل يوم كم هائل من الكتب والمسرحيات الهابطة للأطفال دون مراقبة أو تدقيق، بل بمباركة من هذه المؤسسات الحكومية المعنية. حتى تنتشر وتشيع هذه الأعمال الهابطة، وتوزع على مكتبات المدارس والمكتبات العامة في كل حي على غيرها من الأعمال الجادة.

ولا نستطيع أن نتكلم عن الثقافة بكل أنواعها ونغفل التربية والتعليم، وهما الباب الأول لكل خطة تنموية في أي مجتمع من المجتمعات، لكن ما نصادفه في الكويت، وفي غيرها من الأقطار العربية قد تكون في آخر سلم الأولويات لدى السلطة التنفيذية، وقد تستحق في أحيان كثيرة من هذا السلم. في الوقت الذي تُقدم فيه الخطط التربوية والتعليمية الواضحة في فلسفتها، والدقيقة في أهدافها، إلا أنها حبيسة الأدراج حتى يطويها النسيان، ومن أهم المشكلات هو اعتماد نظام التعلم لا التعليم الذي يعتمد التلقين فيحجز على عقل المتعلم حتى يُصبح بسببه مستهلكاً لا منتجاً للمعرفة.

وفي هذا الشأن تأتي الشكوى الدائمة من ضعف الطالب العربي معرفياً، ويؤدي هذا الضعف إلى خلل في الكفاية في سد حاجات سوق العمل، وكأن العيب في ذات المتعلم، وليس في محيطه التعليمي الذي يعتمد أساساً على أستاذ أو معلم ونظام تعليمي يقومان بتشكيل ذخيرته المعرفية ودليلاً الذي لا يخفى على أحد هو أن أبناءنا عندما يتلقون العلم في مجتمعات متقدمة بنشاطها العلمي والمعرفي والتقني نجدهم يتميزون ويبدعون حتى تتهاافت عليهم بعض المراكز للعمل فيها بعد تخرجهم.

ونلقي باللائمة على المعلم في مراحل ما قبل الجامعة ونفسى أنه نتيجة هذه النظم التعليمية التقنية التي لم تمنحه الفرصة الحقيقية للتعلم من خلال حرية التعبير وإبداء الرأي حتى يملك بعدها القدرة النقدية والتحليلية، وتجدر الإشارة هنا إلى سياسات القبول في الجامعات العربية التي ترمي بالطلبة إلى مجالات وتخصصات لا رغبة لهم بدراستها، وحتى ينتهي بهم الأمر إلى التعثّر في التحصيل المعرفي، ومن الأمثلة هو مجال اللغة العربية فقللة المتبلين على دراسته لأسباب عديدة منها على سبيل المثال لا الحصر هو سوء تعليم هذه اللغة حيث لا يسعى المعلم فيها إلى عوامل التشويق والجذب في اختيار موضوعاته بنصوصها الجاذبة ووضعها بين يدي المتعلم معتمداً الحوار وحرية إبداء الرأي والتعبير، لذا يدفعون بهم إلى هذا التخصص كرهاً فتتحول هذه الكراهية إلى معاداة لهذه اللغة ومن ثم إلى معاداة موروثة الذي تختزنه هذه اللغة، وخاصة أن أغلب خريجي هذا التخصص يتجهون إلى مهنة التدريس، فيورثون هذه الكراهية إلى تلاميذهم، وهكذا دواليك.

## ملف البيان

(مقالات)

### تجربتي.. بين كتابين\*

بقلم: د. سهام الفريح \*

ليست المرأة هي قضيتي الأولى إنما هي قضية مجتمع ينتمي إلى أمة. ولكي نعرف مدنية مجتمع ما علينا أن نعرف مكانة المرأة فيه، لأجل هذا كانت بدايتي في كتابي (الجواري والشعر في العصر العباسي). ومرت السنوات بي في البحث حتى طلب مني عمل دراسة مختصرة عن ( المرأة العربية في المجتمعات القديمة).

فكان أن فتح لي آفاقاً بعد أن قرأت عن المرأة تجبر الرجال وتمتحن التجارة وتخالط الرجال في المحافل العديدة كأمر طبيعي، وتتعدد زيجاتها، وتخطب الرجل، الرجال كأمر طبيعي أيضاً.. توقفت عند هذه الأخبار المتواترة التي أثارت فضولي واستغرابي في الوقت ذاته كامرأة تعيش في القرن الـ ٢١، وأجد القيود على الحريات، وترفض الآخر.

فعدت إلى أمهات الكتب العربية القديمة لأقرأها بتأن بعيداً عن تلك الأحكام المسبقة التي رسختها مناهج متخلفة، وبعداً كل البعد عن أساطير (ألف ليلة وليلة) التي اندفعنا إليها بتأثيرات الغربيين، وكأنها تحمل الحقيقة الكاملة وتحمل كل التاريخ الماضي لهذه الأمة، وما هي إلا ميثولوجي لعدد من الأمم التصقت بالموروث العربي، لأنها كتبت بالعربية ولم يعرفها العالم إلا بلغتنا. وبعد البحث والتقصي لم أغفل دراسات حديثة وجدت في إحداها التي تبتعث من التقييمات الأثرية في اليمن مثلاً، والتي أكدت على وجود خمس ملكات حكمن اليمن وليست بلقيس فقط.. وكذلك في مملكة تدمر حكمت ثلاث ملكات وليست زنوبيا فقط.

هذا الموروث الزاخر بسلبه وإيجابه لم يُنثر الغبار عنه كما يجب، فقرأناه بمنظار حاضرنالكثيب لنسبغه على الماضي بأكمله، فبدأت جوانب كثيرة تتكشف لي.. فلم يكن ماضينا حروب دائمة، وسلب ونهب ووآد بنات في كل عصوره وبيئاته، وإن أطلقوا عليه العصر الجاهلي، ونحن نعلم أن اللفظة (الجاهل) أكثر من معنى وبحسب سياقها، أولها أن الجاهل ضد الحلم.

نعم هناك مواقف ضعيفة، وهل لأمة من الأمم أن يخلو ماضيها من التخلف والضعف والانكسار مهما بلغت في بعض حالاتها من المدنية والحضارة الإنسانية؟

نعم كانت هناك حروب، وكان وآد البنات، وكان بجانب هذا، حضارة فكرية ومعنوية وكانت هناك قيم عظيمة كما قال نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» ويكفي العرب أن أول حلف مدني في التاريخ لمساعدة المستضعفين قال عنه النبي (ص) كنت صيباً، وكنت أتمنى أن ظهر في الإسلام (حلف الفضول).

\* محاضرة قدمتها الدكتورة سهام الفريح في رابطة الأدباء بتاريخ ٢٣/١٠/٢٠١٣م.

\* أكاديمية من الكويت



وصادف أنني خلال تلك القراءة كنت أقوم بإعداد معجم للشعر العربي القديم أدخلت ما يقارب ٣٥ مفردة منه بالكمبيوتر.. فكتشفت لي هذه المفردات مدلولات هائلة في الجوانب الفكرية والإنسانية.. فعدت إلى ذلك الكتاب (الجواري..) وأنا أريد طمسه وإلغاءه.. فجاءتني النصيحة من كبار أجلهم وأقدر علمهم بالإبقاء عليه لأن ما فيه حقائق وليست أساطير، واكتشفت أن العلة في المعالجة والتحليل بسبب ذلك التلقين الساذج.

فخرجت بهذا الكتاب (المرأة العربية والإبداع الشعري) بذات الفرضية لقياس مدنية تلك المجتمعات بقياس مكانة المرأة فيه، وكان دليلي تلك الأخبار المتواترة في أمهات الكتب، وشعر المرأة ذاتها، ليس فيما قالت في الرجل فحسب، بل ما قالت في كل منحى من مناحي الحياة، عبرت فيه عن نزعاتها، ورغباتها، وقناعاتها دون خجل أو وجل، على ضائلة وقلة ما وصل إلينا من شعر النساء في عصر ما قبل الإسلام والعصر الإسلامي، فأين ذهب ذلك المخزون الشعري للمرأة إن كان أبو نواس وحده يقول بأنه حفظ (٦٠) ١١ ديواناً من شعر النساء ٩٩ إلى هذا الحد أغفل وأهمل من المتأخرين أكثر منه من المتقدمين. وإن وقف بعض المتأخرين عند شعر المرأة، فإنه لا يقف إلا عند الخنساء للتدليل على أن المرأة لا تبدع إلا في البكاء أي الرثاء.. وقالوا أن المرأة توارب بشعر الحنين للأوطان عن التعبير عن خيالاتها وعواطفها تجاه الرجل.

فلنستمع إلى هذه العجوز وهي تتحدث عن ماضيها في العشق ص (٤٧) (٢)، وتلك الفتاة التي تفخر بأماها الفارسية في عصر العصبية القبلية والتنازع بالألقاب ص (٥٠) (٣) الذي لم يتحمله الشاعر عروة بن الورد فخرج على القبيلة ليمش صعلوكاً يرضى المستضعفين، وما قالتها فاطمة بنت مر في عبد الله والد النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وكانت من فضليات العرب، وكانت كاهنة ونحن نعلم ما للكاهنة من مكانة في تلك العصور ص (٤٩) (٤).

طلبت عبد الله والد النبي (صلى الله عليه وسلم) للزواج منها وتمنحه مئة من الإبل، فكان رده أن الأمر بيد والده أبي طالب، الذي زوجه بعد ذلك من أمنة بنت وهب.

وضباعة بنت عامر كانت فائقة الجمال ص (١٧-١٨) (٥) مات عنها زوجها هوذة بن علي الحنفي فترك لها مالا، وكان يمدحه الأعشى بشعره ويصفه بـ (الوهاب) ثم تزوجت عبد الله بن جدعان، وكان مسناً، التقاها (هشام بن المغيرة) وهي تلطوف بالكعبة، فقال لها: أياك هذا الجمال والشباب عند شيخ كبير؟

ثم تنتقل إلى العصر الأموي فتلقانا ليلي الأخيلية التي تكسبت بشعرها. أي شعر (المديح) فمدحت معاوية بن أبي سفيان، وكذلك الحجاج بن يوسف الثقفي. وكانت تحضر مجالسهما بين الرجال ولم تنكسر عندما أراد معاوية أن يرمز بالسوء إلى علاقتها بحبيبها توبة بن حمير، فكان لها الرد القاطع بتلك العلاقة السامية التي تبعد عنها صفات العيب.

وغيرها كثيرات، فنقرأ عن الدماء وهي فتاة شابة هجت الأخطل الشاعر الملسون، فاشتكاها لأبيها قائلاً: يا أبا الدماء ببني وبينك وُدٌ، والدماء هجتي، فرد الأب: إنها امرأة مالكة نفسها. وهذه الفتاة عاشت في القرن السادس الميلادي.

دعونا ننظر إلى وضع المرأة الغربية في القرن الثامن عشر الميلادي ببريطانيا فقد كان يتسم بالتحيز ضد المرأة فكانت المرأة الكاتبة عند نشر ما تكتبه تتخفى بأسماء رجالية، في بريطانيا وفرنسا لنشر ما تكتبه لتتال الإقبال من القراء، ودعونا نقف عند ذلك الكاتب (ماثيو كريكوري لويس) الذي برز وهو في العشرين من عمره في روايته (الناسك) عندما علم بأن والدته تنوي نشر قصتها غضب وهدد بالهجرة إلى فرنسا، للعار الذي سيلحق به ومن سيتزوج أخواته، وأهمهم كاتبة<sup>١١١</sup>.

وكذلك موقف الأديب الكبير (ساديثر) من (شارلون برونتي) وهي إحدى الروائيات الإنجليزيات يحذرهما من اتخاذ الكتابة الأدبية مهنة لها عندما كتبت له تسألته رأيه في بعض قصائدها قائلاً (لا يمكن أن يكون الأدب مهنة للمرأة) لما لها من واجبات أساسية كزوجة وأم. وفي العصر العباسي لن أقف عند قائمة طويلة من النساء، إنما سأكتفي بذكر عليّة بنت المهدي، ومكانتها الفنية، فقد أنشئت مدرسة للغناء، تراحم بها أخاها إبراهيم بن المهدي، وكذلك اسحق الموصلي ص (٣٠-٣١) (٦).

وكان أخوها الخليفة الرشيد يدعوها إلى مجلسه لسماع ألحانها، ويسعى إلى مجلسها عند اشتياقه إليها وإلى سماع صوتها وكانت ترافقه في بعض رحلاته، وقد امتعت عن الغناء بعد موت أخيها الرشيد.

إن المكانة التي وصلت إليها هذه الدولة في العصر العباسي، ما هو إلا نتيجة إلى ازدهار الحركة الفنية والثقافية، ونتيجة إلى المستوى الحضاري والإنساني الرفيع الذي وصل إليه المجتمع في تلك الفترة.

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

- ١- المرأة العربية والإبداع الشعري - سهام الفريح ص ٦٠.
- ٢- المرأة العربية والإبداع الشعري - سهام الفريح ص ٤٦.
- ٣- المرأة العربية والإبداع الشعري - سهام الفريح ص ٥٠.
- ٤- المرأة العربية والإبداع الشعري - سهام الفريح ص ٤٩.
- ٥- المرأة العربية والإبداع الشعري - سهام الفريح ص ١٧-١٨.
- ٦- المرأة العربية والإبداع الشعري - سهام الفريح ص ٣٠-٣١.



## ملف البيان

(مقالات)

### د. سهام الفريح.. تجسيد مثالي للتعليم

بقلم: د. طارق البكري \*

معرفتي طويلة بالدكتورة سهام الفريح، تمتد لنحو عقدين من الزمان، منذ أن وطأت أقدامي أرض الكويت الحبيبة، لأرشف من تبع هذه البلاد الخير الوفير. ثم توطدت علاقتي أكثر بالدكتورة سهام عندما بدأت دراستي للماجستير في كلية الآداب بجامعة الكويت، قسم اللغة العربية، وكانت وقتها رئيسة برنامج الماجستير، قبل نحو عشر سنوات.. ونشأت بيننا علاقة كانت - بالنسبة لي - علاقة فريدة نادرة بسبب شخصيتها المميزة لا بسببي، فهي على وعي تربوي عميق في العلاقة التربوية التعليمية، تترجم العلاقة المثالية للأستاذ الإنسان بتلميذه الباحث عن المعرفة.

كنت وقتها حاصلاً على شهادة الدكتوراه من لبنان، ولم أكن أريد أن يعاملني أحد في الجامعة كحامل للشهادة العليا، فأنا الآن تلميذ وعدت إلى مقاعد الدراسة لأدرس شيئاً جديداً، لكنها من فرط تواضعها رفضت ذلك.. فهي كانت ولم تزال تعامل الجميع برؤية واضحة، رؤية المربي الناصح الراشد، توجه وتسلل وتبين، بتواضع جم، وفهم رزين..

ومن حسن طالعي أنني درست عندها أكثر من مادة، فتعلمت منها قبل العلم شيئاً خاصاً أرحب في نفسي - وما يزال - قيم الرقي الحضاري، والتفنن العالي في التعليم، فضلاً عما تختزنه من مسائل علمية عميقة، جعلت من فترة الدراسات العليا بالنسبة لي فترة مرحلة ثرية، متخمة بالعمل والنشاط، وخاصة في مادة لها علاقة بتحليل المخطوطات. حيث كان يهمها التطبيق ولا يهمها التظير.

الدكتورة سهام الفريح أكبر بكثير من أن نكتب عنها، وأنا على ثقة بأنني لو كتبت فقط عن الجانب العلمي لوجدت الكثير، ولو كتبت عن الجانب التربوي لوجدت أكثر.. وحدث أيضاً عن الجوانب الأخرى في اللفتات الإنسانية والإدارية والأخلاقية، وما تمتاز به من تواضع خفية.. ومن النادر، بل من الشديد في الندرة أن نجد مثل هذا التواضع التي تتحلى به، فتمتاز عن غيرها من الناس، بعلو الهمة، وصدق المشاعر، وتواضع العالم، ودأب الباحث وهي من أهم سمات العلماء النجباء على مر العصور.. وهذه الشخصية الفريدة والصفات المتنوعة التي تتحلى بها، كانت تنعكس بالتالي على نفسي وعلى كل المحيطين بها، سواء في الوسط العلمي أو في التقايف أو الاجتماعي.

\* كاتب لبناني مقيم في الكويت - سكرتير تحرير مجلة التقدم العلمي.

ولا أستطيع أن أفصل كل هذه المراحل بعبارة، لطول المدة التي عرفت بها الدكتورة، فهي بالرغم انشغالها ومسؤولياتها فإنها حافظت على علاقتي بها وهي مستمرة حتى الآن، ودائمة في المستقبل إن شاء الله، والسبب الأول يعود لها، لحرصها على التواصل مع الجميع، وكل معارفنا المشتركين يقرون بذلك..

ولعل أجمل مرحلة علمية عشتها في حياتي وعلى مدى سنتين متتاليتين، خارج مرحلة التعليم الصفي، كانت مرحلة إعداد أطروحة الماجستير، حيث كانت، ومن فرط حبها للطفولة واهتمامها بدراسات الطفولة أن وافقت دون تردد على الإشراف على الرسالة التي أعدتها، وكانت بشهادتها أول رسالة ماجستير عن أدب الطفل في كلية الآداب بجامعة الكويت، فقبلت على الفور..

ومن أعجب العجب، وكبيرة تحتكر الرأي، وهذا أمر قليل، نظراً لتوجه المشرفين على الأطروحات العلمية، وبالرغم مما تملكه من رجاحة في الرأي، ومن مكانة في المستوى العلمي والأكاديمي، طلبت مني أن يشترك معها في الإشراف شخص آخر. ومن النادر في الجامعات أن يشرف على الرسالة العلمية وخاصة في مرحلة الماجستير أستاذان كبيران بهذا المستوى، لكنها أصرت على ذلك، ورشحت أستاذاً كبيراً في الفولكلور ومتخصص في النقد والدراسات المتصلة بأدب الأطفال، وهو العالم الدكتور الراحل محمد رجب النجار المشهور بعلمه وأدبه. وكان الراحل أستاذاً أيضاً، فمضى معنا في رحلة ممتعة توجيهاً وتعليماً، يصبر عليّ، كما كانت تصبر عليّ الدكتورة سهام، حتى اقترينا من النهاية، لكن الموت كان أسرع إليه من موعد مناقشة الأطروحة رحمه الله رحمة واسعة لقد كان نعم الأستاذ المحب الناصح..

والشاهد في هذا تواضع الدكتورة سهام الحم، ورغبتها بأن تخرج الأطروحة متكاملة من كل الجوانب، العلمية والتربوية، حتى لو شاركها في الإشراف أستاذ آخر، مدركة أن الشهادة العلمية ليست هي الهدف، لأنني كنت حاصلاً من قبل على الدكتوراه، بل كان الهدف تجويد الرسالة..

لا يمكن - في الحقيقة - اختصار تلك العلاقة التعليمية التربوية الممتدة مع الدكتورة سهام بكلمات قليلة، ولا يكفي أن أشير مثلاً إلى أننا التقينا مرة على منصة واحدة قبل فترة وجيزة، حيث شاركنا في مؤتمر عن الطفل، وذكرت أنني تلميذها وما زلت، لكنها عارضت هذا القول أمام الجميع.. ليس لأن كلامي ليس حقيقياً.. لكن لأنها بالحق «معلم» في وقت قل فيه العلم.. وخبث جذوته في قلوب كثير من الناس.. وقبل أيام قليلة التقينا في مؤتمر الفكر العربي في الأردن.. وكنا على طاولة واحدة فسأل أحد المشاركين عن جنسيتي.. فأجابت على الفور: «نحن نعتبره كويتياً».. ولا يسعني أخيراً أن أرسل بتحية لأستاذتي.. وكنت أتمنى أن تأتي فرصة لأعبر لها عما أكنه لها في قلبي من حب.. لقد كانت خير معلم.. وما زالت.. بوركت يا أستاذتي.. وأطال الله في عمرك.. لقد تعلمت منك الكثير.. وانعكس تعليمك في نفسي، فكوني راضية مطمئنة.. وما أنا إلا واحد من آلاف التلاميذ أمثالي الذين زرعت في قلوبهم بساتين الخير والجمال.. ويعترفون بفضلك.. فلك مني كل الحب والوفاء..

## ملف البيان

(مقالات)

### د. سهام الفريح .. الإنسانية

بقلم: د. ختام الخولي \*

هي إنسانة قبل أن تكون أستاذة ، ذات صدر رحب يحتوي الناس أجمع ، ودودة ، لها سحر على طلبتها ، فتجمع قلوبهم ، وتوحد جهودهم وعملهم ، وتحفزهم على المثابرة والدرس دون ضغط أو إكراه ، فتراك في حرمها تبحث وتبحث كي تستزيد علما ، وتهل من منابع الفنون أدبا .  
تجرتي مع الأستاذة الدكتورة سهام الفريح كانت رائعة ، بل أعدها تجربة فريدة حلوة صادقة ، درستني الأدب العباسي في اليسانس ، ثم أشرفت على رسالتي في برنامج الماجستير في جامعة الكويت ، كانت أستاذتي ومشرفة على رسالتي ومديرة لبرنامج الماجستير في الوقت نفسه ، كنت أراقبها وهي تحمل على كاهلها مسؤولية هذا البرنامج وكيفية العمل على إنجاحه وتطويره ، وتسخير الصعاب لرفعته ، تتابع الطلبة ، وتستمع لشكاوهم تارة ، ولآرائهم تارة أخرى ، طموحها أن ترتقي بهم وتساعد بهم إلى مصاف الباحثين المتمكنين .  
أسلوبها في التدريس مختلف وليس تقليديا ، يواكب الطرق الأكاديمية الحديثة ، عرّفتنا على المصادر والمراجع ، وكيفية التعامل معها وعشقها ، والشرب من منابعها ، وزرعت فينا فن النقد وإبداء الرأي وتحليل النص ، وتذوق حلاوة اللفظ ، فغمرتنا بعبق الأجواء الأدبية وطبيها . محاضراتها في قلب المكتبة بين الكتب والمراجع حيث إنها تجد هذا المكان هو المناخ المناسب لتلقي العلوم .

كانت ضيفتنا في الجامعة الأمريكية لأكثر من ثلاث مرات ، وفي كل مرة كانت تقدم المادة بصورة جديدة ، ومحاضراتها فيها تجديد وترغيب . ومن خلال هذه الزيارات استطاعت أن تستقطب الطلاب وترغبهم في الأدب ، فنلاحظ انجذاب الطلاب لفكرها وآرائها ، فاختارها الطلاب لتكون موضوعا لبحوثهم ودراساتهم كونها شخصية أدبية مهمة ورائدة في هذا المجال وعلمنا من أعلام دولة الكويت ، فقامت الطالبة أسماء المطرود بتناول هذه الشخصية الرائدة وإنتاجها الأدبي في تقديم مميز أكاديمي عرضته على (البوربونت) أذهل الحضور بمادته الفنية بمساهمات وأعمال وخدمات الأستاذة الدكتورة سهام الفريح .

أنشطتها ومساهماتها لم تتوقف عند بوابة الأدب في البحث والتأليف الذي تجاوز فيه عدد

\* أكاديمية من الأردن مقيمة في الكويت - الجامعة الأمريكية.

مؤلفاتها ستة عشر كتابا . بل نجدها تقدم الخدمات الجليلة للمجتمع الكويتي والعربي كونها تمثل رئيسة لجمعية حقوق الطفل ، فترأس الاجتماعات ، وأدارت الندوات ، وحضرت المؤتمرات ، ومثلت دولة الكويت في أكثر من مقام . وها هي تحمل هموم الطفل الكويتي والممارسات ضده إلى جنيف كي تدافع عنه وتتنزع حقوقه ، وتعلي من شأنه ، وتسوي أمره ، وتكسب دولته السمعة العطرة . وها هي تفتح منزلها لأكثر من سبع سنوات لتقيم فيه حفلات خيرية يذهب ريعها إلى الطلاب الذين لا يستطيعون دفع الأقساط المدرسية للظروف الاقتصادية الصعبة التي تلم بهم، ثم تتابع هذه الفعاليات في الفنادق والصالات كي تحقق ريعا أفضل لتسخره في معونة من يحلم بمقعد في مدرسة ومريول وكتاب .

حياتها بالعطاء ثرية ، وأخلاقها دمة ، وتعاملها راق ، وعلمها وافر ، وحنانها غامر ، ولقاؤها راحة ، والتعامل معها فرحة ، وكلامها قطوف واحة .

فتحت لنا أبواب المشاركة في فعاليات اليوم المفتوح في جامعة الكويت ، لأكثر من مرة ، وأشرفت على التقديم بكل دقة ، ثم ساندتنا في تكملة مشوار طلب العلم في رسالة الدكتوراة ، لأن فرحنا هو فرحها ، ونجاحنا وليد نجاحها .

فلأستاذتي الموقرة الأستاذة الدكتور سهام الفريح كل تقدير واحترام ومودة ..... شكرا لك أستاذتي على كل وقت منحني إياه للأخت بيدي لأتسلق سلم العلم والأدب . فأنا وكل من غمرتهم بأدبك وتأديك نقف احتراما وإجلالا أمام حرمك الموقر، فلك كل المحبة والاحترام .

<http://Archivebeta.Sakhrif.com>



## ملف البيان

(مقالات)

### الدكتورة سهام الفريح.. شهادة الطالب بالقدوة

#### الأخلاقية والعلمية

بقلم: عهود العتيبي \*

يمر في حياتنا أشخاص نظن أن الذي يجمعنا بهم هو مجرد عمل أو دراسة، ثم ما نلبث أن نكتشف بأنهم أكثر من ذلك، حيث يقيمون في ذاكرتنا ووجداننا إلى الأبد. ولكي يكون الأشخاص كذلك، لا بد أنهم يتمتعون بصفات معينة تجعلهم قادرين على المكوث في أعمقنا، ومن هذه الصفات أن تكون أخلاقياتهم عالية، ووعيهم مستقيماً فننهل من سلوكياتهم بقدر ما ننهل من علومهم. ونسترشد بفكرهم المستبصر ونستبدل على الطريق الصحيح. من هؤلاء الناس أخص بالذكر الأستاذة الدكتورة الفاضلة سهام الفريح، والتي تركت في صفحات أيامي سطوراً ذات معنى عميق لا يمكن أن تمحى. فعين التحققت بكلية الآداب قسم اللغة العربية، بدأت أتعرف على هذه الشخصية الأكاديمية الفذة، ومنذ الوهلة الأولى، لفتت نظري بحضورها الأسر علمياً وخلقاً. ولا أنكر أنني كتبت متهيبية بسبب انتقالني من حياة دراسية إلى أخرى أكثر صعوبة وأشد عمقاً. وتساءلت في سري كيف لي أن أجتاز هذه المرحلة التي لا أعرف عنها شيئاً. وأحسست بفرغ يحيط بي من كل حذب وصوب، وشعرت بأنني لا أملك بوصلة تقودني من هذا الشتات الذهني، ولا أي كتاب أقرأ. ولكن بعد أسابيع قليلة، تلمست هذا الطريق من خلال الضوء الذي أضاعته لي الدكتورة سهام الفريح، فقد بدت لي كأنها أم رؤوم تلقنني الدفء قبل أن تلقنني الحرف. وبدأت أستعيد توازني شيئاً فشيئاً، فقد كانت الدكتورة سهام الفريح تصنع لنا جواً منزلياً وليس فقط قاعة للتدريس.

#### الثقة والتشجيع

وأدركت بأن علي التقرّب أكثر من هذه القامة الإنسانية، ولكن بشيء من الوجل الذي يعتري عادة علاقة الطالبة بأستاذتها، إلا أن الذي فاجأني هو أن الدكتورة سهام الفريح هي من سعت إلى تقصير المسافات بيننا، فأصبحت تمنعني الثقة والتشجيع والقوة التي يحتاجها أي طالب في تلك المرحلة. فسمعت بداية إلى ترغيبني بمادة اللغة العربية، وغرست في أعماقي حب هذه المادة كعنصر أساسي في حياتنا نستطيع من خلالها أن نكتب ونبدع ونعبر عما يدور في أعماقنا. وتحولت هذه المادة على إثر ذلك من منهج علمي إلى مادة صديقة لي في قراءاتي. فأحببت الشعر والرواية والقصة والمقالة وكل ما تجود به علينا اللغة العربية من عطاءات. وأصبحت أرتاد المكتبات وأفتتي الكتب، وكنت أراها تطل علي من بين السطور بابتسامتها الحنونة وكأنها تسألني عما قرأت وماذا فهمت من الكتاب. كان أسلوبها مدهشاً في التدريس، تشعرك بأنك أمام شاشة فيها كل وسائل الإيضاح، فهي تمتلك أسلوباً غير تقليدي، ترغبيك بالمحاضرات وتجعلك تنتظر محاضرتها بفارغ الشوق، وفي كثير من الأحيان كانت تشاركنا في موضوع المحاضرة لتوهمنّا بأننا نحن من تلقينا وليس هي. كانت المحاضرة تتحول إلى ساحة نقاش وجدال وتبادل لوجهات النظر، وتشعرنّا بأن آراءنا هي الحد الفاصل في معظم النقاشات، وحين يكون لديها وجهة نظر مغايرة، فإنها تمررها إلينا بأسلوب حضاري راقٍ من دون أن تجعلنا نشعر بأننا على خطأ وهي على صواب.

\* كاتبة من الكويت



### رمز وطني

ودفعني إعجابي وحبّي لهذه الشخصية بأن أسعى لسبر أغوارها أكثر، فاكشفت بأن الدكتورة سهام الفريح شخصية ناشطة اجتماعياً في مجالات عديدة، منها حقوق الإنسان وحقوق الطفل، وغير ذلك من مجالات أوصلتها للعالمية. واطلعتُ على نشاطها المتميز في هذا المجال وربطت بينه وبين نشاطها الأكاديمي والعلمي، فعرفت بأن لهذه الإنسانية رسالة في الحياة تستحق الاحترام.

عرفت بأنها رمز وطني متدفق بغزارة، تمنح من وقتها وجهدها الكثير للأعمال التطوعية التي تقف من خلالها مع الإنسان في أي مكان وزمان بغض النظر عن أية اعتبارات أخرى. وكان لي شرف حضور تكريمها بتاريخ ٢٠٢٣/٦/١٧م، من قبل المغفور له بإذن الله الأمير الوالد الشيخ سعد العبدالله الصباح كباحثة متميزة على مستوى جامعة دولة الكويت.

بعد ذلك شعنتني إحساسها الأمومي الراقي تجاهي بأن أدعوها لحضور حفل تخريج طالبات المدرسة التي أعمل فيها، وجاءني جوابها متوقفاً بأنها ستلبي الدعوة، ورغم بعد المسافة التي تفصلها عن المدرسة إلا أنها كانت في مقدمة الحضور، مما زادني ثقة بعلمي، وشعرت بزهو وفخر أمام إدارة المدرسة وأمام الطالبات. وجعلني هذا الموقف أعرف ميزة جديدة بالدكتورة سهام الفريح بأن علاقتها بطلبتها لا تنتهي عند حدود العمل الدراسي داخل الحرم الجامعي، ولا بعد تخرج الطالب، إنما تمد جسوراً إنسانية رائعة مع طلبتها حتى بعد تخرجهم وتتابعهم كي تتأكد من الثمار التي غرست أشجارها بأنها نضجت بما يليق بمجتمعنا.

### «مرايا الذات»

الدكتورة سهام الفريح وفيه جداً لمن حولها، وقبل ذلك فهي وفيه لمهنتها، فعندما تقدّم الشاعر المرحوم زكريا الأنصاري في العمر سارعت إلى جمع أشعاره التي لم تنشر من خلاله شخصياً، وعلمتُ بأنها كانت تزوره في مكتبته وتعرف منه تفاصيل حياته الشخصية الزاخرة بالمعطاء، وكانت النتيجة أن أصدرت كتاباً عنه بعنوان «مرايا الذات»، وهو اليوم المصدر الأهم عن هذا الشاعر في المكتبات الكويتية.

ولست هنا بصدد التطرق إلى سيرتها الذاتية/العلمية، ولو فعلت لما وسعتني صفحات طويلة، بل قصدت من هذه الكتابة تسليط الضوء على جانب آخر تناولته من وجهة نظر طالبة وعلاقتها بأستاذتها، وهو جانب قد لا يظهر كثيراً للعيان، فرأيت من باب الوفاء والأمانة أن أنقل هذا الحيز، وكتب غيري الكثير عنها، فحين تم اختيارها لعضوية جائزة الشيخ زايد للكتاب، جاء في حيثيات الاختيار هذه العبارة كشاهد على رأي المؤسسات الثقافية بها: «يأتي اختيار الدكتورة سهام الفريح عضواً في الهيئة العلمية لجائزة الشيخ زايد للكتاب للإفادة من خبراتها وكفاءتها العلمية، ولذلك يمكنها أن تكون ذات مشاركة فاعلة في اختيار المحكمين الذين توكل إليهم تسمية المرشحين المحتملين لنيل الجائزة». (من موقع المؤسسة الإلكتروني). وأفتطف هنا فقررة من مقالة الدكتور عبدالله سهر المنشورة في صحيفة الوطن الكويتية بتاريخ ٢٩/٩/٢٠١٣م: «سهام الفريح الأستاذة التي عبرت الحدود الكويتية بشعرها وأدبها وعلمها واتخذت مكاناً مرموقاً في العديد من الدول والمجتمعات الأكاديمية ليست بحاجة لمصوفاة كلامي مهما بلغ من ثناء ومديح مستحق لها. منذ ١٩٧٩ وهي تقف في صفوف التدريس الجامعي تثابر وتكتب وتتقل من منتدى لآخر، تؤلف تحاضر وتتقد من جولة لأخرى، تساهم تعطي وتباشر في أعمال تطوعية دون أن تستعطي كلمات شكر، هي كذلك منذ عرفتها أستاذة تتخذ من النبل نهجاً في قوامها وقيمها وهل تعرفون يا رجال معنى نبل المرأة! بالتأكيد هناك من يعرف ذلك النبل الذي تجلّى أحد معانيه بالشجاعة والصدق جعل البعض منهم يخجل من صغره في مقابل صرح كبير اسمه سهام الفريح».

وسأجعل هذه الكلمات خاتمة شهادتي البسيطة بحق صرح عظيم، فمهما كتبتُ لن أصل إلى قمة البرج العلمي والاخلاقي والإنساني الذي صنعته صاحبة الرمز الوطني الدكتورة سهام الفريح، النموذج الذي يستحق الاقتداء به وتعميمه كتجربة خلاقة في مجتمع يسعى للكمال.

## ملف البيان

(مقالات)

### وتبقى هي «ابنتي المدللة»!

بقلم: أبرار أحمد محمد ملك \*

سعدت كثيراً بتوجيه دعوة لي للمشاركة في ملف خاص بالدكتورة الفاضلة «سهام الفريح»، وأشكر معد الملف أ خليل السلامة على هذه الدعوة الكريمة، ونحن على «مسرح الحياة» نلتقي في فصولها الممتلئة بالمواقف والأحداث المفرحة والحزينة بأناس إما أن يمروا من أماننا مرور الكرام وربما لا نذكرهم فيما بعد، وإما أن تضرب جذور ذكرياتهم معنا أرضيتي عقولنا وقلوبنا فتتربع به، إن المواقف التي تحدث معنا هي التي من شأنها إما أن تولد العلاقة أو تتلاشى فيما بيننا يياتون فيما بعد جزءاً منا لا غنى لنا عنهم، وبما إننا على خشبة «مسرح الحياة» كلنا فوقها ممثلون بمستويات مختلفة وهناك منا من تجاوز الاحتراف، تتساقط الأقتعة أحياناً وأحياناً أخرى تبقى، وفي بعض الأحيان أيضاً نحتار كثيراً بحقيقة الشخص الذي يقف أمامنا حيث تكون له عدة شخصيات.

شاء لي القدر أن ألتقي بشخصية نسائية كويتية فذة وجدت بها نبل الشاعر وسمو الأخلاق والعقلية الراجحة وسعة الصدر، شخصية متزنة، وجدت كنزاً نادراً ما يجود لنا بها الزمن، فهي عملة ذات وجه واحد، نقية وشفافة القلب، لا تجامل، فالمعاملة بوجهة نظرها نفاق، معلمة لأبنائها الطلبة في الحرم الجامعي ولكل طالب علم خارج، وأنا واحدة من طالباتها، ولكن خارج الحرم الجامعي، عرفتها بتواضعها الجم وإنسانيتها اللا محدودة، تعمل بصمت وبشكل متواصل بعيداً عن الأضواء والسعي وراء الشهرة وبريقها، فالشهرة وبريقها هما من يسعيان وراءها، خدمت وطنها بقدر المستطاع بكل ما تملك بقلمها وفكرها، فتجد بأنها قدمت العديد من الأبحاث والكتب والمقالات.... إلخ، الهادفة والقيمة، وأيضاً تبنيها لأهم قضية في العالم «الملفل» وكل ما يتعلق به، وغيرها من القضايا والأعمال، وهي عضو في العديد من جمعيات النفع العام التي من خلالها تنوعت عطائها.

اتجهت لها وأنا أعلم على إعداد إصدار متعلق بالمرأة الكويتية وكانت هي من بينهم، رحبت كثيراً بالفكرة وشكرتني ولكن حينما ذكرت لها اسم «د. لمليفة الرجيب» -يرحمها الله تعالى- أغرورقت عينها بالدموع فشعرت بألم وحزن فطأطأت رأسي، كانت كلماتها لي دعوة، وقد تركت لي حرية الاختيار ومهما كان قرارني لن تتأثر علاقتنا، ولكن وجدت إنه يجب فوراً أن أقبل الدعوة والعرض لكي تأخذ «د. الرجيب» حقها، فليتيم إعداد كتاب خاص عنها، وأنا إن رغبت سأكون معك لن أتركك، ابسمت لها كثيراً شكرتها من القلب... فدعوتها كانت صادقة ومنطقية ووجودها معي في هذا العمل كان بمثابة السور المتين الذي يرغب بحمايتي وتشجيعي فأنا مازلت في بداية طريقي، فهذا هو الكتاب الثاني لي كيف أعتمد عن قبولها وهي ترى أموراً مستقبلية من حكم الخبرة، وأنا قبلتها لأنني أردت أن أستغل الفرصة بل أستغل «د. سهام الفريح» استغلالاً مشروعاً حيث لم يحالفني الحظ كي أكون من طلبتها وهناك من ينخرط لدورات لتتعلم وأنا كل شيء جاءني على طبق من ذهب، فهل من العقل أن أعتمد، بدأنا العمل، فلم أر أمامي إلا قلب أم صادق ومعلمة فاضلة وصديقة صدوقة وقارئة ذات مستوى ثقافي عالٍ، تقرأ العمل وتبدي الملاحظات،

\* باحثه ومؤرخة مختصة بشؤون المرأة الكويتية

إن وجد شيء تود التأكد منه تتحدث معي فوراً وإن لم تجد لا تضيق الوقت، كنت أعمل وأعمل ومن ثم أحادثها نلتقي وأقدم ما لدي وأنا خائفة من الرفض إلا أنني كنت كطالبة تبحث عن بريق السعادة في عيني معلمتها، فهو دليل لنجاحها لتفرض، ففعلاً نتقي على العمل، لم تتدخل بشيء ولم تلح على أمر، أعطتني الثقة ومطلق الحرية.

وفي لحظة أهملت السماء على رأسي بأمطار العراقيل والعثرات وكنت أفكر بأن أضح الأوراق في درج مكتبي وأفضل عليه، ولكنني تساءلت من سيمنع الدكتور «الرجيب» حقها إن فعلت ذلك ؟ هنا جاءني مكالمتها فأخبرتها بالمكالمة التي جاءتني وقلت لها بكل صراحة « أنا خائفة عليك أشعر إنك ابنتي وليس العكس »، ومنها أعترف بأنني أيضاً أفتخر وأعتز بها وأعتبرها «ابنتي المدللة» بالرغم من كبر سنها أمد الله عمرها وأمتعها بالصحة والعافية.

وجاء يوم المؤتمر الذي أقيم « برابطة الأدباء » وجاءت كلماتها الطيبة، كانت تسعى فقط لمنحي حقي والثناء على الشخصية الراحلة، وتؤكد إن أي عمل لا بد من وجود قصور فيه ولكن لا بد أن يشفع الجميع لي، فأنا عملت لوحدي في الكتاب تحت إشرافها، ليأتي دوري في الحديث حينها أعترف لم أستطع أن أتحدث كما يجب، وجاءت مقابلتنا لمعالي وزير شؤون الديوان الأميري الشيخ ناصر الصباح الأحمد الصباح -آنذاك- ورأيت كما كنت أراها دوماً تشي على عمل باحث في بداية طريقه أمام الجميع، فهي بهذا تدفعنا للعمل الجاد برعاية من الله ومن أمثاله وتضعنا أمام المسؤولين والقياديين لتقول وتؤكد لهم جميعاً بأن للكويت شبابها فعلاً، بعد العمل كنت متخوفة من أن تكون العلاقة فيما بيننا انتهت إلى هذا الحد، والحمد لله وجدتها تجاوزته، بدأنا نلتقي من حين إلى آخر وفي بعض الأحيان أجدها تتصل بي لتأخذ رأيي بأمر ما، ولم تتركني أتساءل، ظلت تردد علي أنت بمثابة ابنتي أتحدث بحرية وتخصت بإتقان ومن ثم تتخذ القرار.

قريبة جداً على من هم حولها، إنسانيتها لا حد لها، لن أنسى لها مواقفها معي منذ دخول جدي -يرحمها الله- المستشفى إلى أن توفيت، حينما تلقت الخبر كانت في مطار الكويت تستعد للسفر لهمة رسمية اتصلت بي وكانت قلقة وترغب بالقدوم، قلت لها غادري بحفظ الله وأطمئني أنا بخير، ولكن ظلت قلقة إلى أن التقينا سوياً وخلال الأربعة شهور تقريبا التي قضيتها في المستشفى برافقتها هي الإنسانية الوحيدة التي اتصلت بصدق وترغب بالأطمئنان وهي فقط من كتب لنا القدر أن نلتقي حينها، وفور وصولها لم يهدأ لها بال إلا بعد أن التقينا.

وفي يوم فاجأتني باتصالها تعرض علي المشاركة في عمل متعلق « بالأمثال الشعبية، خاص - بجمعية الشفافية الكويتية » وكما شعرت بثقل المسؤولية حينما أدركت بأنني سأعمل بين دكثرة وباحث قدير هو الأستاذ الكريم عبد الله خلف، كان ترشيحها لي رغبة منها بتوسيع مجالات العطاءات الفكرية والثقافية وخدمة المجتمع الكويتي في قطاع آخر وأيضاً هي فرصة لأتعلم من مجموعة من المختصين والمهتمين، ويكفييني فخراً وشرفاً بأنني كنت الأصغر سناً وأجلس برفقة والدتي لا معلمتي فقط.

أعلم جيداً بأنني لست ناقدة لأنقد كتابتها ولم أدرس وأبحث بعمق في سيرتها ومسيرتها ولكنني أعترف وأقر بأنني مهما تحدثت عنها ستبقى شهادتي بها مجروحة بحكم العلاقة التي تربطنا سوياً، وكما أجد صعوبة شاقة في الحديث، عنها وهي الأم، المعلمة، الصديقة وهي أقرب المقربين علي، وما أشد صعوبة على من أن أقدم اعتذاراً لعدم المشاركة بسبب تخوفي من أن لا أفهم حقها في الحديث ولكن عسى أن تكون كلمات موفقة فهي نابعة من قلب إنسانه تقدرها وتعزها كثيراً، أمنيته لها دوماً بالتوفيق والنجاح، وأن يتمتعها الله بالصحة والعافية وراحة البال والنفس، وتبقى هي ابنتي المدللة ٩ ١.



## ملف البيان

( مقتطفات )

### الدكتورة سهام الفريح .. نموذج

بقلم: د. عبد الله يوسف سهر\*

لم تستدعني الكتابة عن شخصيتها إلا الحسرة التي اعترتني بعدما عرفت كيف ترخص جامعة الكويت بمثلها، هذه ليست كلمات مجاملة أو سطور إبراء ذمة أقولها بحق أساتذة كبار في جامعتي العتيدة.

سهام الفريح الأستاذة التي عبرت الحدود الكويتية بشعرها وأدبها وعلمها واتخذت مكاناً مرموقاً في العديد من الدول والمجتمعات الأكاديمية ليست بحاجة لمصفوفة كلامي مهما بلغ من ثناء ومديح مستحق لها.

منذ ١٩٧٩ وهي تقف في صفوف التدريس الجامعي تتأبّر وتكتب وتنتقل من منتدى لآخر، تؤلف، تحاضر وتنتقد من جولة لأخرى، تساهم تعطي وتباشر في أعمال تطوعية دون أن تستعطي كلمات شكر، هي كذلك منذ عرفت أنها أستاذة تتخذ منذ النبل نهجاً في قوامها وقيمها وهل تعرفون يا رجال معنى نبل المرأة!!! بالتأكيد هناك من يعرف ذلك النبل الذي تجلى أحد معانيه بالشجاعة والصدق جعل البعض منهم يخجل من صغره في مقابل صرح كبير اسمه سهام الفريح.

\* عن جريدة الوطن - العدد ١٣٥٧٦ / ٨٠٢٢ - الأحد ٢٩ / سبتمبر / ٢٠١٣ م.



## خصائص الرحلة السفارية المغربية إلى أوروبا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر

بقلم: د. فريد أمعشوش \*

لقد عُرف المغاربة، منذ القدم، بالرحلة لعدة دوافع (١)، منها القيام بمهام السفارة لدى أمة أو قُطر تربطه ببلدهم صلات. ويذكر المتتبعون لتاريخ المغرب الدبلوماسي وعلاقاته الخارجية جملة وافرة من سفاراته إلى جهات مختلفة، أبرزها المشرق وأوروبا، وإن كان الطابع السفاري غالباً على رحلات المغاربة تجاه الضفة الشمالية من البحر الأبيض المتوسط بصورة أجلي، لاعتبارات عدة، ولاسيما منذ القرن الثامن عشر. وعلى الرغم من كثرة هذه السفارات، من حيث الفعل، إلا أن ما دُون منها وقيد كتابة قليل، وما هو بأيدي الباحثين والقراء محققاً منشوراً أقل!

إن المتوفر بين أيدينا من سفارات مكتوبة مطبوعة، على قلاته، يشكل اتجاهاً في جنس الرحلة، أو نوعاً رجلياً قائماً بذاته، تشترك مئونه في جملة من المميزات الفكرية والجمالية، نُطلق عليه «أدب الرحلة السفارية». ويمكن تعريفه بأنه فرع من الأدب الرجلي، بمفهومه العام، ينصرف موضوعه الأساس إلى وصف ما شاهده الكاتب، أو سمعه، في رحلته أو سفرته للقيام بمهام السفارة، مبعوثاً من قبل الأجهزة العليا في بلده، لدى أمة أو دولة أخرى، قريبة أو بعيدة، إسلامية أو أجنبية. ويتولى تدوين أطوار السفارة وما يتصل بها السفير عيئه إن كان مثقفاً، أو أحد أعضاء وفده الذي يرسل، عادة، لتسجيل ذلك، وإعداد تقرير مفصل عن السفارة لرفعه إلى السلطان غداة العودة. ولا مناص من الإشارة، ها هنا، إلى أن الرحلة السفارية إما أن توثق في حينها، وتحرر بالموازاة مع فعل القيام بها؛ فتتبع تحركات السفير، وتسجل نشاطاته، وتقل مظاهر الحياة في المجتمع المزار على اختلافها. وإما أن تُكتب تلك الرحلة لدى رجوع البعثة السفارية إلى بلد الانطلاق، بعد تأديتها الواجب الدبلوماسي الذي كلفت به، سواء من مذكرات الكاتب عن السفارة أو من ذاكرته وما يستحضره عن سفارته السابقة. وقد برز المغاربة في هذا النوع الرحلي، وكان إسهامهم فيه متميزاً<sup>٢</sup>، بل إن ذلك يعد إضافة نوعية مغربية، أو «أكبر مساهمة أدبية للمغرب في تاريخ الأدب العربي»؛ على حد تعبير محمد الفاسي<sup>٣</sup>. ويعود تاريخ أقدم سفارية مغربية مدونة، متداولة الآن بين الدارسين، إلى الدولة السعيدية<sup>٤</sup>، وهي «النفحة المسكية في السفارة التركية» التي ألّفها أبو الحسن علي التمروتي؛ سفير أحمد المنصور الذهبي إلى الخليفة العثماني مراد الثاني، عام ١٥٨٩، وحققتها محمد الصالحي تحقيقاً علمياً نال به، سنة ٢٠٠٦، جائزة «المركز العربي للأدب الجغرافي - إريتاد الأفاق»<sup>٥</sup>. وانتعش التأليف في هذا المجال خلال القرن التاسع عشر، ولاسيما منذ أواسطه، حيث بدأت تكتسي طابعاً رسمياً أو مؤسستياً<sup>٦</sup>، وكانت وجهتها أوروبية بالنظر إلى الوضع التاريخي الذي كان يعيشه المغرب إبّانئذ، في ظل التفوق الأوروبي، وظهور بوادر ضعف المخزن المغربي على الجبهتين الداخلية والخارجية. فمتد القرن الثامن عشر، استطاع الأوروبيون أن يفتحوا سلسلة من الهزائم بالأتراك والعرب، تكللت باحتلالهم مجمل مناطق العالم العربي في المشرق والمغرب معاً، بما فيها المغرب الذي استطاع أن يصمد طويلاً في وجه العثمانيين والأوروبيين، وأن يكسب احترامهم بوصفه قوة

\* باحث من المغرب.

عسكرية ذات تاريخ مشهود في الحروب والدفاع عن حومة الإسلام والتصدي للأطماع الخارجية. وقد ظل كذلك إلى حين هزيمته أمام القوى الفرنسية في موقعة إسلي (١٨٤٤) التي كانت تداعياتها قاسية على المغرب الذي انهزم سريعاً، رغم كثرة أعداد مقاتلي جيشه في هذه المعركة؛ بحيث كانت عُدّة الجيش المغربي خمسة وستين ألف رجل، في مقابل نحو ستة آلاف مقاتل من الجيش الفرنسي فقط، ولكنهم كانوا منظمين، ومسلحين بسلاح متطور. وقد شكل هذا اللقاء المغربي - الفرنسي في وادي إسلي، أحد روافد نهر تافنا، مفاجأة صادمة للمغاربة، أسماها بعضهم «صدمة الحداثة»؛ حيث أدرك المغاربة حجم وضعهم الحضاري الحقيقي، ولسوا سبب انهزامهم بتلك الطريقة غير المتوقعة، والمتمثل - أساساً - في افتقار جيشهم الجرار إلى التنظيم، وافتقاره إلى خطط فعّالة، وضعف أسلحته في القتال. وتعلم المغاربة دروساً من هذه الهزيمة، منها ما ذكره المرحوم محمد المتوني في قوله: «في الأمر أيضاً درسٌ قاسٍ للمغرب الذي لم يأخذ بالصالح من الحضارة الغربية؛ لأنه من طبيعة هذه المدنية أنها تقتضي على كل من لم يأخذ بأسبابها، سيما من كان جاراً قريباً لها كالمغرب»<sup>٧</sup>. وتلقى الجيش المغربي، بعد حوالي ست عشرة سنة، هزيمة أخرى أقسى في تطوان على يد القوات الإسبانية، ليتأكد ضعف المغرب وهشاشة بناءه الداخلية، وليفقد ما تبقى من هيئته التي اكتسبها عبر تاريخه البطولي المديد؛ فتعاظمت أطماع المستعمرين فيه، واقتطعوا أجزاء من أراضيه قبل أن يضعوه تحت حمايتهم فيما بعد.

إن هاتين الهزيمتين - الصدمتين دفعتا المغرب إلى مباشرة جملة من الإصلاحات في المجالات العسكرية والاقتصادية والإدارية، بل إن بعضهما فرضته القوى الأوروبية المتغلبة بما يخدم مصالحها في العمق، وإن كانت تبدو، ظاهرياً، دعوات للمغرب بهدف تحديث مجتمعه واقتصاده وإدارته، والانتقال إلى طور الحضرة والتقدم؛ ومن المعلوم أن هذه القوى، ولاسيما فرنسا وإسبانيا، كانت قد ألمّت شروطاً قاسية على المغرب في أعقاب هزيمة جيشه في موقعتي إسلي وتطوان، وحملت خزينته تكاليف باهظة، علاوة على تراجع سمعته على نحو واضح. وقادت الضغوط الإمبريالية على المخزن المغربي، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وتراكم الديون عليه، وتواضع إصلاحاته أمام قوة التحديتات الداخلية والخارجية، إلى انعقاد مؤتمر دولي، بحضور اثنتي عشرة دولة أوروبية ذات مصالح في المغرب، للتداول في سياسة التعامل معه تمهيداً للتدخل في شؤونه الداخلية، وممارسة مزيد من الضغط عليه لإجراء «التحديث» بالصورة التي رسمتها له، ويُعرف هذا المؤتمر بـ «مؤتمر مدريد» (١٨٨٠)، الذي كان بمثابة «البينة الأولى لتدويل المسألة المغربية»<sup>٨</sup>. وبموجب ذلك، «لم يعد موضوع الإصلاح والتحديث في المغرب شأنًا داخلياً فقط؛ أي أمراً يهمّ المغاربة كدولة ومجتمع ونخب، بل أصبح موضوعاً دولياً محضاً، يخص عدداً كبيراً من الدول الأوروبية، التي أصبحت طرفاً كاملاً لا فقط في طاولة المفاوضات المغربية - الأوروبية حول مستقبل السيادة المغربية، بل أيضاً عضواً كامل العضوية في دائرة السياسة الإصلاحية للدولة، وبالتالي في عملية تحديثه»<sup>٩</sup>.

وفي خضمّ هذا الوضع «الحرج» الذي كان يعيشه المغرب منذ هزيمة إسلي، والذي تأكد فيه تفوق الأوروبيين وضعف الكيان المغربي، كان لا بد من التفكير في مخرج ناجعة للتخفيف من وطأة الهزيمة وتداعياتها قبل السقوط في قبضة الاحتلال الأوروبي، ومن الوقوف على أسباب تقوّق فرنسا وإسبانيا وغيرهما من القوى الاستعمارية. ومن السبيل التي ركبها المخزن المغربي في هذا الصدد إرسال بعثات وسفارات إلى تلك البلدان، مكلفة بإبلاغ رسائل سلطانية إلى قادتها، وبقضاء أغراض لا تكشف عنها كتابات المبعوثين للعلن، وباستطلاع أحوال المدينة الأوروبية ووضع اليد على أسباب قوتها؛ للإفادة منها في إصلاح هياكل المغرب، وتحقيق نهضته، بعد الفراغ الدبلوماسي الذي ميّز علاقة المغرب بأوروبا رداً غير يسير من الزمن. وقد دُوّنت جملة من هذه الرحلات السفارية إلى أوروبا في شكل تقارير مفصلة،



أو كتب، وقدّمت للسلطان غداة العودة إلى المغرب. ولكن ما حُقق منها، وطُبِع، لا يكاد يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة فيما يبدو. وهي النصوص التي اختَرناها «مَتْنًا» لِبَحْثنا هذا الذي أَلْزَمنا قَصْرَه على تناولها من زاوية محددة تظل في حاجة إلى أَنْ تُدرَس وتُعالَج، وهي القوانين أو الخصائص التي تميّز هذه النصوص، التي تدرج فيما أَسَمِينَاهُ «أدب الرحلة السفارية»، من غيرها من الأنواع الرحلية الأخرى المعروفة (حجازية - صوفية - سياحية...). فأما أولُ هذه النصوص الرحلية السفارية فهي رحلة محمد بن عبد الله الصفار إلى باريس، بعد هزيمة إسلي، واستغرقت مدتها قرابة الشهرين (ما بين أواخر ١٨٤٥ وأواسط فبراير ١٨٤٦)، وكاتبها فقيه اختاره السفير عبد القادر أشعاش، الذي كان عاملاً للسلطان العلوي مولاي عبد الرحمن على تطوان، مرافقاً ومرشداً لِيُقيم أمر الدين في البلد المُتَوَجَّه إليه، لما رآه فيه من نباهة وذكاء وحُبٍّ للعلم. وأما النصان الثاني والثالث فهما «الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية» لأبي الجمال محمد الطاهر الفاسي، وتحفة الملك العزيز بمملكة باريز» لإدريس بن إدريس العمراوي، وقد انطلقت الرحلتان معاً في يوم واحد، في صيف ١٨٦٠، في أعقاب هزيمة الجيش المغربي في معركة تطوان المذكورة سابقاً، إلا أن اتجاهيهما مختلفان كما هو واضح، وهويتَي كاتبيهما مختلفتان؛ إذ الأولى حررها كاتب الوفد السفاري الذي أَرْسَلَه السلطان المغربي محمد بن عبد الرحمن إلى الملكة؟كتوريا، على حين كتب الثانية السفير نفسه، وكانت مُدَّتَا الرحلتين متقاربتين (شهران). وأما النص الرابع فهو «اتحاف الأخيار بغرائب الأخبار» لإدريس الجُعَيْدِي السَّلَوِي، وهي سفارية قصّدت أريعاً من الدول الأوروبية الغربية (فرنسا - بلجيكا - إيطاليا - إنجلترا)، عام ١٨٧٦، في عهد الحسن الأول، وقد حققها الباحث عز المغرب معنيو في إطار عمل أكاديمي لنيل درجة علمية، ونال بها جائزة ابن بطوطة للأدب الجغرافي، عام ٢٠٠٤. وأما آخرُ نصوص المتن المدروس في هذا البحث فهو «التحفة السنية للحضرة الحسنية بالمملكة الإصنيونية» لأبي العباس أحمد بن محمد الكرودوي، وهي رحلة سفارية إلى جارة المغرب الشمالية، كتبها أحد أعضاء الوفد المرافق للسفير عبد الصديق الرضي، عام ١٨٨٤، واستغرقت زهاء سبعة أشهر، وقد حققها المرحوم عبد الوهاب بن منصور في الستينيات. إن هذه النصوص الخمسة تعكس ما أَسَمَاهُ سعيد بنسعيد العلوي «لحظة الهزيمة والاكتشاف» في تاريخ العلاقات المغربية - الأوروبية في العصر الحديث؛ أي لحظة الانكسار أمام القوى الاستعمارية الغربية فعلياً في جملة من الحروب التي جمعت الطرفين على أرض المغرب، والرضوخ لمطالبها وأجندتها التي حددت للمخزن المغربي خارطة الإصلاحات وكيفيةها بما يخدم مصالحها بالدرجة الأولى، ومحاولة تلمّس مكامن قوة الأوروبيين وأسباب تفوقهم حضارياً وعسكرياً واقتصادياً. وتتوسط هذه اللحظة لحظتين عبّر عنهما بنسعيد العلوي بـ«لحظة القوة والثقة في النفس» و«لحظة الدهشة واستعادة الوعي»<sup>١٠</sup>؛ بحيث تجسد الأولى رحلتي السفير محمد بن عثمان المستطاسي الكناسي إلى بعض الدول الأوروبية، في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، لافتكاك الأسرى المسلمين لديها<sup>١١</sup>. وتجسد الثانية رحلة الغَسَّال الطنجي إلى بريطانيا سنة ١٩٠٢، مبعوثاً من لدن السلطان عبد العزيز بن الحسن لتهنئة إدوارد السابع بترقيعه على عرش المملكة البريطانية، ورحلة محمد الحَجَّوِي إلى باريس ولندن، في عهد مولاي يوسف (١٩١٩)، علاوة على سفارية عبد الله الفاسي إلى فرنسا في أواخر العقد الثاني من القرن الماضي. والواقع أن تقارير هذه الوفود الدبلوماسية كانت نقطة انطلاق العملية الإصلاحية التي دشنتها المخزن المغربي، خلال القرن التاسع عشر، بغضّ النظر عن محرّكها الدافع إليها.

يظهر من تصفّح نصوص الرحلات السفارية المغربية إلى أوروبا، التي تشكل متن هذه الدراسة، أنها تشترك في عدد من السمات على مستويات المضمون والبناء والصياغة والأبعاد، مما يجعل الحديث عن اتجاه قائم بذاته في الأدب الرحلي أمراً مُسْتَسَاغاً ومُسَوَّغاً، دون أن يعني ذلك انفراجه بخواصّ تقتلح أي

صلة له بسائر الاتجاهات الرحلية المعروفة! ولعل أبرز تلك السمات المميّزة إثارة الرحلات السفرية إلى أوروبا، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، علاقة اللاتكافؤ بين الذات والآخر، أو بين المغرب وأوروبا، أو بين الشرق والغرب عموماً. فالثاني كيانٌ حضاريّ منظم ومتفوق اقتصادياً وعسكرياً وسياسياً، على حين أن الأول كيان متخلف تقليدي وضعيف في الجوانب الحياتية المذكورة، وهو ما كشفتها، بوضوح، الانكسارات المتتالية التي تعرّض إليها على يد الغزاة الأوروبيين. وكان كاتب السفرية يحرص على تسجيل كثير من مظاهر الحداثة الأوروبية في مجالات السياسة والجيش والاقتصاد والاجتماع والثقافة والثقانة، وعلى إثارة الانتباه إلى ما يسم حياة الإنسان الأوروبي من نظام وتخطيط ووعي، مردّها - في العمق - إلى إيمانه بقيمة العلم، السنود بالانضباط واحترام حقوق المواطن وحرياته، في خلق النهضة، والرقي بحياة الإنسان فرداً وجماعة. وقد أدرك الرُّحالة المغاربة هذه الحقيقة، وإنْ أضربوا عن التعبير الصّراح عنها؛ إذ «قد نجد اختلافاً في الوعي بين رحلة وأخرى، وقد نجد تفاوتاً في المدارك بين هذا الرحالة أو ذلك، ولكن، مع كل ذلك، ظل هناك وعي أساسي مشترك لا يزال بمنزلة جوهر الخطاب الرُّحلي: العلم كسبب للنهضة»<sup>١٢</sup>. إن هذا العلم وذاك التنظيم يقدر ما كانا يستثيران كاتب السفرية، فإنهما - في الآن نفسه - يبعثانه على التحسّر والتألم جرّاء افتقادهما في مغربه الذي يحفل ماضيه بصور مشرقة في هذا المساق، ولم تكن جذوة أمله في أن يسود بلدّه ما يلحظه من تجليات التّقدم في باريس ولندن وغيرهما تحبّو، بل ظل متمسكاً بحبل التّساؤل، مترقباً يقظة المغرب ولحاقه بركب جيرانه الشماليين، بعد أن يستفيد من حسنات لقائه الحضاري بأوروبا، ويركب مركبها في النهوض والنماء. وغيرُ خاف على أحد ما لتقارير السفراء أو كتاب بعثاتهم، أو للرحلات السفرية إلى أوروبا، من عظيم الأثر في تعريف المخزن المغربي بمبلغ التمدّن والتفوق الأوروبيين، وفي مساعدة صنّاع القرار في المغرب على رسم خطط النهضة والتحديث والإصلاح في شتى الميادين.

وبالنظر إلى قصر مدة الرحلة السفرية، في الغالب، وتحكم جملة من المقاييس في اختيار الرحالة موصوفاته، فقد أُلْفينا كتابَ السفاريات المغاربة يتعاملون بانتقائية واضحة مع موضوعات وصّفتهم؛ بحيث لم يكونوا يوثقون كل ما تقع عليه أعينهم، وكل ما ينتهي إلى أسماعهم، بل كانوا أحرص على تسجيل المفيد والمتع والمثير من ذلك كله، على هامش زيارتهم للبلاد الأوروبية لتبليغ رسائل ملكية إلى قادتها، أو لقضاء أغراض سلطانية هناك. فقد كان أولئك الكتاب يصفون جملة من مظاهر الحضارة الأوربية ومُسْتَحْدَثاتها العلمية والتقنية، من بابلور وتلغراف وماكينات وغيرها، تنبئها على مبلغ الآخر في سلم الترقّي والنهضة، ودعوة - صريحة أو ضمنية - إلى الإفادة منها في تحديث الدولة المغربية وتطوير أجهزتها في الاقتصاد والجيش والتسيير الإداري وغيرها، مع تركيز خاص على وصف كل ما يتمحّض للجانب العسكري في البلدان المزارة من حيث تنظيم الجيش الأوروبي، وتركيبته المتنوعة، وأسلحته المتطورة، ولم يُغفل مدوّنو السفاريات المغاربة وصّف القلاع والأبراج ومعامل السلاح باعتبار هذه الأمور كلها عوامل تفوق الأوروبيين في العصر الحديث، لاسيما وأن النهضة المغربية، إبّانئذ، كانت منشغلة ببحث أسباب هزيمة الجيش المغربي، الذي كان كثير العدد، في موقعتي إسلي وتطوان الأليمتين، رغم تاريخه البطولي العريق. ويفسّر تركيز الرحلات السفرية المغربية إلى أوروبا، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، على الشأن العسكري بإدراك كتابها أهميته في ذلك العصر. وكانت الوفود السفرية المغربية تُسندُ عى من لدن ملوك الأقطار المزارة لمشاهدة عروض عسكرية، بمناسبة أو دونها، لأطلاعيها - ومن ورثائها المخزن المغربي - على قوة جنودهم، وتنظيم جيوشهم، ولإرسال رسائل مُحدّرة من مغبة المخاطرة بالدخول في مواجهات عسكرية معهم، وإن كان الهدف الذي يُعلنونه من دعوة السفراء، وبعثاتهم المرافقة، لمشاهدة تلك العروض هو التعبير عن الفرح بمقدّمهم إلى بلادهم! وقد كان كتاب السفاريات يدركون النية الحقيقية القابعة



وراء هذا الفرع المظهري. فهذا محمد الصفار، مثلاً، يقول في هذا الصدد: «أمر لنا السلطان بسرد العساكر، واستدعانا للفرجة فيها مبالغة في إكرامنا والاعتناء بنا ظاهراً؛ لأنه لا يفعل ذلك إلا لمن هو عنده في حظوة، وزيادة في تبيكتنا والتكيت علينا باطناً»<sup>١٣</sup>. وعلى الرغم من إدراكه تلك النية، فإنه لم يُخفِ انبهاره بما شاهده، وتأثره العميق به تأثراً أله، وتمنى - في أعماقه - لو يحتذى الجيش المغربي بالعساكر المسرودة أمامهم، ونبه - في الوقت عينه - إلى أسباب قوة الجيش الفرنسي وتفوقه. قال عقب انتهاء الاستعراض العسكري الذي دُعوا لمشاهدته: «مضوا وتركوا قلوبنا تشتعل ناراً بما رأيناه من قوتهم وضبطهم وحزمهم وحسن ترتيبهم ووضعهم كل شيء في محله، مع ضعف الإسلام واختلال قوته واختلال أمر أهله. فما أحرزهم! وما أشد استعدادهم! وما أتقن أمورهم وأضبط قوانينهم! وما أقدرهم على عدوهم! لا بقلوب ولا بشجاعة ولا بغيرة دين، إنما ذلك بنظامهم العجيب، وضبطهم الغريب، واتباع قوانينهم التي هي عندهم لا تتحرم»<sup>١٤</sup>. وأضاف قائلاً: «إن صدرت من واحد منهم زلة أجزوا عليه شريعته، سواء كان رفيعاً أو وضيعاً، وإن ظهرت لأحد منهم مزلة أرقوا درجته، لا يطلع أحد منهم في غير ما هو له، ولا يخاف على ما في يده أن يُنزع منه. فعلى ذلك يبذلون مهجهم في المعارك، ويلتقون بأنفسهم في المهالك. ولو رأيت سيرتهم وقوانينهم لتعجبت منها غاية العجب، مع كفرهم وانمحاء نور الإيمان من قلوبهم. وما راء كمن سمع... اللهم أعد للإسلام عزته، وجدد للدين نصرته بجاء النبي صلى الله عليه وسلم»<sup>١٥</sup>.

ولم يُخفِ كتاب السفاريات المدروسة تدمرهم وعدم ارتياحهم لمعينة كثير من مظاهر التحديث الاجتماعي، والتطور الفني في أوروبا؛ من مثل تبرج النساء واختلاطهن بالرجال، وبروز مظاهر من الانحراف الخلقي في المجتمع الأوروبي، أضف إلى ذلك موقفهم من العروض المسرحية ومشاهد الرقص التي كانوا يستدعون لمشاهدتها بين الفينة والأخرى. ومرد ذلك إلى أنهم نظروا إليها بمنظار الشرع، وحكموا عليها انطلاقاً من معايير ثقافتهم التقليدية المحافظة. يقول الحاج إدريس العمراوي مُنتقداً بعض عوائد المجتمع الفرنسي المُتحرر: «مركزاً على وضع المرأة فيه:» إن من له أدنى مسكة من عقل، وأقل نصيب من ميز وفصل، لا يرضى بالعيش بحالهم، ولا يغتر بسراب محالهم. ويكفي في تبقيع سيرتهم، وخُبث سريرتهم، غلبة النساء عليهم، وجزهن مطلقات الأعنة في ميادين الفجور والفواحش من غير أن يُقدر أحد على منعهن مما يردن من ذلك، ولا تعنيفهن»<sup>١٦</sup>.

وثمة جوانب أخرى في المجتمع الأوروبي لا نشك في أن سفراء السلطان المغربي ووفودهم قد أدركوا أهميتها الحاسمة في تحقيق النهوض الحضاري الشامل، ولكنهم لم يؤلّوها - فيما يبدو - ما تستحق من عناية في تقاريرهم، ونقصد بها دور الكتب ومعارضها والمكتبات المنتشرة في كل مكان من ذلك المجتمع، بما فيها تلك التي تحوي المئات، بل الآلاف، من كنوز التراث العلمي والأدبي العربي والإسلامي. فقد أفرد العمراوي، في تحفته، فصلاً قصيراً جداً لوصف دار الكتب التي شاهدها في باريس من حيث سعتها ومحتوياتها، مُشيراً إلى أن رهوفها تحتضن كتباً عربية نفيسة لم يسبق له ولا لأصحابه أن سمعوا بها، ورَجَّح أن يكون مصدرها خزانة مصر التي استولى عليها الفرنسيون، ونقلوا كثيراً من كنوزها إلى بلدهم، بعد نجاح الحملة النابليونية على مصر أواخر القرن الثامن عشر<sup>١٧</sup>. بل إن بعض السفاريات لم تُخصّ هذا الجانب بأي اهتمام؛ مثل سفارية محمد الطاهر الفاسي! ومن المواقف التي أثارنا، ونحن نتصفح بعض الرحلات السفارية المؤلفة بعد الفترة التي ندرس سفارياتها، في هذا البحث، موقف بعض مُرافقي الحجوي في سفارته إلى باريس لما دخلوا خزائنها الوطنية العامة بالكتب والوثائق. فهي، كما قال الحجوي، «في الأصل دار للوزير الأكبر للملك لويس الرابع عشر، وهي آية في الاتساع والضخامة»<sup>١٨</sup>. ويصف أحد أجنحتها المخصصة لإنتاج علماء أمريكا وأدبائها بأن محتوياته وحده من التأليف يعدل

ما تختزنه مكتبتا القرويين ومراكش معاً، إلا أنها مطبعية؛ على حد عبارته، وقد ترك هذا المشهد أثراً غائراً في نفسه، فقال معلقاً: «هذه أمة جاءت في الزمن الأخير، ألف علماءها هذا العدد من الكتب، وما استقلت إلا منذ نحو مائة وخمسين سنة. فما أعظم مدارك البشر إذا كان عائشاً في جو صاف يستشوق هواء الحرية المطلق، ويتغذى بلبان العلم والتهذيب»<sup>١٩</sup>. وبينما هو مشدوه لعظمة الخزانة، وغزارة كتبها ومصنفاتها، عبّر له بعض صحبه ممن رافقوه في السفارة عن ضجرهم ومللهم، مفضلين الخروج للتزّه والترفيه، بعدما طلبوا الاطلاع على مخطوطات الخزانة، فقال الحجوي يخاطبهم بنبوة ملؤها الأسف والأسى: «الستُّم طلبتم رؤية الكتب الخطية فتحن تنتظر وصول المكلف بها؟ عجباً لكم! ما حصل مللٌ لمن ألف، أو كتب، أو طبع، أو سافر، أو أدخّر، أو بنى، أو رصف، أو جنس، ولا لمن يُرينا ويُطلعنا! فلا أمل في ارتقاء من به داء الملل، فالملل أفتنا العظمى، وسبب من أسباب تأخرنا وتقدم غيرنا، إنّنا إذاً لمن العاجزين. ولو كنتم في ملهٍ ما ملّتم»<sup>٢٠</sup>.

ومما تتقاطع فيه سفاريات المتن المدروس أن مواقف أصحابها من الحضارة الأوروبية ومقومات الحداثة الغربية، وفي طليعتها المستحدثات التقنية والابتكارات العلمية، لم تكن موحدة، بل تراوحت بين القبول والرفض والتحفّظ. فمن ذلك ما لمس فيه كتاب السفاريات أهميته الكبرى، فلم يروا أي غضاضة في الاستفادة منه في تحديث المجتمع المغربي وتطوير بنياته الاقتصادية والسياسية والعسكرية. ومن ذلك ما حكموا عليه بمقياس الحلال والحرام، ولم يجدوا فائدة تذكر من وراء استقدامه أو التشبّه به، فأعرضوا عنه، بل لم يتورّعوا في توجيه سهام النقد إليه. ومن ذلك ما نظروا إليه نظرة حذرة متحفظة؛ لأنهم لم يطمئّنوا إليه، بل ساورتهم شكوك تجاهه، لاسيما وأنه نتاج بيئة اعتادوا نعتها بـ «دار الكفر»! إلا أن الغالب على نظرة كتاب تلك الرحلات السفارية مرونتها وإنفتاحها وقبولها كثيراً من ابتكارات الأوروبيين ومظاهر تحضرهم، ولاسيما في المجال التقني والعلمي؛ لحاجة بلدهم إليها في بناء نهضته، وضبط أمنه الداخلي، والتصدي لأطماع المترصّين به من وراء البحر والحدود. فهذا إدريس العمراوي الواحد على باريس من وسط ذي ثقافة تقليدية محافظة غالية، يصف جملة مما شاهده من مقومات الحداثة والمدنية بفرنسا وصفاً لا يخلو من إعجاب واندھاش؛ لأنه لم يألّفها في مغربه، ولم يصدر عنه ما يفيد رفضها، بل إنه أحياناً كان يدعو إلى جلب بعض مستحدثات أوروبا في المجال التقني، والإفادة منها، على الرغم من البؤن الشاسع بين عقليته وعقلية المجتمع الباريسي. إن لقاء العمراوي بهذا الأخير كان «لقاء بين تاريخ قروسطي تحكمه المولات والأنماط الفكرية الفقهية – الكلامية وبين تاريخ فكري يتوهج بالأنوار، ويتألّف بالانقلابات الإستمولوجية والتحويلات الإستيمية.. بين مجتمع مستسلم لحدّر الفكرية الأشعرية الملقّحة بالمفاهيم التنويمية للتصوف وبين مجتمع منفتح على مباحج الحياة وعلى إُسسية بلا ضفاف.. بين زمن دوراني لا يتقدم إلا ليتقهقر بمقتضى سيناريو كوني جبّري وبين زمن منفتح على المستجدّات يتقدم في تجاوّز مكتسباته، ويسير نحو عوالم لانهائية»<sup>٢١</sup>. ونكتفي، للتدليل على رؤية العمراوي المنفتحة على الحضارة والحداثة الأوروبيتين، بالوقوف عند موقفه من التلغراف والمطبعة. فالرجل يعدّ أول مغربي شاهد آلة التلغراف – حسبما يذكر محمد سيلا<sup>٢٢</sup> – حين زيارته باريس سفيراً لسلطان المغرب إلى نابليون الثالث، بعد هزيمة تلوان، عام ١٨٦٠، وقد وصفها في سفاريته، مبرزاً دورها في نقل الخبر من أماكن قصية، في زمن وجيز؛ حيث قال: «رئيس ذلك المحل أخبرنا أنهم في أربع دقائق يكتسبون أخباراً كثير من الأقاليم من برّ العجم وإسطنبول والهند والصّينة ومصر وتونس والجزائر والمراكن والتّجليلز وغير ذلك حتى كأنهم حاضرون فيها»<sup>٢٣</sup>. ولم يُخفّ العمراوي حيرته وذهوله واندھاشه من هذه الآلة العجيبة، وعجزه عن فهم كيفية اشتغالها، ولكنه أقرّ بفضلها في تقريب الأمر البعيد، وتهوين الخطب الشديد، منتقداً بعض قاصري الفهم الذين عدّوها أدخَلَ في باب السحر. يقول: «هذه الآلة مما يذهل



ذهن العاقل، ويستريب فيه السامع والناقل. وكلما أعمتُ النظر فيها لم أجدَ عبارةً تشتمل على حقيقةٍها وتستوفيها، على أن كثيراً ممن ينظر إليها لا يعرف كيفية الدلالة عليها، بل ولا يحسبها إلا من طريق السخریات، ويكذب كلام ناعتها ويعدّه من الاستهزاء والسخریات. وقد كان معنا بعض المغفلين، فلما رأه استعظم أمره ومزّمه، سأله عما فهم منه واستخبرناه بأي عبارة يعبر عنه، فقال لنا إنه مثل خبر الأعراب الذين يخطون في الرمل، ويضربون الفأل في قريعة الأنبياء، ويعبرون عما في قلبك من الأنبياء. كلا! بل هو من الأمور المذهلة، والأشياء المشكلة، والأدواء المعضلة، قد قرّبوا بها البعيد، وهوّنوا الخطب الشديد. ٢٤ ولما شاهد العمراوي في رحلته إلى باريس دار الطباعة وصّفها، بإفاضة، في تحفته، مبيّناً آلية عملها، ومعدداً فوائد المطبعة الكثيرة، فقال: «هذه الآلة التي اتخذوها للطبع في كل الأمور عامة النفع، مُعينة على تكثير الكتب والعلوم. وأثرها في ذلك ظاهر معلوم... وكيفيك من شرفها وحسن موقعها رخص الكتب تطبع بها، وقد اعتوا بتصحيحها، وبالعوا في تهذيبها، مع جودة الخط، وإيضاح الضبط» ٢٥. وتنى على السلطان المغربي اقتناء مطبعة أسوة بباقي ديار الإسلام، قائلاً: «نطلب الله بوجود مولانا أمير المؤمنين أن يكمل محاسن مغربنا بمثل هذه المطبعة، ويجعل في ميزان حسناته هذه المنفعة - فكم أيدت دولته من مفاخر، وكم جذدت سعادته من مآثر - ويحيي به معالم الدين، ويهّج به نهج الأئمة المهتدين. آمين» ٢٦. ولم تتحقق أمنية العمراوي هذه إلا بعد أربع سنوات؛ حيث اشترى القاضي محمد الطيب بن محمد السوسي الثمالي الروداني، لدى عودته من الحج، مطبعة من مصر، وأتى بها إلى المغرب، واستأجر معها طابعاً مصريةً يدعى محمد الكيلاني بنبراهيم، وأهداها إلى السلطان ٢٧.

لقد ظلت الخلفية الدينية، والمخزون الثقافي للعمراوي، متحكمين في نظرته إلى الآخر ومنجزاته الحضارية والعلمية، وإن أيدى انفتاحاً على كثير من هذه المستحدثات التي أدرك نفعها العميم لبلده الذي كان يتلمس طريقته في درب الإصلاح والتحديث، فتأدى - صراحةً وضمناً - باستجلاب بعضها مما لا يتعارض مع ثوابته العقدية؛ ومما ينفع بلده ويُعيّنه على تجاوزه وضعه الحضاري الذي يعيشه منذ اصطدامه بالحدثة الأوروبية في أول لقاء حقيقي بها، في أربعينيات القرن التاسع عشر. على حين أُلْهِمنا العمراوي ينتقد بعض مظاهر الحضارة الغربية التي رآها متنافية مع مبادئ مُعتدَمه، ولا فائدة تُرجى من ورائها. ونستحضر، هنا، بالخصوص، موقفه من حديقة الحيوان التي زارها أيام مقامه بباريس. فبعد أن وصفها ووصف ما بها من حيوانات مختلفة، وأيدى تعجبه من كثرة ما يُفقه الفرنسيون على جلب هذه الحيوانات، من أماكن عدة من الكرة الأرضية، ورعايتها، مع «ما هم عليه من البُخل والاحتياط في الدفع»، يصرح بلا جدوى ذلك، ويكونه لا يحقق أي منفعة ملموسة للناس هناك؛ حيث يقول: «وأي فائدة أو عادة أو فخر في جمع الكلاب والخنازير والقردة والذئاب والحشرات؟ وأي طائل تحت ادّخار جيف مُنتنة لا تصلح لصالحه» ٢٨. هذا بخلاف كتاب سفاريات آخرين وصفوا مثل هذه الحديقة وصفاً موضوعياً لا يخلو من إعجاب، دون أن يصدر منهم ما يعيب أو ينتقد هذا المرفق العمومي؛ على نحو ما نجد في رحلتي الصفار ومحمد الطاهر الفاسي.

عموماً، فإن العمراوي مثال للمثقف المغربي التقليدي الذي احتكّ بالحضارة الأوروبية في بدايات اتصال المغرب بها، وأيدى انفتاحاً ومرونة واضحة في تقبل عدد من منجزات الحدثة لدى «الأخر» المفارق لكيانه الحضاري على شتى الصُّعد، واعترف بتفوقه في جملة من الميادين الحيوية. إلا أنه لم يستطع التوصل من ثقل خلفيته الإيديولوجية والمعتدية والثقافية، مما جعله يُعد بلوغ الأوروبيين مستويات عُليا في سُلّم التحضّر والتقدم دليلاً على قرب سقوطهم وانحدارهم وانعكاس دورتهم الحضارية من القمة إلى الحضيض؛ على غرار ما وقع لجميع النماذج الحضارية التي شهدنا تاريخ البشرية على امتداده. يقول العمراوي عما شاهده في أوروبا من مظاهر الرِّفاه والتمدّن: «فيه أدلّ دليل على أن أمورهم بلغت الغاية،

وتجاوزت النهاية، وأنه في الحال يعقبها الانحلال، وتأخذ في الانعكاس والاضمحلال. فمعلوم أنه ما بلغ شيء الغاية إلا رجع، ولا نال منتهى الصعود إلا وقع، فإنهم يقولون اليوم من أشد منا قوة، ونسوا مهلك ثمود وعاد وإرم ذات العماد، ولم يعلموا أن سطوة الله لهم بالمرصاد، وأن أمره إذا نزل يقوم فما له من دافع ولا صائد.<sup>٢٩</sup>

وعلى التقيض من الانفتاح الذي طبع نظرة العمراوي إلى كثير من مظاهر الحضارة الغربية، كانت نظرة محمد الطاهر الفاسي إليها أكثر انغلاقاً وتصلباً تحت تأثير خلفيته الدينية والثقافية المحافظة التي تقيم مسافة شاسعة بين الذات والآخر، أو بين دار الإسلام ودار الكفر؛ مما جعلها أحد العوامل المؤثرة لتخلف المغرب عن اللحاق بالركب الحضاري الغربي الذي كان يتقدم بخطى متسارعة. وشكلت رحلته السفارية إلى الديار الإنجليزية «تراجُعاً مهماً في مسار تطور الخطاب السفاري، نظراً للعقلية التقليدية للطاهر الفاسي؛ مما يؤكد أن التأخر الثقافي لكتاب المخزن وللنخبة المخزنية آنئذٍ مسؤول بدوره عن سوء فهم الآخر والذات، ومسؤول أيضاً عن عجز مخزن النصف الثاني من القرن ١٩م عن إنجاز ثورة تحديثية من فوق، لو حدثت كان يمكنها أن تجنب المغرب السقوط في محال الاستعمار والتأخر الشامل»<sup>٣٠</sup>. وتميزت نظرة بعض كتاب السفاريات إلى الحداثة الأوروبية ومُنتجاتها العلمية والحضارية بغير قليل من الحذر؛ كما هو الشأن بالنسبة إلى الجعدي السلوي.

وإذا كان المخزن المغربي، وقتئذٍ، أكثر تقبلاً وتحمساً للاستفادة من هذه المنجزات، أو ما كان يسمى «الاختراعات الوقتية»، في تحديث بنيات المجتمع وهياكله السياسية والعسكرية والاقتصادية، وفي مواجهة التحديات المُحدقة به داخلياً وخارجياً، إلا أن النخبة المغربية، المكونة أساساً من الفقهاء والعلماء، اتخذت من مظاهر الحضارة الأوروبية ومستحدثاتها التقنية مواقف مثبائية، يتجاذبها القبول والرفض والتحفظ، ويتحكم فيها وعي المثقف وطبيعة أفقه. فلما أدخل التلغراف، مثلاً، إلى المغرب بادر السلطان الحسن الأول باستخدامه في إرسال الرسائل خارج القصر بدل الخدم الذين كانوا يكلفون بذلك، دون أن يجد أي حرج، على حين أخضعه الفقهاء للمسألة والفحص من منظور الشرع، واختلّفوا بخصوص شرعية اعتماد الأخبار الواردة من التلغراف (أخبار السُّلك)، ولاسيما فيما له صلة بأمور الدين؛ كرؤية هلال رمضان. فذهب بعض الفقهاء ممن يرتابون من أي جديد وافد من بلاد الكفار إلى رفض هذه الأخبار، والتشكيك فيها، في الوقت الذي قبلها آخرون بشروط أو بدونها. بحيث ألف الفقيه محمد بن عبد السلام الطاهري الشببي، عام ١٩١٤، رسالة بعنوان «كمال الاعتراف بالعمل بالتلغراف»، أقر فيها بشرعية الخبر الوارد عبر التلغراف حول ثبوت رؤية هلال رمضان، على أساس أنه «لا شبهة فيه؛ لأن الآلة التلغرافية لا يمكن فيها عادة تحريف ما تحمله من الأخبار، ولا تبديله أو تغييره، كما يعرف ذلك من مباشره». وكتب محمد الحجوي، في السنة نفسها، رسالة بعنوان «إرشاد الخلق إلى الاعتماد في ثبوت الهلال على خبر البرق»، ناقش فيها المسألة المذكورة، ليخلص إلى قبول خبر التلغراف في ثبوت هلال رمضان، ولكن بشروط محددة من شأنها أن تدعم صدقيته ووثوقيته. فالتلغراف، في نظر الحجوي، «إشارات ورموز اصطلاحية مأمونة من الغلط»، وهو على نوعين: رسمي وغير رسمي. فأما الرسمي فهو صادر عن جهة حكومية، يتولاه موظف ثقة، لذا يكون في «مأمن من التزوير، ويُعتمد عليه في الأمور الرسمية المالية والسياسية والحربية». ويمكن اعتماده في الأمور الدينية كذلك. والخبر المحمول بهذا التلغراف لا يقل صدقاً، في نظر الحجوي، عن «إضرام النار في قرية إعلاماً لغيرها بالهلال»، بل إنه «محصل لغلبة الظن الذي هو أصل في المذهب المالكي لثبوت الأحكام، فيثبت به هلال رمضان، وهلال العيد أيضاً، أكثر من ثبوته بعلاجات البارود والنار حيث لا ضابط فيها ولا وازع». وأما التلغراف غير الرسمي فهو أقل ثقة من السابق، ويمكن استخدامه للدعاية والمرح بين المتراسلين، مما يجعل الخبر الوارد عبره محط شكوك<sup>٣١</sup>.



وعلى غرار «أخبار السلك»، وجدنا كتاب السفاريات، كالعمرأوي، يدركون قيمة المطبعة التي شاهدوها في أوروبا، وفوائدها الكثيرة، دون أن يُخفوا رغبته في أن يبادر السلطان المغربي باستجلائها. وحين تحقق ذلك، أفتى بعض فقهاءنا، آنذاك، بتحريمها؛ مثل الفقيه المراكشي محمد بن إبراهيم السبعي الذي عدّها خطراً على التعليم الشفوي وحفظ القرآن الكريم<sup>٣٢</sup>.

إن المجتمع المغربي، إذا، لم يقبل بسهولة مُستحدثات أوروبا التقنية والعلمية، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، بل كان ينظر، أولاً، إلى مدى حاجته إليها، ويُنظرُ بميزان المصلحة والمضرة، ويفحصها بمقاييس الشرع؛ حتى إذا بانّ له نفعها وعدم اصطدامها بثوابته قبلها، واستخدمها في حياته. والفئة التي كان يُعهد إليها بمهمة الفحص والرقابة هي فئة الفقهاء والعلماء؛ باعتبارهم «حراس الأصالة الدينية ورعاة المعايير الشرعية والقيم الأخلاقية الإسلامية، بل هم، إلى حد ما، مفكرو ذلك المجتمع. وقد شكلوا على الدوام جسماً صلباً محافظاً متشدداً يوكل إليه أمر الفحص والحكم في التحديثات وفي كل أشكال التجديد، من خلال الإفتاء فيها انطلاقاً من معيار تلاؤمها أو عدم تلاؤمها مع الشرع. وقد مارس الفقهاء، بالفعل، دورهم في ممارسة نوع من الرقابة الإيديولوجية القوية والصارمة؛ إذ لم يقلت من مناقشتهم وفحصهم أي من المستحدثات التقنية، بما في ذلك المستحدثات العسكرية. فقد أفتوا في التغراف والتلفون والحاكي والبارود والمدفع والصابون والشمع والسكر والمطحنة والمطبعة والآلات الموسيقية والأعشاب المرقدة والمواد المسكرة واللباس العصري وحلق اللحية وطريقة الخياطة والتزيّن والأوراق المالية والبنكية والضرائب وطريقة السلام العسكري...<sup>٣٣</sup>

ومن خصائص الرحلات السفارية المغربية إلى أوروبا المُطردة فيها أن كتابها لم يكونوا يُخفون اندهاشهم وانبهارهم وتعجبهم من مشاهدة جملة من مظاهر الحضارة الأوروبية التي كانت غريبة وصادمة بالنسبة إليهم وهم القادمون من بيئة كانت ما زالت إلى ذلك العهد تعيش على إرث الأسلاف، متجذرة في القداية. وكان يظهر إعجابهم ذاك انطلاقاً من ركوبهم بابلور البحر (البخرة)، ثم بابلور البحر (القطار)، ومن تعرفهم إلى مدائن الآخر الراقية والمنظمة والتظلية، ويستمر على امتداد فترة مقامهم في البلاد المزارة التي أتت لهم خلالها الاطلاع على أوجه حياة الأوروبيين وأساليب عيشهم، ومشاهدة عدد من مخترعاتهم التقنية التي أثارتهم ويعتبرهم على الإعجاب بها؛ من مثل التلفون والتغراف والمطبعة. ويتضاف إلى ذلك ما رآوه من مصانع ومآثر ومعارض وجنان، ومن تظليم عجيب في تعاملاتهم التجارية واستعراضاتهم العسكرية وفي سائر جوانب حياتهم. وكانت مشاهداتهم تلك من أبرز دوافعهم إلى تقييدها وتوثيقها في تقارير ورسائل لإطلاع المخزن والنخبة في المغرب عليها. يقول العمرأوي الذي دُون سفرته إلى باريس لدى عودته إلى بلده: «... وعَلِقَ بذهني بعض ما رأيْتُ من عجائب تلك الجهة ظهر إليّ أن أفيدَه في هذه الرسالة اقتداءً بمنْ تقدمني من أولي النباهة والجلالة...»<sup>٣٤</sup>. ويقول عن بعض مخترعات النصراري التي أعجَبَ بها أيُّها إعجاب: «وبالجملة، فما سمعتُ أذنّي، ولا رأْتُ عيني، ولا طالعْتُ في كتب التواريخ بأعجب ولا أخرب من هذا البابلور... وأعجبُ منه سلك الإشارة الذي يكتبون به فيوصل خبره في لحظة للأماكن البعيدة»<sup>٣٥</sup>. ويقول محمد الطاهر الفاسي واصفاً قنطرة لندن: «مما رأينا بهذا البلد من العجائب أن محلاً هنالك يهبطون له بمائة وأربعين درجة، وفي طَرَفه الآخر المقابل له درج كذلك، فنزلنا له على محل يهبطون له بمائة وأربعين درجة، ورأينا هنالك بناءً عظيماً، مقوَّساً طويلاً جداً قدر مَدَّة البصر، وبه حوانيتٌ على قدر طوله يبيعون ويشتررون. وفوق هذا المحل وادٍ عظيمٌ أشبه بالبحر تمر عليه المراكب العظام، إلا أن هذا المكان مظلم يستضيئون فيه نهاراً. وهذه القنطرة يعجز الواسفون عن وصفها لطلولها وجودة بنائها»<sup>٣٦</sup>. ويقول عقب مشاهدته مناورة حربية قام بها أفراد من الجيش الإنجليزي بأمر من الملكة كتوريا، مستخدمين فيها أسلحة متطورة لم يألُفها أعضاء الوفد المدعو لمشاهدتها، ويظهر من كلامه مدى

تحكم خلفيته الدينية وعقليته التقليدية في وصفه. [يقول: «والحاصل أنهم - دمرهم الله - يستعملون أشياء تدهش، سيما من رآها فجأة، وربما اختل مزاجه من أجل ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، كيف تحيلوا على إصلاح دنياهم حتى أدركوا منها منافعهم، واستعملوا لذلك قوانين وضوابط، وفي كل ما يقربهم منها غوايط. وفيه إشارة إلى أن طليباتهم عجلت لهم، وذلك نصيبهم وحظهم. وفيه إشارة أيضاً إلى أن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة. قال عليه الصلاة والسلام: «لو كانت الدنيا تساوِي عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها جُرعة ماء»، والله يحفظ بيضة الإسلام، ويحميها من كل مكروه بجاه نبيه عليه السلام»<sup>٣٧</sup>. والواقع أن لإعجاب كتاب السفاريات المغاربة بتجليات الحداثة والتقدم المُشاهدة في فرنسا وإنجلترا وغيرهما من البلاد الأوربية، التي قصدوها لأغراض دبلوماسية، أبعاداً لعل أبرزها الإقترار بتفوق أوربا حضارياً، وتوجيه «نقد غير مباشر للأوضاع الفاسدة وللأسس التقليدية القديمة التي كانت تقوم عليها، بصفة عامة، مؤسسات المخزن في المغرب»<sup>٣٨</sup>.

وكان السفير وأعضاء وفده مُلزَمين بالتقيّد بعدد من القواعد، وباحترام جملة من البروتوكولات الرسمية في أشاء سفارتهم. فكانوا يتوجّهون إلى المحل المُعدّ لنزولهم في البلد المُزار، وينتظرون استدعاءهم من قبل الملك (أو الملكة) لملاقاته وتبليغه رسائل سلطانهم. ولم يكن خروجهم للتزّه واستكشاف معالم الحضارة هناك يتم، في الغالب، إلا بناء على دعوة ملكية، أو أحد كبار القوم، حتى لا يضجّروا. وكان الباشدور المغربي يحرص على تسليم خطاب سلطانه إلى الموجه إليه يد بيد. ومن الأمور التي كان يتكتم عليها كتاب السفاريات فيما يقيّدونه الغرض الحقيقي من سفارتهم؛ بحيث لم يكونوا يصرحون به، بل كانوا يذكرونه، عادة، بصيغة تعميمية، وهي حمل أسرار إلى ملوك أوربا، أو قضاء أغراض مولوية هناك. وفي أحسن الأحوال، كانوا يلقّون إلى ذلك الغرض تلميحاً. ولكن استحضار زمن كل رحلة سفارية وسياقها ووجهتها عناصر قد تُعين الدارس على إدراك الهدف الأساس الخفي لها، والذي لا يعدو أن يكون عقد اتفاقيات، أو طلب مساعدات، أو إجراء مفاوضات، توطئاً لتجنيب المغرب مزيداً من الصدمات والهزائم، وحفظاً لما تبقى من ماء وجهه، ودعماً لعمليات الإصلاح والتحديث التي باشّرها منذ أواسط القرن التاسع عشر. فالصفاً يذكر في مقدمة رحلته أن الذي حداه على تقييد مشاهداته في فرنسا إنما هو الرغبة في نقلها وتوثيقها وإخبار أبناء وطنه بها<sup>٣٩</sup>، دون الإفصاح عن القصد الحقيقي من توجّه السفارة، التي كان كاتبها، إلى باريس. ولكن زمن هذه السفارية (١٨٤٥) يجعلنا نرجّح أن يكون قصدُها ذلك ذا صلة مباشرة بهزيمة إسلي وما صاحبها من تداعيات على المغرب. وذكر السفير إدريس العمرأوي، في دياجة تحفته، أن توجّهه إلى باريس كان الغرض منه حمل رسالة من العاهل المغربي إلى «طاغية» الفرنسيين، والتفاوض معه في شأن الحدود مع الجزائر، علاوة على مطالب أخرى لم يحددها<sup>٤٠</sup>. وذكر محمد الطاهر الفاسي أن البعثة السفارية التي كان ضمنها قصدت الديار الإنجليزية؛ «لأجل القيام ببعض الوظائف»، وكان نظر السلطان محمد بن عبد الرحمن القاضي بإرسال هذه البعثة، في رأي الفاسي، سديداً موفقاً؛ «لما فيه من الدفع والذب على المسلمين، وأيضاً فيه مداراة بالألطف إشارات. والمداراة واجبة، والمداهنة محرّمة. والفرق بينهما، كما قال عياض، أن المداراة بذل الدنيا لأجل صلاح الدين أو الدنيا، والمداهنة بذل الدين لأجل صلاح الدنيا. والمداراة لأهل الإيمان، والمداهنة لأهل العصيان»<sup>٤١</sup>. إلا أننا حين نموضّع الرحلتين في سياقيهما التاريخي والحضاري، والتين أعقبتا مباشرة هزيمة تطوان، يبدو راجحاً أن الغاية الحقيقية منهما قد تكون طلب دعم الفرنسيين وإنجليزيين ومساعدتهما للوقوف في وجه الإسبان وأطماعهم الاستعمارية في شمال المغرب. ونص إدريس الجعدي السلي، في دياجة رحلته، التي دون فيها جملة وافرة من أخبار الأقطار الأوربية التي زارها وعرّائها وعجائبها وفوائدها، أن السفارة، التي كان أحد مرافقيها، هدفت إلى تبليغ رسائل شكر من السلطان المغربي إلى ملوكها الذين



هناؤه لدى تريعه على عرش أسلافه، وإلى تبنيهم إلى بعض التصرفات غير اللائقة التي تصدر ممن يمثلهم في المغرب من دبلوماسيين. يقول: «لما أشرقت في هذا القطر المغربي أنوار طلعة مولانا الأمير الأفخم، ذي الجنب المهاب الأعظم... الشريف العلوي علامة زمانه سيدنا ومولانا الحسن، خلد الله ملكه، وجعل الدنيا بأسرها ملكه... يادر أهل المودة من الروم بالتهوض والقدوم على هذا الإمام، الليث المقدام، لتهنئة سيادته باستقراره على كرسي الملك الموروث خلفاً عن سلف، وارثائه معارج العز والمجد والشرف، سائلين تجديد جهود تهديد طرق الرشاد بما يعود نفعه على الدول من الصلاح والسداد... فنالوا المني من عدله، وبسط عليهم أروية نواله وفضله. وبعد رجوع كل منهم لأوطانه، وتبليغه ما كلف به لدولته وسلطانه، اقتضى نظر مولانا السيد، ورأيه الموفق الرشيد، أن يرسل لهؤلاء الأجناس - الذين وفدوا على حضرته الشريفة - سفيراً ٤٢ من خاصة خدامه المقربين، وخدام أسلافه المقدسين المنعمين، ويتوجه معه إليهم كاتب ٤٣ وأمين ٤٤، ونفر من جيشه السعيد من ذوي الوجهة والتمكين، ليُجازي أولئك الأجناس على ما صدر منهم من الاعتناء بجانبه العالي بالله... وليشرح هذا السفير لعظماهم حال بعض نواهيهم من نقض بعض اليهود، ورفض بعض الشروط التي أسست على السنين المعهود...» ٤٥. وأعلن الكردي، في مقدمة رحلته، أن الغاية من إرسال الملك المغربي الوفد السفاري، الذي كان ضمنه، إلى إسبانيا هي تمتين العلاقات، وتجديد العقود المبرمة بين الطرفين بما يعود بالنفع على المغرب، علاوة على تحميل السفير أغراضاً ورسائل مملوكة إلى «الطاغية» الإسباني. يقول: «لما كان بين هذه الدولة الشريفة، العلوية المنيفة، وبين من جاورها من دول النصارى شروطاً محصورة، وعقود مقررّة غير محظورة، وكان من عادة أسلاف سيدنا الأكرمين، ومن تقدمهم من أئمة المسلمين، أن يوجهوا في كل دهر سفراء لتجديدها، ورفع ما انثلم من قواعدها، عين أيده الله سفراء لمن جاوره من الدول، وحملهم من أغراضه الشريفة وآرائه السديدة ما يعود نفعه على الأخير من إيلاته والأول، وكان من جملة من عين منهم لدولة الصبئيول، المفوض إليه فيما حمّله إليه من القول، خديم شريف حنّته، المتخلم في سلك عقد كتّبه... أحمد بن محمد بن عبد القادر الكردي مقيّد هذا التقييد، ومنظم سلك عقده الفريد، المُصّح فيه عما سمعه في هذه الوجهة أو رآه، مما أحسن سماعه أو مرّاه، وعما لهذه الدولة الشريفة عندهم من عظيم الذكر وعلو الجاه، خصوصاً سيدنا المنصور بالله...» ٤٦. إن الرحلتين الأخيرتين قصدتا أقطاراً أوروبية كانت لها مصالح في المغرب، وشاركت في مؤتمر مدريد عام ١٨٨٠؛ مما يرجّح أن يكون هدفهما الحقيقيان متصلين بهذا الأمر. إذ قد يكون الدافع إلى إرسال البعثتين إلى أوروبا بحثاً عن مخرج الأزمة المغربية، وحشد التأييد الخارجي للبرنامج الإصلاحية الذي دشّنه المخزن المغربي، والحيلولة دون وقوع البلاد في قبضة المستعمرين الأوروبيين، أو التخفيف من وطأة نتائج مؤتمر مدريد على المغرب بقيادة وشعباً، والذي كان مقدمة لتدويل المسألة المغربية.

وإلى جانب عدم التصريح بالأهداف الحقيقية للبعثات السفارية المغربية إلى أوروبا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، في ديباجات الرحلات المدونة، التزاماً بالبروتوكول الرسمي الذي كان يلزمهم بالتكتم على تلك الأهداف، بوصفها من أسرار الدولة الواجب حفظها، نجد كتابها - وكانوا موظفين مخزنين يحفظون بثقة السلطان - يملؤون مقدماتها بعبارات الإطراء والشاء والتعظيم للسلطان المغربي راعي تلك البعثات، مع الدعا له بالسداد والتأييد والتمكين.

ويتبدى لمن يتصفح نصوص الرحلات السفارية المنتمية إلى المرحلة التاريخية، التي نحن بصدد دراستها، مدى استفادة كتابها من الرحالة السابقين إلى أوروبا، سواء المغاربة أو المشرقة. ذلك بأن كثيرين منهم اطلعوا على رحلة رفاعة الطهطاوي إلى باريس ٤٧، وكونوا فكرة مستبقة عنها قبل السفر إليها، بل إنهم استعملوا، أحياناً، عبارات وأوصافاً مقبوسة من ذلك المتن الرحلي. ويعد الصفار والعمراوي أبرز المتأثرين

به. كما كانت تتاح للرحالة المغاربة القاصدين بلدان الضفة المقابلة من المتوسط، لأغراض دبلوماسية، إمكانية الاطلاع - بحكم قريهم من المخزن - على تقارير ورسائل كتاب السفاريات المتقدمين. وعليه، فإن الصورة التي كان يرسمها هؤلاء الرحالة للآخر «لا تقوم عفواً، ولا ترسم في خلوة عن كل تصميم أو سبق تقدير. إنها، عكس ما يبدو أو يتوهم، لا تكون نتيجة الملاحظة والاتصال، بل هي ثمرة معرفة ووعي سابقين»<sup>٤٨</sup>، يشكّلان «المرجعية الثقافية» التي كان ينطلق منها كتاب السفاريات، خلال النصف الثاني من القرن ١٩، في تصور الآخر، وتأليف سفارياتهم. بل إن الأمر يتعدى ذلك إلى «اكتساب شرعية الانتساب» إلى هذا الإطار المرجعي الذي يمنح الرحالة - الكاتب مصداقيته وقوته الرمزية<sup>٤٩</sup>.

وتمتاز الرحلة السفارية المغربية إلى أوروبا، فضلاً عما سبق، بجملة وافرة من المقومات اللغوية والأسلوبية والفنية، نستعرض أهمها في النقاط الآتي:

أ/- تتخلل لغة نصوص هذه الرحلة ألفاظ من اللسان المغربي الدارج، وأخرى من لغات أجنبية؛ مما يؤكد أن الهمم الإبلاغي التواصل كان هو الضابط على كتاب هذه النصوص، لا إنتاج متون أدبية ذات قيمة جمالية عالية؛ فذلك شأن يعني المبدعين والأدباء في المحل الأول، لا الفقهاء والعلماء والساسة الذين كانوا يتوخون توثيق مشاهداتهم وسماعاتهم وتبليدها لإطلاع المتلقي المغربي - ولاسيما المخزن والنخبة - على التقدم الذي بلغته الأقطار الأوربية المزارّة، ودفعه إلى استخلاص الدروس والإفادة منها في تغيير حياته في اتجاه بناء نهضة على غرار ما حقته تلك الأقطار. فمن الألفاظ العامية في الرحلات المدروسة نذكر: الفلوكة - القهاوي - الطبّيسيل - المخزن - الشواقر - البوطة - المكاحل - القرمود - البُرمة - القادوس - خلف - قسّم - المشاوات - العمارة - السوائع - الحوايج. ومن الألفاظ الدخيلة، ذات الأصل الأجنبي، المتواترة فيها نذكر: البابور - الباشدور - القامرة - الكبّيات - السراجيب - الفركاطة - الحانة - الماكينة - البيران - الكروصات - الهطيل - بلاج - الطاسة - البارود - الفبركة - البُتب - البانكو - اللوز - النورمة - المُرضة - الكرنطيلة - الطياطرو - الديامُند. وورود هذه الألفاظ في تلك الرحلات مبرره إلى أنها كانت شائعة على ألسن الناس، لا سيما بعد الاحتكاك بالأوروبيين، أو إلى التراجمة (ج. ترجمان) الذين كانوا الواسطة بين سفراء السلطان المغربي، الذين لم يكونوا يفقهون ألسن الأوروبيين، وفادة البلدان المتوجه إليها والذين لم يكونوا يفقهون اللغة العربية. وأولئك التراجمة كانوا إما أوروبيين تعلموا هذه اللغة، وإما يهوداً يُتقنون الدارجة المغربية فصيحاً. وكان الفريقان معاً حين يعجزان عن نقل معنى أو مفهوم شيء بالعربية الفصيحة، يتوسلان بلفظ أجنبي مُترجمينه ترجمة تحتفظ بصورته الصوتية في لفته الأصلية. ونشير إلى أن بعض ناشري أصول الرحلات المدروسة قد عمدوا إلى تجميع ما بها من ألفاظ عامية وأعجمية في فهرس خاصّ ألحقوه بتحقيقهم لتلك الأصول الخطية؛ مثلما فعل محمد الفاسي محقق «الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية». وكان كتاب السفاريات يضطرون أحياناً إلى شرح بعض من تلك الألفاظ في شيا نصوصهم إذا اتضح لهم أنها غريبة على المغاربة. فمن ذلك، مثلاً، قول محمد الطاهر الفاسي عقب إيراده لفظ «الهطيل» في سفاريته: «وهو محلّ معدّ لنزول الباشدورات والأكابير»<sup>٥٠</sup>. وقول العمراوي واصفاً بعض «آداب المائدة»، وطريقة تغليم الولائم في مناسبات الباريسيين: «إذا كانت وليمة، واستدعي الناس، جعل أمام كل واحد زمماً فيه جميع ما أعد لهم من المأكّل والحلويات وغير ذلك والخادم يعرض الأتية على كل واحد: فمن انتهى شيئاً أكله، ومن لم يشتهه رده على الخادم، وقال: «مِرسي» - وهي بمعنى كثّر الله خيركم. وهم لا يعزّون على أحد في الأكل، ولا يحلفون له، ويطلبون الجلوس على مائدة الأكل: فمنهم من يأكل، ومنهم من يتحدث»<sup>٥١</sup>. ولا تخلو بعض السفاريات من مُستعمَلات لغوية غريبة؛ مثلما نجد في قول الفاسي عن الاستقبال الذي خصّ به قنصل فرنسا وإسبانيا، بطنجة، الوفدين السفاريين الغربيين اللذين وجههما السلطان محمد بن عبد الرحمن،



في صيف ١٨٦٠، إلى هذين القطرين الأوربيين: «ثم أتى ثلثينا أقتناص جنسي النكليز والفرنسيين، وأظهروا لنا من البشاشة والفرح ما لم يخطر لنا ببال، ولا رُسم في الخيال. ومن فرحهم أن استدعى كل من الأقتناص إلى داره من كان منا ذاهباً لبلده، وما كان ذلك إلا بطلعة مولانا السلطان السعيد، الموفق الرشيد، أدام الله للمسلمين وجوده، وأيد جنوده، أمين» ٥٢. فالشاهد، هنا، هو جمع الكاتب كلمة «قتنصل» على «أقتناص». وهو جمع غريب في اللغة العربية؛ إذ المعروف جمعه على «قتناصل»، وكان عامة الناس يجمعونه على «قتنصوات»، وواحداه «قتنصو». وثمة نصوص سفارية لم تسلم لغتها من أخطاء نحوية وإملائية؛ كرحلة الحسن الغسّال، ضمن وفد سفاري يقوده عبد الرحمن بن عبد الصادق، إلى العاصمة الإنجليزية لحضور حفل تتويج الملك إدوارد السابع، في مطلع القرن الماضي.

ب/- تشترك نصوص السفاريات المغربية إلى أوروبا في استعمال المحسنات البديعية، سواء اللفظية أو المعنوية، استعمالاً يطنى أحياناً على لغة النص. ويظل أسلوب السجع أبرز هذه المحسنات، إلا أن استعماله في بعض السفاريات يوحى بالتكلف والتنعّج، ويخلو من الروق والجمال، ويعكس - في حقيقة الأمر - اللغة التي كانت متداولة في البيئة الفقهية الجافة، وفي الدواوين الرسمية العتيقة. وتجد هذا السجع، بوضوح، في رحلة الجعدي مثلاً. على حين أن استعماله، في سفاريات أخرى، يردّ عفو الخاطر، ولا يتم عن تكلف كتابها في تسجيلها، ويضفي على لغتها بهاءً ورونقاً يستثيران المتلقي ويُمَتِّعانه دون شك. وهو، بذلك، يبتعد بها عن أساليب الدواوين والمراسلات السلطانية، ويصرفها لحمل هموم التحديث، والسعي إلى مجازاة القديم. ونلمس هذه الأسجاع، مثلاً، في سفارتي الكردودي والعمراوي. فالأولى حُررت «بأسلوب مسجع منمّق، لكن لا يبدو فيه أثر للتكلف والاعتساف، وجُمْلُها قصيرة يحسّ قارئها برنة موسيقية» ٥٣. والأمر نفسه ينسحب على أسلوب الثانية، وإن كان بعض دارسيها قد أزعج سبب خُفول هذه السفارية بمظاهر الصُوغ البلاغي إلى محاولة كاتبها البائسة إخفاء انكسار الذات في مواجهة الآخر المتفوق حضارياً واقتصادياً وثقافياً وعسكرياً. يقول إبراهيم أزروال في هذا السياق: «تهض استراتيجية العمراوي الخطابية على تعويم التاريخ الحي، ويوميّات التمهّز المغربي، في طمأنينة السديم اللغوي، ويهزّجة المجازات والسكوكات التراثية، إلا أن اللغة لا تستمليح طمس التاريخ الحي في كل الأحوال. فاللغة المُطرّزة بالمجازات واستعارات الزمن الوسيط لا تُجدي، كلياً، في إخفاء واقع الحال الناطق بالاندحار الحضاري لغرب القرن التاسع عشر، وعجز نُخبه الثقافية عن إدراك التحول في طبيعة الآخر، وفي ماهية جسده السياسي والاجتماعي» ٥٤.

وتكتنف الرحلات السفارية نصوص دينية وأخرى شعرية على سبيل التناص أو الاقتباس، سواء بطريقة صريحة أو ضمنية، تعكس الحضور الضاغط للخلفية الشرعية والفكرية في مدونات الرحالة المغاربة وكتاباتهم. وتستهدف، في غالب الأحيان، تأييد كلام الكاتب وتعزيزه، وإكسابه قوة تأثيرية.

ج/- إن السرد والوصف مكوّنان أساسيان متلازمان في أي رحلة، بما فيها السفاريات، وإن كان استهلاكها يتم بالأسلوب الحكائي الأول، على حين ينبع الثاني من رجم السابق. فالرحلة قصة تروي سَفْرَة، أو هي «سرد، إنها حكاية انتقال سارد من مكان إلى مكان، وانتقال - من جهة أخرى - مكان نحو مكان آخر. أو بمعنى آخر، إنها حركة تفاعل الزمان بالمكان، والمكان بالزمان» ٥٥. وقد تبلور الاتجاه النقدي الذي يتناول المتن الرحلي بمناهج السرديات حديثاً، بعد أن ظل النقد، رداً من الزمن، يُقارب ذلك المتن من زوايا أخرى تتمحور، في أساسها، على القول لا على كيفيات القول. ويعد د. عبد الرحيم مودن من أبرز ممثلي هذا الاتجاه في المشهد النقدي العربي المعاصر ٥٦. ويتطلب تحقق السردية في الرحلة توافر عدد من العناصر البنائية، أهمها - في نظر مودن - القصّدية؛ أي قصّدية السفر، سواء أكان حقيقياً أم خيالياً، وقصّدية الكتابة عن هذا السفر. واحترام القانون الخطابى الشائع، والذي يقتضي حضور

العناصر التواصلية الآتية: السارد والمُسرود والمُسرود له. والإخلاص لتقاليد الكتابة الرحلية المتعارف عليها بين مدوّني الرحلات منذ القديم. والمراهنة على البعد التعليمي؛ لأن الرحالة يرتحل، عادة، للتعلم والاستفادة مما لدى الآخر، والانطلاق من ذلك لإعادة إنتاج المعرفة بصيغ جديدة حين الأوبة من الرحلة إلى البلد الأم<sup>٥٧</sup>. ولا يجد الدارس صعوبة تذكر في الوقوف على هذه المقومات والعناصر في الرحلات السفارية المغربية إلى أوروبا، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ذلك بأنها تبتدئ حكيها بانطلاق أعضاء الوفد السفاري من الحضرة الإدريسية، في الغالب الأعم، متجهين صوب ثغر طنجة، ومنه ينتقلون، على متن باخرة، إلى الدولة المقصودة. ثم تتنقّل - عبر ساردها الجوّال (Le narrateur emulant) - تحركات الوفد ونشاطاته هناك، وفق التعاقب الزمني لها، إلى حين العودة إلى أرض الوطن، بعد قضاء أغراض السلطان في البلد المُنْعَى. وعلى هذا الأساس، يغدو السرد البنية الحكائية الأصلية في أدب الرحلة، وإن كان حضوره ليترأّج، بوضوح، أمام الوصف. بحيث كان كتاب السفاريات يحرصون على وصف كثير من مشاهداتهم في أوروبا، مركزين على ما له صلة بالشأن العسكري ومظاهر الحداثة والحضارة. وبما أن لتقاريرهم اعتباراً خاصاً لدى المخزن، الذي كان يدعوهم - غالباً - إلى تقييد مشاهداتهم تلك، للانطلاق منها في بناء خطط الإصلاح والتحديث اقتداءً بالأوربيين الذين تأكدت غلبتهم وتفوقهم منذ موقعة إسلي، فقد كانوا جراساً على التوصيف الصادق، والنقل الأمين لما يرونه من مظاهر يجدر تدوينها. وقديماً قيل: «إذا كذب السفير بطل التدبير»<sup>٥٨</sup>. وعلى الرغم من قصر متونهم الرحلية (وهذه خاصة أخرى من خواص سفاريات المغاربة قيد الدراسة)، الذي يُعزى أساساً إلى قصر مُدَد مكوثهم في البلد المُزار، وإلى انتقائهم موصوفاتهم، فقد كانوا يفيضون أحياناً في وصفهم بصورة دقيقة لا تكاد تغادر صغيرة ولا كبيرة، بخلاف من سبقهم من كتاب السفاريات المغاربة (كالمكناسي) الذين كانوا أميل إلى التعميم والإختصار.

إن القارئ ليُعجب، أحياناً، من دقة الصفا في الملاحظة والوصف وقوة حسّه الوثيقي، ويجد في رحلته الحضور البارز لشخصية الفقيه «العدل» المتمرس بتحرير العقود، وإثبات أقوال الشهود<sup>٥٩</sup>. ويتواتر الأمر، وإن بدرجات متفاوتة، لدى كتاب السفاريات الذين جاؤوا يمدّه. فهذا محمد الطاهر الفاسي يصف المركب الذي أقلّم من طنجة إلى مرسى بورسموث (Portsmouth)، ومن على متنه، وصفاً دقيقاً بقوله: «طول المركب واحد وتسعون قدماً، والمراد بالقدّم - خلفه<sup>٥٩</sup> - الرّجل المتوسط، وعرضه ١٣ قدماً بالقدم المذكور. وفيه من المدافع العظام واحد وخمسون، ومن البحرية خمسمائة، ومن العسكر مائة، فالجميع القائم به ستمائة، وجميع من به من البحرية فرح بنا، وما قصر في جانبنا. وبمجرد دخولنا للمركب، أشار إليهم كبيرهم بلغته، فجعلوا يتسابقون للصعود فوق الصّواري، ويضربون الصفوف هنالك، طبقة فوق طبقة، وجعلوا شماريرهم ٦٠ بأيديهم، وهم يتكلمون بكلام يرفعون أصواتهم، وكل ذلك إشارة إلى الفرح بنا، والتعظيم لأمرنا، كما يفعلون مع عظمائهم. وهذا العدد - أعني ٦٠٠ - كل واحد مكلف بعمل، ولا يجلس واحد منهم ألبّة. فمتهم المكلف بالذهاب والإياب في المركب، وهذا يسمى عندهم بـ«الوردن» - أعني الحارس، ومنهم المكلف برؤية الشمس عند الزوال بالقوس، ومنهم المكلف بزيادة البحر ونقصانه<sup>٦٠</sup>». وأشهد العمراوي في وصف باريس، بادئاً بالإعراب عن إعجابه بها ويشسّوع مساحتها؛ إذ يقول عنها: «لم أكن أظن أن في الدنيا مدينة قبل أن أراها مثل ذلك»، مقدراً مساحتها بأنها أكبر من فاس؛ عاصمة المغرب آنئذ، بحوالي اثنتي عشرة مرة. وانتقل إلى وصف مبانيتها خارجياً وداخلياً، وعادات أهلها في الأكل، وشوارعها المرتبة والنظيفة التي تعجّ بحركة الناس والأكداش والكراريس، وكثير من مرافقتها ومعالها العمرانية بدءاً بتقصر السلطان إلى ساحاتها العمومية وحدائقها وملاهيها وتماثيلها وجنان الوحوش ودار السلاح، التي عُرِضت فيها أسلحة بدائية وأخرى حديثة، ودار الضرب ودار الطباعة



ودار السلع والأثاث ودار العسكر العَجَزَة ودار الكتب وقصر رساي والسيرك وغير ذلك من مشاهداته في باريس ٦٢. ولم يكن هدف الواصف، هنا، الإفادة فقط، بالإخبار عما رآه هناك في عاصمة فرنسا من مظاهر التقدم والتحضر، بل كان يتوخى كذلك إمتاع المتلقي بما وصفه من موصوفات عجيبة وغريبة، على غرار ما فعله سائر كتاب السفاريات المدروسة.

إن الرحالة الواصف، في النص السفاري، لم يكن يتردد، أحياناً، في الاستخفاف ببعض مظاهر حياة الأوربيين، متوسلاً بما أسماه عبد النبي ذاكر «استراتيجية الانتقاد الغيبي» المبنية على النظرة النقدية للذات المغايرة؛ بمعنى أنها «تغلف نفسها بقناع الموضوعية وعدم الانبهار، نابذة كل رؤية سرائية أو طوباوية. وقد تحكمت في تلك النظرة ثوابت سوسيو - إثنو - ثقافية طبعها بالانتقائية، وحالت دون اختراق قيم المغايرة. الشيء الذي جعل الانتقاد الغيبي ينكب على المعتقد أو القيم الروحية، والسلوكات المستزدة، وكذا الجهل بالذات العربية الإسلامية ومقوماتها الحضارية» ٦٣.

إن وصف كتاب السفاريات المغايرة لما شاهده في أوربا من مظاهر حداثة وسلوكيات ومرافق لم يلزم حدود الموضوعية والأمانة في النقل، بل رانت عليه، أحياناً، ذاتية الواصف المستنودة بخلفية إيديولوجية ومعتدية معروفة، والناظرة إلى الآخر بمنظارها الخاص. ففي التحفة، مثلاً، جملة نصوص وصفية لم يكتف فيها العمراوي بالمسح التوضيحي، أو بالاستعراض التشخيصي للذوات والمؤسسات والبنى الغربية، بل تجاوز ذلك إلى تقويم الموصوفات والحكم عليها سلباً، انطلاقاً من تمثلاته الدينية ومنظومته السلوكية الإسلامية؛ فبدأ حيالها شخصاً لا يصف الآخر إلا لتسفيله، والكشف عن دونيته، رغم انفرادها بمنجزات علمية وحضارية لا يملك الآليات المنهجية والفكرية الكفيلة بتقويمها موضوعياً ٦٤. ومما يشهد لذلك، نصياً، قول العمراوي يصف بعض مرافق باريس وسلوكيات أهلها وصفاً جانحاً نحو التقيص والتسفيه، وإن لم يحل من تحسر على ما يتمتعون به من غير أبناء ملة الإسلام: «يا خسارة تلك المنارة البهية، ويا شوم تلك الساحات الزهية، قد كدر جوها بسكانها، ولبست من الحداد غاية إمكانها، وكيف لا وعمرها ما بين عابد صليب وقسيس وساع في طاعة إبليس، على أنهم ما تمتعوا بها تمتع لذة وانساض، ولا ضربوا حول ذلك الوادي خباء زهور ولا جلسوا للسرور على بساط، ولا ركبوا في تلك المروج ضائق الخيول، ولا جزوا في تلك المنتزهات أطراف الذبول، وإنما يمرون فيها مرور العفاريات، ويسعون فيها أشباه الشعالى راكبين على زعازع من الحديد والحريق تخرق فجاج تلك الطريق كأنما تصعد إلى الجو أو تهوي من مكان سحيق. وإذا سئموا من التعب، ومالوا إلى الاستراحة، وأرادوا التمتع بتلك الساحة، دخلوا بيوتاً حرجة في داخل الخان، وتعاطوا كؤوساً أمر من الحنظل يسيفون بها بنن ذلك الدخان، وخرجوا يُعَرِّدون كالحنازير، ويرقصون كالقردة، وينهقون كالحمير، وجوههم بالحلاق مشوهة، وحديثهم صفير ونعير وفهقهة...» ٦٥.

ويقترن الوصف، في الرحلات السفارية المغربية، بالمقارنة والتفسير. ذلك بأن كتابها كانوا يعمدون، في بعض المواضع، إلى عقد مقارنات بين ما يشاهدونه في أوربا وبين ما هو موجود في بلدهم؛ كمقارنة الصفار بين شكل الدور في فرنسا وشكلها في المغرب، قائلاً: «وأما أشكال دورهم فإنها مخالفة لشكلنا: فإن دورهم ليست بالساحة والفوقي والسفلي والبيوت والغرف كما عندنا، فإنهم يتركون ساحة الدار خارجة عنها مرفقاً لوقوف نحو الكرايص والدواب» ٦٦. ومقارنة العمراوي، لدى حوله بباريس، مساحتها بمساحة فاس؛ كما رأينا سابقاً. ومقارنة الكردودي، لدى زيارته - رفقة أعضاء البعثة السفارية إلى إسبانيا - مدريد، محل مراكب العاهل الإسباني، الذي صادف وصول البعثة إلى العاصمة الإسبانية وفاته، بذلك الموجود لدى السلطان المغربي، دون تفضيل أحدهما على الآخر ٦٧.

وإذا كانت المقارنات السابقة كلها موضوعية، فإننا نلفي في سفاريات رحالينا إلى أوربا، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مقارنات أخرى بين «ما عندهم وما عندنا» تنأى عن الموضوعية والحقيقة،



لشدة تعلق الرحالة واعتزازه ببلده الذي كان، في الواقع، متأزماً ومتخلفاً عن الأوروبيين في شتى المجالات الحضارية. ونمثل لهذا الضرب من المقارنة بما ورد في سفارية الكردودي من مقارنات بين ما شاهده في إسبانيا وما هو موجود في المغرب، يلمس قارئها أن لهجة الكردودي «تتم عن حمية وتحمس لبلده وقومه، حتى لا يوجد شيء في الدنيا يعدل ما يوجد في وطنه»؛ كما قال المرحوم عبد الوهاب بن منصور في تصديره لثحفة الكردودي التي حققها ٦٨. فعندما تحدث عن حداثق إسبانيا ذكر أن «مطلق جنات المغرب أشهى وأحلى، وأرفع محاسن وشكلاً» ٦٩. وعندما تحدث عن التظيم العسكري لدى الإسبان عقب قائلاً: «وأين ذلك من ترتيبنا العجيب، الذي لا يزدرية إلا خائن في دينه مريب» ٧٠. وتجد، أحياناً، الكردودي يفضل ما لدينا على ما لدى الإسبان بناء على معطيات ملموسة؛ كما في تفضيله قلاع طنجة على أبراج ثغر قادس، بحيث وصف الأولى بأنها «أقن عملاً، وأحسن شكلاً». فهذه ٧١ محصية، وأبراج طنجة محصية حصناً متقناً محكماً. وهذه بعيد عن مدافعها ما يتوقف عليه لاستعمالها، وتلك قريبة منها حتى كادت أن تكون متصلة بها. وفي أبراج طنجة محال يتوسع المكلفون بعملها فيها، ولا يلحظهم أذى وقت الاضطراب إليها، وليست هذه كذلك وغير ذلك من المحسنات التي تفضل بها أبراج طنجة على هذه تميمياً واستعمالاً ووقاية. وليت مدافعها كانت تعمر من مؤخرها كهذه، إذ لو كانت كما تميمها لكانت جامعة مانعة» ٧٢. وفي بعض الأحيان، كان يعتمد الرحالة تقديم صورة مغلوطة توخياً لإظهار بلده متماسك البنية الداخلية قوياً، عائشاً في نعيم؛ كما في إشارة الجعدي، في ثابا رحلته، إلى أن في المغرب يهدى النذهب إلى المؤسسات الخيرية، وذلك رغبة في إبعاد أي خطر استعماري عنه. وفي أحيان أخرى، كان يجتهد بعض كتاب السفاريات المغاربة، بدافع من حماسهم المفرط لدينهم وحضارتهم، في تأصيل بعض مظاهر الحداثة في أوربا، والبحث عن جذور لها في ذاكرة أمتهم؛ مثلما نجد في سفارية الصفار التي دافع فيها مدونها عن أن كثيراً من مظاهر المدنية الباريسية ليست غريبة عن الإسلام والمسلمين، بل لها نظائر في ثقافتهم العريقة. فقد ذكر الصفار، مثلاً، لدى وصفه الطباطر (المسرح)، وما فيه من فرجة ونكتة وصراخ، بأن له مقابلاً في تراشا، وهو القصص والآثار المنقولة عن ضحك الصحابة ومزاحهم!

وكان يعتمد كتاب السفاريات، قيد الدراسة هنا، لدى وصفهم مستحدثات الحضارة الأوربية في المجال التقني، إلى تقديم تفسيرات لها أحياناً، انطلاقاً من تصورهم وخلفيتهم الفقهية المحافظة، وهي تفسيرات لا تخلو من سذاجة وسطحية وقصور في الفهم. فالسبب في اكتشاف الأوروبيين القوة البخارية، في نظر محمد الطاهر الفاسي، «أن صبيّاً كانت بيده ناعورة صغيرة من كاغيد، فجعلها متصلة بجعب في فم بفرج على نار. وبعد اشتداد غليان الماء فيه، جعلت تدور بقوة ذلك البخار، فرأه رجل، فتعجب واستنبط هذا البابور المعروف بعقله الظلماني؛ لأن العقل على قسمين: ظلماني ونوراني. فالظلماني به يدركون هذه الأشياء الظلمانية، ويزيدهم ذلك توغلاً في كفرهم. والنوراني به يدرك المؤمن المسائل المعنوية؛ كالإيمان بالله وبملائكته ورسوله وكل ما يقرب من رضى الله» ٧٣. وتحدث أحد كتاب السفاريات عن ظهور التلفون بطنجة، وعن فوائد ونحو ذلك، وعبر عن إعجابه الشديد به، دون أن يغفل التطرق إلى كيفية اختراعه من قبل النصارى؛ وذلك في قوله: «في خلال مقامنا بهذا الثغر السعيد ٧٤ هذه المدة، أحدث النصارى فيه من عجيب الإنشاء سلماً يخاطب الرجل فيه من شاء، فيسمع المخاطب فيه خطاب صاحبه، كأنها يتكلم بجانيه، بلفظ صريح، وصوت فصيح، ويجاب فيه بأفصح جواب، كأنها يتخاطبان وليس بينهما حجاب. وذكر أن أول من أنشأ صبيان من أهل هذا الثغر كانوا يلعبون بجعبتين من قصب كل منهما مفتوحة الطرفين وقد ألصق على أحد الطرفين من كلتيهما جلد رقيق فيه خيط طويل ممتد بينهما متصل طرفاه بالجلد اللصق بهما، فيتكلم أحدهما بما شاء في جعبة القصب التي بيده، والآخر جاعل طرف الجعبة المفتوح في أذنه، فيسمع كلام مقابله. وقد شاهدتهم يلعبون بذلك، وأخذت إحدى الجعبتين، وجعلت طرفها

في أدني، وتكلم المقابل في القصبة التي بيده، فسمعتُ قوله!!»٧٥. وأضاف قائلاً: «وحين عاينَ النصاري ذلك واستحسنوه، اعتنوا بأمره وامتحنوه، فأنج لهم ذلك السلك الذي عظمت نتيجته، وبهرت حكمته. ولقد شاهدتُ محلّه الجامع، الذي تتفرّق منه الأسلاك لغيره من المواضع، واستُخدم بمحضّنا، وبمراي ومسمع منا، فسمعتُ خطاب مَنْ خاطبني فيه، واستوعبتُ ما لفظه فيه. وأعجبُ من ذلك أن بعض مَنْ حضر طلب فيه ممّن خاطبه أن يُسمِعنا ضربَ البيانو، فسمعتُهُ حين جعلتُ من آلات السلك نظير جعبة القصب حذو أدني»٧٦.

تلكم، إذا، أهمُّ خصائص الرحلة السفارية المغربية إلى أوربا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، رصدناها انطلاقاً من قراءة النصوص الرحلية السفارية المنتمية إلى هذه الفترة من تاريخ المغرب الحديث، على أنّنا لا نريد بمصطلح «الخصائص»، هنا، معناه العلمي الصارم، الذي يصرفه للدلالة على ما يميّز الشيء من غيره، بل نستعمله بمرونة قاصدين به، في الواقع، سمات الرحلة السفارية التي تميزها من سائر صنوف الرحلة المعروفة بين الباحثين، وكذا المقومات المضمونية والشكلية التي تلفت الانتباه بحضورها المطرد في متون سفاريات الفترة المدروسة في هذا البحث.

- (١) - انظر تفصيل هذه الدوافع، مثلاً، في كتاب «أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني» للحسن الشاهدي، منشورات عكاظ، الرباط، ط. ١، ١٩٩٠، ٤٧/١ - ١٠٦.
- (٢) - من تقديم عيد الوهاب بن منصور لسفارية الكرودي، التي حققها، ص ٥.
- (٣) - من تقديم محمد الفاسي لسفارية أبي الجمال محمد الطاهر الفاسي، التي حققها، ص «ج».
- (٤) - من تقديم زكي مبارك لسفارية العمرابي، التي حققها، ص ٥.
- (٥) - نُشرت الرحلة المؤسسة العربية للدراسات والنشر (بيروت)، عام ٢٠٠٧، في جزء واحد قوامه ٢٤٦ صفحة من القطع المتوسط.
- (٦) - فريد لمريني: صراع الحداثة والتقليد - معوقات التحول الليبرالي في المغرب، من منشورات مجلة «وجهة نظر»، سلسلة «دقائق وجهة نظر»، ع. ١، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. ١، ٢٠٠٦، ص ١٢.
- (٧) - محمد المنوني: مظاهر يقظة المغرب الحديث، شركة النشر والتوزيع المدارس، البيضاء، ط. ٢، ١٩٨٥، ١٦/١.
- (٨) - نفسه، ٥٨/١.
- (٩) - فريد لمريني: صراع الحداثة والتقليد، ص ٦٩، بتصرف.
- (١٠) - سعيد بنسعيد العلوي: أوروبا في مرآة الرحلة (صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة)، من منشورات كلية آداب الرباط، سلسلة «بحوث ودراسات»، رقم ١٢، مطبعة النجاح الجديدة، ط. ١، ١٩٩٥، ص ٢٧.
- (١١) - الرحلتان هما «الإكسبير في فكاك الأسير» (نشرها محققة محمد الفاسي، عام ١٩٦٥، بالرباط)، و«البيدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأسارى من يد العدو الكافر» (حققتها مليكة الزاهدي تحقيقاً حصلت به على إحدى جوائز ابن بطوطة للأدب الجغرافي، في دورتها الثامنة، عام ٢٠١١. وكان قد صدر هذا التحقيق، مؤخراً، ضمن منشورات كلية آداب المحمدية/ المغرب (سلسلة «رسائل وأطروحات»)، في ٤٣٠ صفحة من القطع المتوسط، مُرقّفاً بمراسة مفصلة للمحققة، بتقديم عيد المجيد القدوري. والعمل، في الأصل، بحث أكاديمي نالت به الزاهدي د.د.ج. في تخصص «التاريخ الحديث»، بإشراف محمد منصور. وتجدر الإشارة، هنا، إلى صدور تحقيق جديد لنص الرحلة، مؤخراً، بقلم المؤرخ المغربي الكبير عبد الهادي التازي، ضمن منشورات «سلسلة كتب المجلة العربية» بالرباط/ ٢٠١٢).
- (١٢) - إدريس هاني: «أدب الرحلة وأسئلة النهضة: الرحلة من منظور التجريبية المغربية»، مجلة «الكلمة»، بيروت، ع. ٦٤، س. ١٦، صيف ٢٠٠٩، ص ٧١.
- (١٣) - محمد الصفار: رحلة الصفار إلى فرنسا، تح: سوزان ميلار (Susan G. Miller)، تحرير: خالد بن الصغير، من منشورات كلية آداب الرباط، ط. ١، ١٩٩٥، ص ١٩٥.

- (١٤) - نفسه، ص ١٩٨.
- (١٥) - نفسه، ص ١٩٩.
- (١٦) - إدريس العمراوي: تحفة الملك العزيز بمملكة باريز، تح: زكي مبارك، مؤسسة التغليف والطباعة للشمال، تطوان، ط ١٩٨٩، ص ٩٣.
- (١٧) - نفسه، ص ٨٣.
- (١٨) - محمد الحجوي: الرحلة الأوروبية، تح: سعيد بنسعيد العلوي، منشورة ضمن كتابه «أوروبا في مرآة الرحلة»، م.س، ص ١٣٢.
- (١٩) - نفسه، ص ١٣٣.
- (٢٠) - نفسه، ص ص ١٣٢ - ١٣٣.
- (٢١) - إبراهيم أزروال: التمرکز العقدي في الرحلات السفارية - الثقافة المستحيلة، الحلقة الأولى، منشور في موقع «الأوان» ([www.alawan.org](http://www.alawan.org))، بتاريخ ٢٠٠٩/٠٢/١٠.
- (٢٢) - محمد سييلا: المغرب في مواجهة الحداثة، سلسلة «الزمن»، الرباط، ع. ٤، مطبعة النجاح الجديدة، ط ١٩٩٩، ص ١٤.
- (٢٣) - التحفة، ص ٨٤.
- (٢٤) - نفسه، ص ٨٥.
- (٢٥) - نفسه، ص ٧٨.
- (٢٦) - نفسه، ص ص ٧٩ - ٨٠.
- (٢٧) - محمد سييلا: المغرب في مواجهة الحداثة، ص ٢٤.
- (٢٨) - التحفة، ص ٤٦.
- (٢٩) - نفسه، ص ٨٦.
- (٣٠) - حسام هاب: خطاب الرحلات السفارية المغربية خلال القرن التاسع عشر «الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية» نموذجاً، جريدة «الاتحاد الاشتراكي»، المغرب، ع. ٩٥٥٧، ١٨/٠٨/٢٠١٠، ص ٧.
- (٣١) - محمد سييلا: المغرب في مواجهة الحداثة، ص ١٨-١٣، بتصرف.
- (٣٢) - نفسه، ص ٢٠.
- (٣٣) - نفسه، ص ٢٨.
- (٣٤) - التحفة، ص ٥.
- (٣٥) - نفسه، ص ٣٩.
- (٣٦) - محمد الطاهر القاسبي: الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية، تح. وت: محمد القاسبي، مطبعة جامعة محمد الخامس، فاس، ١٩٦٧، سلسلة «الرحلات السفارية»، رقم ٢، ص ٣٧.
- (٣٧) - نفسه، ص ١٩.
- (٣٨) - فريد لبرني: صراع الحداثة والتقليد، ص ٦٥.
- (٣٩) - رحلة الصغار إلى فرنسا، ص ١٧.
- (٤٠) - التحفة، ص ٣٣.
- (٤١) - الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية، ص ٢.
- (٤٢) - هو الفقيه الحاج محمد بن الطاهر الزيدي الرباطي.
- (٤٣) - هو الجعدي السلوي.
- (٤٤) - هو التاجر بناصر فنام.
- (٤٥) - إدريس الجعدي: إتحاف الأخيار بفرائد الأخبار، تح. وتق: عز المغرب معينو، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي - المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، د.ت، ص ص ٣ - ٤.
- (٤٦) - أحمد الكرودي: التحفة السنية للحضرة الحسنية بالمملكة الإصنيولية، تح. وتق: عبد الوهاب بن منصون،



- المطبعة الملكية، الرباط، ط.١، ١٩٦٣، ص ٢١ - ٢٢.
- (٤٧) - عنوانها «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» (١٨٣١).
- (٤٨) - سعيد بن سعيد العلوي: أوروبا في مرآة الرحلة، م.س، ص ١٢، بتصرف.
- (٤٩) - عبد الرحيم مودن: رحلة أدبية أم أدبية الرحلة؟، مجلة «فكر ونقد»، الرباط، ع.٢٠، س.٢، يونيو ١٩٩٩، ص ١١٧.
- (٥٠) - الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية، ص ١٠.
- (٥١) - التحفة، ص ٣٣.
- (٥٢) - نفسه، ص ٣.
- (٥٣) - التحفة السنية، ص ٨ (من تقديم المحقق).
- (٥٤) - إبراهيم أزروال: التمرُّكز العقدي في الرحلات السفارية - الثقافة المستحيلة، الحلقة الأولى، م.س.
- (٥٥) - عبد الرحيم مودن: أدبية الرحلة، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط.١، ١٩٩٦، ص ٥٨.
- (٥٦) - عبد الرحيم مودن: اتجاهات البحث الرحلي بالمغرب (خطاطة أولية)، العلم الثقافي، المغرب، ع.١٠/١٠/٢٠١١، س.٤١، ص ١١.
- (٥٧) - عبد الرحيم مودن: أدبية الرحلة، ص ٥٩ - ٦٠.
- (٥٨) - سعيد بن سعيد العلوي: أوروبا في مرآة الرحلة، ص ٥٥.
- (٥٩) - أي: خطوة (لفظة بالدارجة المغربية).
- (٦٠) - أي قباعاتهم. وأصل الكلمة إسباني (Sombrero).
- (٦١) - الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية، ص ٥.
- (٦٢) - التحفة، ص ٦٣ - ٩٤.
- (٦٣) - عبد النبي ذاكر: صورة أمريكا في متخيل الرحالين العرب، من منشورات «الزمن»، ع.٣١، ط ٢٠٠٦، ص ٧٤.
- (٦٤) - إبراهيم أزروال: التمرُّكز العقدي في الرحلات السفارية - الثقافة المستحيلة، الحلقة الأولى، م.س.
- (٦٥) - التحفة، ص ٤٩ - ٥٠.
- (٦٦) - رحلة الصفار إلى فرنسا، ص ١٤.
- (٦٧) - التحفة السنية، ص ٤٧.
- (٦٨) - نفسه، ص ٧ (من التقديم).
- (٦٩) - نفسه، ص ٨٣.
- (٧٠) - نفسه، ص ٨٤.
- (٧١) - يقصد أبراج قادس (Cadiz).
- (٧٢) - نفسه، ص ٣٩.
- (٧٣) - الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية، ص ٢٨.
- (٧٤) - يقصد ثغر طنجة.
- (٧٥) - التحفة السنية، ص ٣١.
- (٧٦) - نفسه، ص ٣٢.

### ظواهر عروضية في شعر أبي البحر جعفر الخطي بقلم: عبد الله عبد اللطيف الأحمر\*

ترك أبو البحر الشيخ جعفر بن محمد الخطي البحراني (ت ١٠٢٨هـ / ١٦١٩م) ديواناً كبيراً ضم ما يقرب من الألفين والأربعمائة بيت، شملت جل أغراض الشعر العربي التقليدي تقريباً، وتوزعت ما بين مائة وثلاث وخمسين قصيدة ومقطوعة تتكون من عدد معين من الأبيات تطول وتقتصر حسب موضوع القصيدة، أو بحسب حالة الشاعر النفسية. والبيت الواحد يتألف من جزئين هما الصدر والعجز اللذان يكونان في وضع موسيقي متماثل تماثلاً دقيقاً؛ إذ يجب على الشاعر أن يوفر عدداً من المقاطع الصوتية في كلا الشطرين يتساوى هندسي مضبوط، بالإضافة إلى أن العجز يحتفظ بميزات إيقاعية خاصة، حسب لها الشاعر العربي حساباً واعياً، وتبرز تلك الخصوصية في مفهوم القافية. كل ذلك كان في زمن خضعت فيه القصيدة العربية لقانون واحد، وعلى الرغم من ذلك فقد تسرب «الدوبيت» إلى شعر أبي البحر، مما يعد انفتاحاً منه على تجارب الآخرين خاصة الشعر الفارسي.

وليس لدارس بنية القصيدة العربية أن يتجاوز الإيقاع إلى التراكيب والأساليب، فما الإيقاع إلا المستوى السطحي لتلك البنية، مشكلاً بهما ومعهما وحدة إبداعية يحكمها الانسجام والتفاعل.

وفيما يلي وقفة عند المعجم الإيقاعي للشاعر جعفر الخطي، ومعطيات هذا المعجم، ثم يعقب ذلك وقفة - لا تلبث طويلاً - عند القافية.

#### المعجم الإيقاعي في شعر أبي البحر

يتضمن المعجم الإيقاعي حصراً كاملاً لنتاج الشاعر، ثم تصنيف هذا النتاج طبقاً للأوزان الشعرية التي صيغ فيها، ثم إحصاء هذه الأوزان وقياس نسبة تنوعها وتردها، ومن هذه النسبة يستنبط ميل الشاعر نحو أنماط موسيقية بعينها، وحجم الرقعة الإيقاعية التي يتحرك فيها.

وقد بلغت المادة الشعرية التي تم قياس نسبة التنوع طبقاً لها، ألفي بيت، وثلاثمائة، وتسعة وتسعين بيتاً، وهو جملة ما ضمه ديوان أبي البحر الشيخ جعفر الخطي (١).

وتوزعت هذه المادة ما بين مائة وثلاث وخمسين قصيدة ومقطوعة، وقد روعي عند إحصاء هذه المادة، ورصد ملامح التنوع والتكرار فيها أن مجزوءات الأوزان قد أدرجت ضمن المادة الشعرية للبحر الذي تنتمي إليه، بغض النظر عن عدم تمامها، إذ المقصود من المعجم الإيقاعي هو الوقوف على نسبة تردد إيقاع بعينه، وهذا الإيقاع يتحقق بالوزن المجزوء كما يتحقق بالوزن التام، فضلاً عن أن هذه المجزوءات

\* باحث من الكويت.

قليلة في شعر أبي البحر، ولا يتجاوز ما نظم فيها قصيدة من مجزوء الرمل، وثلاث مقطوعات قصار، مقطوعتين من مجزوء الكامل، والثالثة من مجزوء الرجز. وللسبب نفسه الذي أشرنا إليه في الفقرة السابقة أدرج مخرج البسيط ضمن المادة الشعرية للبسيط، وليس خافياً أن مخرج البسيط قليل الاستعمال، ليس في شعر أبي البحر وحده، بل في الشعر العربي عامة، والقليل الذي ورد منه في شعر أبي البحر لا يؤثر بحال على سلامة النتائج التي وصلت إليها هذه الدراسة، والتي يمكن الوقوف عليها من خلال الجدول الإحصائي التالي:

م	البحر	عدد الأبيات	النسبة المئوية
١	الطويل	٦٧٥	٢٨,١%
٢	الكامل	٦١٦	٢٥,٦%
٣	الخفيف	٤١٥	١٧,٢%
٤	البسيط	٢٩٩	١٢,٥%
٥	الوافر	٢٣٧	١٠%
٦	الرمل	٩٠	٤%
٧	المتقارب	٣٢	١%



٨	السريع	١٥	٠,٦٢%
٩	المنسرح	١٤	٠,٥٨%
١٠	الرجز	٦	٠,٢٥%

#### معطيات القياس

من الواضح أن أبا البحر الشيخ جعفر الخطي في معجمه الإيقاعي لا يتحرك في كل المساحة الموسيقية التي استوعبها العروض العربي من الناحية النظرية، فمن بين الأبحر الخليلية الستة عشر، نرى حركة أبي البحر مقيدة بعشرة أبحر لا تزيد، بل إن من بين ما استخدمه أربعة أبحر يعتبر استعماله لها في حكم المعدم، فقد نظم من المتقارب اثنين وثلاثين بيتاً، ونظم من السريع خمسة عشر بيتاً، ومن المنسرح أربعة عشر بيتاً، في حين أنه لم ينظم من الرجز سوى ستة أبيات، ولا ريب أن هذا العدد من القلة بحيث يمكن القول بأن حركة أبي البحر جعفر الخطي لم تتجاوز من الناحية العملية ستة أنماط إيقاعية فحسب.

أما أكثر الأنماط الإيقاعية دوراً في هذا المعجم فهي الأوزان الأربعة الأولى، في مقدمتها يأتي الطويل، ثم الكامل، ثم الخفيف، ثم البسيط، والنمطان الأول والرابع - الطويل والبسيط - يتفقان في رحابة النغم، وامتداده، وانفساح مداه، الأمر الذي يضيف عليهما أبهة وجلالاً. ويمتاز الطويل عن صاحبه بأنه أكثر انطلاقاً وألسن نغماً، وأبعد عن الجلبة والاصطخاب. وإذا استثنينا البحر الخفيف، فإن القدر المشترك بين الطويل والكامل والبسيط بالإضافة إلى الوافر الذي حل خامساً، هو ما يسميها جميعاً من كثرة المقاطع اللغوية، ورجحانها على ما عداها من الأوزان.

ومما لا شك فيه أن طول الوزن ووفرة مقاطعه يمنحان الشاعر مزيداً من المرونة في التحرك عبر المسافة الموسيقية للبيت الشعري. يضاف إلى ذلك أن غلبة الأوزان الطويلة على نتاج أبي البحر ليس مقطوع الصلة بمبدأ وحدة البيت، وهو المبدأ الذي ظل لفترة طويلة يحكم منطق العملية النقدية والعملية الإبداعية على حد سواء؛ إذ كان في انفساح الأوزان الطويلة، وكثرة مقاطعها، ورحابة أمادها، ما يعين الشاعر على استغراق فكرته عبر سطر عروضي مستقل، وما يهيئ له سبيل احتواء الخاطرة الجزئية فيما ظنه بيتاً شعرياً نموذجياً.

وإذا كان المعجم الإيقاعي يفسح المجال إلى مقارنة مساحة البحور في شعر أبي البحر بتوعية التجارب الشعرية التي عالجها، حيث نجد أنه ألزم نفسه في كثير من قصائده بوحدة الموضوع، إلا أن هذه المقارنة لا تخلو في بعض نتائجها من مراوغة، بل قد لا تتجو من خداع صريح، إذا أخذ بعين الاعتبار أن الوزن الواحد يمكن أن يقبل - من الناحية النظرية - شتيتاً من القصائد ذات التجارب المختلفة والمناهج الصياغية المتنوعة، هذا فضلاً عن أن هذه التجارب تجميعية - خاصة في الشعر القديم - يقترن التسيب فيها بالوصف، وقد يفضي هذان إلى المديح، وقد يجتمع إلى هذا كله شكوى الدهر، أو التبصر في عبر الأيام، ومن ثم يظل الاحتكام إلى مبدأ تصنيف الأغراض الشعرية في قياس مدى الموامة بينها وبين إيقاعات بذاتها دائراً في إطار الافتراض المحض، قبل أن يكون واقعة ماثلة في نتاج الشاعر.

#### الثقافية في شعر أبي البحر

جاء شعر أبي البحر على الحروف العربية ما عدا سبعة حروف لم ينظم عليها، وهذه الحروف التي لم ينظم عليها هي: ث، ج، خ، ذ، ظ، غ، و.

ويلاحظ أن هذه الحروف السبعة التي لم ينظم عليها من الحروف النضر التي قل أن تجد شعراً عليها. ومما يتعلق بحديث الثقافية ملمحان مهمان وجدناهما في شعر أبي البحر، نتحدث عنهما فيما يلي:

#### أولاً - لزوم ما لا يلزم؛

«وهو أن يلتزم الناثر في نثره، أو الشاعر في شعره قبل روي النثر والشعر حرفاً فصاعداً على قدر قوته، وبحسب طاقته، مشروطاً بعدم الكلفة». (٢)

وقد رصدنا ثلاثة مظاهر من مظاهر اللزوم في شعر أبي البحر:

##### ١- التزام الردف بالياء:

من مظاهر اللزوم في شعر أبي البحر أنه التزم بالردف ياءً في مقطوعتين قصيرتين من شعره. والردف حرف مد أو لين يكون قبل الألف، فإذا كان ألفاً وجب التزامه، أما إذا كان واواً أو ياءً فتجوز المبادلة بينهما. وهذا ما أتى عليه الشعر العربي بالالتزام بالألف، والمبادلة بين الواو والياء. فإذا خالف الشاعر، فاللزم بأن يكون الردف واواً في كل القصيدة أو ياء، عد ذلك من لزوم ما لا يلزم. وقد التزم أبو البحر ياء المد ردهاً في مقطوعتين قصيرتين، المقطوعة الأولى تحمل الرقم (٩٩)، وعد

أبياتها خمسة أبيات. أما المقطوعة الثانية فتحمل الرقم (١٣٢)، وعدد أبياتها ثلاثة أبيات.

٢- التزام الدخيل حرفاً بعينه:

المظهر الثاني من مظاهر اللزوم في شعر أبي البحر، التزامه بالدخيل حرفاً بعينه. والدخيل: حرف صحيح يقع بين حرف الروي وألف التأسيس، وسمي دخيلاً لتغيره مع وقوعه بين حرفين لا يتغيران، هما حرف الروي وألف التأسيس.

لكن أبا البحر التزم به كافاً في قصيدة عدتها تسعة عشر بيتاً، يقول فيها:

خليلي حال البعد دون ثقاكما

فمن لي يا بني سألهم أن أراكما  
فوالله ما أن حال لما نأيتما

بعاد كما بيني وبين هواكما  
ولا حلت عما تعلمان من الوفا

ولا أنفت روعي بديلاً سواكما  
وددت لو أن الدهر أسعف إنني

نجرعت كأس الاحتف قبل ثواكما

٣- التزام حرف صحيح مع الروي:

والمظهر الثالث من مظاهر لزوم ما لا يلزم في شعر أبي البحر التزامه حرفاً صحيحاً مع الروي، ففي القصيدة التي تحمل الرقم (١٤٧) وعدة أبياتها اثنا عشر بيتاً نجده قد التزم اللام قبل التاء، والتاء تصلح أن تكون رويًا وحدها، لكن الشاعر التزم اللام قبلها في كل أبيات القصيدة، « وقد يلتزم الشاعر المدل ما لا يجب عليه؛ ثقة بنفسه، وشجاعة في نفسه ». (٣)

هذه كانت مظاهر اللزوم في شعر أبي البحر الشيخ جعفر الخطي.

### ثانياً: عيوب القافية:

ومما يتعلق بحديث القافية أيضاً ما يجب تجنبه فيها من عيوب احترز منها الشعراء، وعاب النقاد من خاتمه ملكته الشعرية فوقه فيها. وقد عثرنا أثناء قراءتنا لديوان أبي البحر على بعض من هذه العيوب نذكرها فيما يلي:

١- السناد وهو اختلاف ما يراعى قبل الروي من حروف أو حركات، وله خمسة أنواع:



أ- سناد التوجيه: وهو اختلاف حركة ما قبل الروي المقيد .  
وقد خلت قصائد أبي البحر المقيدة من سناد التوجيه، وجاء توجيهها  
حركة واحدة بدون تغيير، من ذلك قصيدته رقم (٩٢)، مطلعها:  
نصحت لله فلا تتهم  
وجئت بالحكمة يا ذا الحكم

#### والتوجيه في القصيدة كلها فتحة.

ب- سناد الحدو: وهو اختلاف حركة ما قبل الرفع، ولا يحدث إلا إذا جمع الشاعر بين نوعي الرفع  
(المد واللين)، والمد يسبق بحركة من جنسه، والواو تسبق بضمه، والياء تسبق بكسرة، أما اللين فيسبق  
بفتحة. وقد خلا شعر أبي البحر من سناد الحدو.

ج- سناد الإشباع: وهو اختلاف حركة الدخيل (وهو الحرف الصحيح الذي يقع بين حرف الروي وألف  
التأسيس) وقد خلا شعر أبي البحر من سناد الإشباع أيضاً، انظر القصائد والمقطوعات التالية (٢٤،  
٤٤، ٤٨، ١٢٢، ١٢٧، ١٤٢).

د- سناد الرفع: وهو الجمع بين بيت به ردف وآخر بلا ردف، والردف: حرف مد أو لين يكون قبل  
الروي.

ووقع هذا العيب في شعر أبي البحر مرتين، الأولى في قصيدته التي  
تحمل الرقم (١٧)، يقول فيها:

وذي نائل ما الغيث في ذاقع الصفا  
بأنقع يوماً منه تلامل الصدي  
متى تآته مسترفداً تلق مصدراً  
ركاب الغنى منه على إثر مورد

والأخرى في قصيدته رقم (٦٣)، حيث يقول:

يا صاح أنت المستشار لما عرا  
من حادث الأيام والمستنھض  
أشكو إليك صبا يعين على دمي  
برقاً تائق بعد وهن يومض

هـ - سناد التأسيس: وهو الجمع بين بيت مؤسس (به ألف التأسيس)  
وآخر مجرد منها.

من ذلك قول أبي البحر في القصيدة رقم (١٨)، وعدتها خمسة وثلاثون

بيتاً، أسس عدة أبيات فيها .

يقول في مطلعها :

ألا هل تجاوزت الخباء المحجبا  
بحيث ظباء الأنس تحجبها الضبا

ثم قال في البيت السادس :

تمادى فأبلى جدتي وخبا له  
ضرام الصبا أوكاد يخبو وما خبا

وكذلك أسس في البيت السادس عشر، والسابع عشر، والثاني والعشرين من القصيدة نفسها .

٢- الإيطاء:

ومن العيوب التي جاءت في شعر الخطي الإيطاء .

والإيطاء: تكرار القافية بلفظها ومعناها دون أن يفصل بين اللفظين سبعة أبيات على الأقل .

من ذلك قوله في القصيدة رقم (٢٦) :

أطعمتها قبلي الردى وثوأنني  
أنصفتها لم أبق بعد فداؤها

ثم قوله في البيت الذي يليه بلا فاصل :

وفدتني الدنيا بها وثوأنني  
ممن يوفق كنت بعض فداؤها

وقوله أيضاً في القصيدة رقم (١٧) :

لعمري والفضل يعزى لأهله  
لقد بخل الطائي جود محمد

ثم قال بعده بخمسة أبيات تقريباً :

كلا طرفيه حين تنسبه إلى  
علي وخير المرسلين محمد

وليس من الإيماء ما جاء في قصيدة أبي البحر رقم (٢٤)، حيث يقول فيها:

أغرّتم فحللتهم أوأصر بينكم  
لها مضر في سائف الدهر قاعد

ثم قوله في البيت الذي يليه بلا فاصل:

وأبكيتم جفن النبي محمد  
ليضحك كلب من أمية قاعد

فإن «قاعد» في البيت الأول هي في الأصل «عاهد»، وهو خطأ لعله طباعي.

٣- الإجازة: وهو اختلاف حرف الروي في قصيدة واحدة. ففي قصيدته الهمزية رقم (٣٦) التي مطلعها:

ما بال عينك لا تجود بمائها  
والنفس قد طويت على غمائها

وقع هذا العيب في البيت الخامس والثلاثين؛ حيث يقول:

لنعت على المعروف بيت قصيدة

ولسورة الاحسان آية أبها

<http://Archivebeta.Sakhr.it.com>

وختاماً

فإذا كانت هذه الدراسة قد حاولت الوقوف على مقومات البنية الإيقاعية في تجربة أبي البحر الشيخ جعفر الخطي، إلا أنها اقتصرّت لإبراز هذه البنية على محورين فقط (البحر والقافية).

وقد التزم الشاعر عمود الشعر العربي متمثلاً في توحيد القافية، والوقوف عند بحور الشعر الستة عشر، إلا أن شعره بما حواه من إبداع وابتداع في أشكاله ومضامينه وموسيقاه لحري بدراسات متعددة الجوانب.

(١) ديوان أبي البحر الشيخ جعفر الخطي، تحقيق: أنيسة المنصور و عبد الجليل العريض، نشر

مؤسسة جائزة البابطين للإبداع الشعري، ٢٠٠٢م.

(٢) تحرير التحرير لابن أبي الإصبع، ٥١٧.

(٣) خزنة الأدب للبغدادي، ٤٩/٨.



### الكاتبة الكندية أليس مونرو\*

### معشوقة كل من تقدّرهم!

ترجمة: حسين عيد \*\*

مقتطفات من كلمات أليس مونرو:

- «أعتقد أنني عرفت يا خلاص أنني سأغدو امرأة حرفة الغزل القصصي في شيخوختي»
- «احتوت قصص مونرو على ملاحظات على حياة الناس، التي كانت «مملة، بسيطة، مذهشة، ولا يمكن سبر غورها»
- «أعتقد أنني تزوّجت حتى أكون قادرة على الكتابة، وأن أستقر، وأن أركز اهتمامي على الأمر المهم»
- «في بعض الأحيان عندما أعود بذاكرتي إلى تلك السنوات الأولى، أعتقد أن ذلك كان فوذا متحجرا لامرأة شابة»
- «القصة أكثر شيها بيت، تدخله وتمكث فيه لفترة من الوقت، متجولا فيه جيئة وذهابا، مستقرا حيث تحب، مستكشفا كيفية ارتباط الحجرة والممرات مع بعضها البعض، وكيف تغير العالم الخارجي بالنظر إليه من خلال هذه النوافذ»
- «لم أعان أبدا من مشكلة العثور على مواد للكتابة. إنني أنتظر حتى تظهر وتبين. إنني أتعامل مع المادة التي أغرق فيها، وتطرح مشكلة»
- «إن لدي كل هذه الحقائق غير المترابطة في حياتي الخاصة، إنني أراها في حياة الآخرين. تلك كانت احدي المشكلات .. لماذا لم أستطع كتابة روايات، لأنني لم أر أبدا الأشياء مرتبطة معا بشكل جيد»

رسمت «هفزيه أندرسون» هذا البورتريه عن الكاتبة الكندية «أليس مونرو» بمناسبة حصولها على جائزة «مان بوكر» الدولية عام ٢٠٠٩، موضحة فيه أهم ملامح شخصيتها، مصورة كذلك تفاصيل عالمها الأدبي بكل أبعاده المختلفة.

اعتزّت أليس مونرو الكندية كاتبة القصة القصيرة لمدة أربعين عاما بالعديد من المعجبين المخلصين، والآن، فإن موهبتها الفريدة في أن تفضي بمكتون صدرها حول سكان بلدة صغيرة قد حققت لها واحدة من أعظم الجوائز الأدبية.

ينظر إلى أليس مونرو على نطاق واسع بوصفها واحدة من أفضل كاتبات القصة القصيرة في العالم.

\* نشر هذا المقال بجريدة «ذا أوبزرفر» بتاريخ الأحد ٣١ مايو ٢٠٠٩.

\*\* الفائزة بجائزة نوبل في الأدب هذا العام.

\*\* مترجم من مصر.

يضعها معجوبها مع «مارجريت أتوود»، و«جوناثان فرانزن»، الذي كتب عنها بشكل طيّب في مقارنة مع «شيوخوف». وهنا قد يبرز خطر أن يصبح ذلك بلا معنى، حتى يجري تذكر أن من كتب ذلك هي الكاتبة الأمريكية «سنثيا أوزيك». يجعلها كل ذلك من أسوأ المحتفظين بالأسرار الأدبية، لكن عندما أعلن عن فوزها بجائزة «مان بوكر»، بدا الأمر كما لو أنها قد أعيد اكتشافها.

ولدت «ألينس ليدلو» عام ١٩٣١، كبرى ثلاثة أطفال. ويعتبر كتاب «المشهد من كاسيل روك» نسجاً صريحاً من تاريخ عائلتها، كاشفاً إمكانية تتبعها لنسبها رجوعاً إلى اسكتلندا و«جيمس هوج»، صديق «روبرت بيرنز»، ومؤلف كتاب «الذكريات والاعترافات الخاصة لأثم مبرأة ساحته». عاشت جماعتها وسط الأجيال الحديثة في مقاطعة «هيرن»، وهي جزء من جنوب غرب «أونتاريو» من كندا مترامية الأطراف تعويضاً عن الغرب الأوسط الأمريكي. هناك ناضلت أم وأبو «مونرو»، المدرس السابق، كي يحافظ على مزرعة الثعالب وفراء الملك، التي تقع على مشارف «وينجهام»، البلدة المحلية التي تشبه تلك البلدات التي تملأ قصصها.

تزوجت بعد سنتين من تخرجها من الكلية، وأصبحت أمّاً في الحادية والعشرين من عمرها. انتقلت الأسرة إلى «فانكوفر» التي تقع على أبعد مدى دون مغادرة البلاد. وأنجبت ثلاثة أطفال على امتداد السنوات التالية.

كانت «مونرو» تكتب طوال هذا الوقت مختلصة ساعة من هنا أو هناك، عندما ينام الأطفال، أو أثناء طهي العشاء. ومثلما قالت في حوار ذات مرة، بأنه كان هناك عمل منزلي يتبني القيام به، فضلاً عن القراءة. كان من أوائل من تأثرت بهم «ايدورا والتي»، «فلانري أوكثور»، و«كارسون مكيلرز»، وكثيراً ما استشهدت بـ «ويليام ماكسويل» لتظهر حبها للأدب بوضوح.

بزغ إصرارها على الكتابة في مرحلة المراهقة، وحقت «مونرو» بدايتها من خلال برنامج إذاعي يدعى «مخترات»، أنتجه «روبرت ويفر»، الذي رعى مواهب أخرى مثل «موردخاي ريشلر» و«سافير جانت». وكانت «مونرو» تقدم بانتظام قصصاً إلى مجلة «ذا نيو يوركر» وتتلقى بالمقابل رفضاً مهذّباً بالقلم الرصاص على قصاصات ورقية. وقد لاحظت في حوارها مع مجلة «باريس ريفيو» كثرة غزلها القصصي في شيوخوتها المبكرة: «أعتقد أنني عرفت بإخلاص أنني سأغدو امرأة حرفتها الغزل القصصي في شيوخوتي» أوضحت ذلك بإدراكها المحدد السموع من خلال تشكيلة أسئلة وأجوبة الحوار غير المزيّنة بعناية.

ألقي الكساد بظلاله على سنواتها الأولى، وكانت أصغر من أن تستفيد من فترات ازدهار القرن العشرين الثقافية. وبحلول الوقت الذي هزّ فيه «الفيس» جميع المراهقين، كانت قد أصبحت زوجة وأمّاً. وبعد أن دخلت إلى الثلاثينات، تفتحت قدرة زهرة، وهي تقترب من الأربعين مع كتاب يحمل اسمها وذلك بحلول الوقت الذي دخلت فيه الحركة النسائية ذروة نشاطها.

نشرت مجموعتها القصصية الأولى «رقص مع الظلال السعيدة» عام ١٩٦٨، التي تكونت من قصص مكتوبة على مدى فترة ١٥ عاماً، فازت بجائزة «الحاكم العام» المعتبرة. تبعتها مجموعة «حيوات بنات ونساء» التي نشرت عام ١٩٧١، واعتبرت رواية - هي الوحيدة بالنسبة لها - عرضت فيها بورتريها

قصصيا لفترة مراهقتها، واحتوت ملاحظات على حياة الناس، التي كانت «مملة، بسيطة، مدهشة، ولا يمكن سبر غورها .. كهوف عميقة عبّدت بمشمع مطبخ». كانت قد وجدت عالمها.

وعلى الرغم من أنها كتبت عن الرجل قصصا لا تنسى - هناك أبطال مدمنو براندي، غير محتشمين في مجموعتها الأخيرة - فإنّ الحيوانات التي تكتب عنها دائما هي من النساء. وهي تدين لأمها كتيّج رئيسي لعملها، حتى أصبحت على مدار ١١ مجموعة قصصية واحدة من أدقّ المؤرخين للحياة الجنسية لأنثى مواجهة للأسرار المثيرة بأسلوب يضفي عليها قوّة إضافية. وكما لاحظت «مارجريت أتوود»: «إنّ مونرو تدفع الحدود الجنسية بشكل محدد مثير بالنسبة لعدد من سيدات قصصها، لكن لكي تنتهك حرمتها فلا بد أن تعرف بالضبط أين يوجد السياج، ويمرّ عالم مونرو بحدود محددة بدقة. تعتبر الأيدي، الكراسي، الالتفاتات، كلها جزءا من خريطة داخلية معقدة تتناثر فيها أسلاك شائكة، وشراك خداعية، وممرات سرّية عبر الشجيرات»

بعد عشرين عاما انفصلت مونرو وزوجها، ويمضي الوقت بعد ٢٣ عاما، رجعت من جديد إلى «هيرون»، رغم أنها في الحقيقة نادرا ما غادرت.

«أعتقد أنني تزوجت حتى أكون قادرة على الكتابة، وأن أستقر، وأن أركّز اهتمامي على الأمر المهم». قالت، ثم استطرذت:

«في بعض الأحيان عندما أعود بذاكرتي إلى تلك السنوات الأولى، أعتقد أنّ ذلك كان فؤادا متحجرا لامرأة شابة»

تكمّن صلابة مماثلة في تصميم كتابتها، وهي واحدة من أكثر صفاتها طلبا. ومثلما تقول «أليسون صامويل» محررتها لفترة طويلة في دار «شاتو & ويندوس» المملكة المتحدة: «هناك كتلة من معدن نفيس صلب داخل قصصها .. شيء ذكوري حقا»

كان زوجها الثاني جغرافيا متقاعدا، وكان يخصّها فهمه لمجموعة ملاحق المنطقة كاملة. التقيا في الكلية، حيث كان أكبر سنا، ولم يلاحظها، حتى عندما قدّمت قصة لمجلة كان يعمل بها. وقد كتب فعلا خطابا لها حول إحدى قصصها بعد سنوات قليلة - كانت تلك أول رسالة لها من مشجعي البريد، لكنها كانت تأمل في نوع مختلف من الانتباه. وفي وقت لاحق، بعد عدّة عقود، عاودا الاتصال، والتقى بسبب أمر مطلق، ومع ثلاثة كؤوس مارتيني وسط الطعام، إذا بهما مع نهاية فترة ما بعد الظهيرة تلك كانا قد استقرا على أنهما ينبغي أن يرتبطا معا. وأصبحا يعيشان على بعد عشرة أميال من منزل طفولتها.

إنها تمتلك كمّالا محددا لنوع معيّن من الكتابة الإقليمية، التي تسخر منها الأكاديمية السويدية. نعم، كما لاحظ «علي سميث»، وهو يكتب مراجعة لمجموعتها القصصية التاسعة «الهارب»: «تمثّل قصص مونرو ما يمكن وصفه فتحطّ بأنّه نوع من السحر. بقراءتها تستشعر ما هو على وشك أن يحدث، ليس بشكل واضح بل لأنك أصبحت متواطئا مع كلّ من القصة ونتائجها .. لقد عايشت واقعا محليا مع شخصياتها. بين يدي مونرو فإنّ هذا النوع من التركيز هو ما يعنيه السرد، والسرد في أقصى قصصها كتابة يعتبر فعلا باعثا على الأمل»

يحدث الكثير في قصص مونرو. نثرها دقيق، لا يتزعزع، هادئ، محلل لانتقام حسود، وجرائم كئيبة،



وعواطف مروعة. مثلما تنكس جبهات شخصياتها الجريئة المجازفة مخفية طبائعها، لذلك يسهب سطح كتابتها الممتد في عرض مخاطر جسورة حين يتعلق الأمر بالشكل والزمن. إن لديها، ما يدعوه «دانييل مناكر» محررها لسنوات في مجلة «ذا نيو يوركر»: «مكر حساسية ما بعد الحداثة». إنها تكتب بالطريقة التي يحكي بها الناس، خاصة النساء، قصص حياتهم الفعلية، وكيف تحدث تلك القصص التي شكلتها استبعادات وإبتكارات، لذلك يتضارب كل نص ويتصارع مع النص التالي، لتشكيل واقع خاص. كقارئة، فإنها تأخذ برضا نهجا متعجرفا بالنسبة للكتب، حين تتخذ طريقا عاجلاً عبر السرد، بادئة أحيانا من النهاية، ومع قراءتها الأولية لرواية «الأخوة كارامازوف» تتخلى أقساما بكاملها.

كتبت: «إن القصة ليست مثل طريق ينبغي اتباعه».

ثم استمرت: «إنها أكثر شبيها ببيت، تدخله وتمكث فيه لفترة من الوقت، متجولا فيه جيئة وذهابا، مستقرا حيث تحب، مستكشفا كيفية ارتباط الحجرة والممرات مع بعضها البعض، وكيف تغير العالم الخارجي بالنظر إليه من خلال هذه النوافذ».

تعتبر مجموعتها الجديدة، المقرر أن تصدر في خريف هذا العام، الأكثر قتامة. تدور محتوياتها حول إغواء مهين، وعلاقة حميمة خطرة، وغيرة قاتلة. عنوانها هو «كثير جدا من السعادة».

شيدت مونرو عالما بشكل حصري تقريبا من القصة القصيرة، وإن نمت قصصها تدريجيا في الطول (طول أقصر قصة في مجموعتها القادمة أكثر من ٧٠٠٠ كلمة)، ومازالت هناك رواية واحدة كاملة الطول. وكما أشار «صامويل شاتو» بأن كتابة مونرو مصاغة بشكل رائع، وأنها ترتفع أعلى بكثير من المناقشات المدبرة بعناية بشأن شكل قصصها ومستقبلها. يمكن القول بأنها صنعت القصة القصيرة خاصتها، وأعادت انعاشها بشكل ما وإن كانت قصيرة، فقد أعادت إبداعها.

أحرزت في المقابلات التي أجرتها ما تريد رغم سداحتها، ويرجع نجاحها إلى توحد صلب (تستغرق كتابة كل قصة في المتوسط ما بين ستة وثمانية أشهر بادئة بخريشات في دفتر كتابة، ثم ماضية عبر مسودات عديدة قبل أن تريها لأي فرد). إن الاستماع إلى حديثها بصوتها الناعم المنبثق من أيقاع اللغات السلطانية الهندية والأوروبية بلهجة كندية، وقد تأطرت ملامحها الجميلة بشعر فضي مجعد، يجعلك تثق بها تقريبا.

إنها تحافظ على الأسلوب الذي تعيش به حياتها الإبداعية، الذي لا ينبغي أن ينصرف إلى جائزة «مان بوكر» المستترة (فقط الروايات هي المؤهلة، على الرغم من إصرار المحكمة «كلير تومالين» بأن رواية «الخدمة الشحاذة» قد أدرجت على القائمة القصيرة للبوكر عام ١٩٨٠)، لكن ها هي تحصل على الجائزة الأحدث «مان بوكر العالمية».

ومن المناسب تماما أن تصبح هذه الجائزة جائزة ذات أهمية أكثر، مظهرة كفاءة أكثر من أي وقت كبدل لنويل. ينبغي أن يعني فوز «مونرو» أن هؤلاء القراء الذين اكتشفوها للمرة الأولى، لم يكتشفوها فقط لكونها كاتبة كبيرة للقصة القصيرة، بل لكونها كاتبة عظيمة أيضا.

## حقائق مجردة

### - المولد

ولدت «أليس ليدلو» في ١٠ يوليو ١٩٢١. تزوجت من «جيمس مونرو» لمدة عشرين عاما. أنجبت ثلاث بنات، نشرت أكبرهن «شيل» كتاب مذكرات بعنوان «أمهات وبنات: نشأة مع أليس مونرو». طلقت عام ١٩٧٢، تزوجت «جيرالد فريملين» عام ١٩٧٦.

### - أفضل أوقاتها

فوزها بـ ٦٠٠٠٠ جنيه استرليني لجائزة «مان بوكر الدولية» عام ٢٠٠٩.

### - أسوأ أوقاتها

حين أصبحت في عام ١٩٨٠ كاتبة مقيمة في جامعة بولاية «كوينزلاند» بأستراليا، وقدموا لها مكتباً رسمياً خيالياً خاصاً بالفن كي تعمل به، فجلست هناك وراحت تفكر وتفكر لكنها لم تستطع أن تكتب شيئاً.

### - ما تقولها:

«لم أمان أبداً من مشكلة العثور على مواد للكتابة. إنني أنتظر حتى تظهر وتبين. أنني أتعامل مع المادة التي أفرق فيها، وتطرح مشكلة»

«أنّ لديّ كلّ هذه الحقائق غير المترابطة في حياتي الخاصة، إنني أراها في حياة الآخرين. تلك كانت إحدى المشكلات .. لماذا لم أستطع كتابة روايات، لأنني لم أبدأ الأشياء مرتبطة معاً بشكل جيّد»

### - ماذا يقولون:

«على أي كاتب أن يحدّق بدهشة، لأنّ عملها دقيق للغاية ومحدد. إنّ أفكارها حول كلّ موضوع شديدة التركيز»

«جين سمالي»: محكم جائزة «مان بوكر الدولية»

«إنها تكتب روايات مصغرة»

تشارلس ماكرات: المحرر الأدبي السابق لجريدة «نيويورك تايمز»

### مجموعة « في قعر أمنية » ل: هبة بو خمسين حياة مشحونة بالشجن

بقلم: السيد حافظ \*

هبة بو خمسين .. تذكرنا هذا الاسم جيداً .. إنها موهبة متميزة ولدت في أحضان الإبداع الخليجي والكويتي .. أخاف عليها أن تضيق وأن تظلم مثلما ظلمت موهبة من جيل سابق هي الكاتبة فاطمة يوسف العلي التي ظلمت موهبتها وخيم الصمت على الجميع أو حدث شبه مؤامرة على هبة .  
إن هبة بو خمسين تعلن عن ميلاد موهبة متميزة جديدة .. لا تجيد الدعاية لنفسها أو قيامها بالترويج لقصصها .. خمسين لا تتقلد مركزاً حكومياً مرموقاً فالوظائف الحكومية عادة ما تدعم الأديب أو الأديبة . أن معظم النقاد يتولون أعمال المسؤولين بالنقد تقريبا وتحسبا .. والنقطة المهمة والهامة إن هبة بو خمسين لا تلهث وراء الموضة والتقليد لبناء القصص التي تحدث أحيانا كصرعة من صرعات العصر ..  
وهبة بوخمسين « اكتشفت إن المادة السردية أرضا جديدة وجديرة بالاكشاف و الارتجال والمغامرة بحثا عن الهدف والكلمة والمضمون الذي يحمل الدراما الإنسانية وتقنياتها المتعددة الدالة على تطور الوعي الإنساني وإدراكه لمفهوم الشكل الذي يقول لا الشكل المغلق على نفسه بأسوار جديدة » ( ١ ) .  
هبة بو خمسين في مجموعتها الأولى ( في قعر الأمنية ) التي تحتوي على ٢٠ قصة قسمتها إلى ثلاثة أجزاء . الجزء الأول بعنوان ( على ضفاف الحياة نلتقي ) وتحتوي على القصص الآتية ( وجاءت في المنام صبا . يوم ميلادي . التوقيع بالبركات الشيخ . ولديك الأسود حكاية . في الغرفة البيضاء . لايد أن يجيء ) أما المجموعة الثانية وتحتوي على ٨ قصص فاسمها ( للقلب همس يسمح وفتيل يشتعل ) وتحتوي على مجموعة قصص هي ( باسم الحب . صدفة ذات يوم . لحظة من عمر الزمن . مصيري في لقاء - مرة أخرى . سطر . أو أن الرحيل . عودة مريدة ) .

أمام المجموعة الثالثة تحتوي على قصص ( إلى عالم مسالم - في قعر أمنية والقصص مفتترة . نرين ذكرى . ملح دموعنا . رسائل شرق . قصص قصيرة جدا ) أي أن المجموع ٢٠ قصة .  
إن هبة بو خمسين مفعمة بالحزن والشجن والإحباط الداخلي ولديها حساسية مفرطة ورغبة في فتح أفق يستملح القارئ أن يشعر بوجود الحياة المشحونة بالشجن .. إنها كتلة مشاعر صادقة تبحث عن نفسها في القصة وعن المعادل الموضوعي الفني الخفي لتكون هي القصة والقصة هي . وهذا لا يعني غيابها .  
إن هبة بو خمسين تأخذ من الحياة وتحمل تجربة إنسانية متميزة وهي لا تسخ الحياة وإنما تنظر إليها بعين الفنانة والكاتبة، ترددت كثيراً أن أكتب عن كاتبة جديدة في أول كتاب لها ، ترددت .. لماذا لا أكتب عن أدباء الخليج ، ربما للحساسية التي أطلقها أدباء اليسار العربي أن أدباء النفط أكثر حظوة عند النقاد وأن النفط سيجعلهم في مكان الصدارة الأدبية ثقافيا وتجملا وإن من يكتب عنهم سيكون متهمًا بتهمة المال والبحث عن المال ورغم وعي بأن أدباء وشعراء الخليج معظمهم فقراء ترددت في الكتابة عنهم وأنا رجل على مشارف الستين من العمر .. أدركت من خلال مراجعتي لنفسني أن كثيراً منهم موهوب بالفعل ويستحق الكتابة عنهم ولا يهمني النفط ولا لعنة النفط التي امتدت إلى أدباء الخليج مثل لعنة الفراعنة التي اعتقد أنها ليست الموت .. ولكن لعنة الفراعنة في رأيي هي إن المصريين لا يحترمون الأديب إلا بعد موته . بينون له المعابد والمقابر والحكايات والكتب . ولعنة النفط أن الأديب الموهوب في الخليج متجاهل بالصمت .

\* كاتب من مصر .



من لا يعرف هبة بو خمسين .. ولماذا تكتب ؟

هبة بو خمسين من جيل التسعينات من أدباء الكويت وهي أديبة مثقلة بعبء العشق للقلم والكتابة وهابي تعري مشاعرها أمامنا وتعترف (أشعر بتزاحم الكلمات في داخلي، الأفكار تتسابق في ذهني، فلا أكاد أجاري أحدهما .. تسبقني أو يبقها على إيقاع موسيقي هادئة تتسلل إلى أعماق روحي يجهدني شعور الفجر عن إطلاق الفنان لقلمي بكل هذا الزخم المحبوس في قلبي وعقلي .. أمسك القلم تراودني مشاهد مختلفة ) ثم عندما تشعر برغبة في التعديل أو الشطب أو لا إضافة أو تمزق الورقة .. ثم هابي تقول الحقيقة المخيلة ( تدور الأحداث في مخيلتي .. أكاد أطير إلى عالم مختلف .. أقمص الأدوار .. أبتسم .. أحزن .. أحب .. أذوب يمكنني أن أكون كل شيء وأي شيء ) ..

عندما اكتشفت هبة بو خمسين عبر موقع القصة العربية على الانترنت .. شعرت بالسعادة بهذه الموهبة وقالت أنا تلميذتك أنتي تربيت على مسرحياتك للأطفال في الكويت والتي طالما داعبت مخيلتي شعرت بأنني كاتبة من طراز آخر .. إنها تحمل الوفاء والنقاء وصدق التجربة ..

صدر كتاب هبة بو خمسين عن دار قرطاس للنشر في الكويت وتناول هذه المجموعة التي قسمتها إلى ثلاثة أجزاء .. وسأتكلم هنا عن الجزء الأول باسم ( على ضفاف الحياة نلتقي - وجاءت في المنام صبا ) .. نحن أمام أنثى لها أخت تدعي صبا تواتمها ماتت منذ ثلاث سنوات وقد أثرت هذه الوفاة على الأسرة فالأم مريضة في المستشفى إثر عامل نفسي .. وحمد الأخ سافر إلى أمريكا هروبا .. ماتت صبا إثر حادث وحمد كان السبب كان يجري خلفها في حديقة المنزل فتعثرت وسقطت في الحديقة وماتت أمام الجميع .. إن حمد يحمل ذنب الوفاة لأن أمه قالت له أنت السبب .. لكنه القدر والام أحست بالذنب فأخذت تعتذر له .. والام دخلت مستشفى الأمراض النفسية .. إن صبا هنا الضمير رمز الحب .. لقد جاءت صبا بعد موتها لتحتضن العائلة لتعود إلى الحياة لكن الأم ماتت .. القصة لحظة تراجمية مكثفة على القارئ .

أما قصة يوم ميلادي .. هي دقائق وسرد ليوم الميلاد بأسلوب ثيار الوعي .. فالراوي يتحول من رواية محايدة إلى الرواية العلمية بكل شيء ويتحول الرؤية من الخارج إلى الرؤية من الخلف ( وتقوم الرواية بتوعية القارئ وإرشاده (١) ) إن هذه القصة حائلة من حالات ثيار الوعي (٢) .

أما قصة التوقيع .. قصة صابرين تلك الموظفة التي عاشت سبع سنوات في الوظيفة تحلم بالترقية وأن ترتفع فيسلم درجان العمل .. تحلم بمكتب جديد .. وإنها ستصبح رئيسة قسم .. إن الجميع يشفق عليها .. إنها تلهث وراء المنصب وحلمت بمنصب رئيسة القسم كانت تنتظر توقيع استلام العمل « عطرها صارخ بالجميع .. أنا هنا .. تحملت كأنها ستوقف كل من يمر بها واجتمع المدير بالجميع .. كانت تنتظر القرار وهو يتحدث ويرغي ويزيد ثم أمرهم المدير بالعودة إلى مكاتبهم ثم تذكر وصاح صابرين رتي مع السكرتيرة إلى إرسال توقيعك للاعتماد فسوف تقومين بالتوقيع مؤقتا على معاملات العمالة الوافدة .. أبتسمت كالبلهاء بكل ما هو مطلوب منها التوقيع على معاملات من المراجعين بدلا من المسؤولين للتخفيف عنهم .. إن هذه القصة لحظة صدمة لطموحات صغار الموظفين تلك اللحظات التي يعيش الكتاب أن يتناولوها في الإنسان البسيط .

أما قصة بركات الشيخ .. فهي من القصص المتميزة في الحكمة والبناء والهدف وهي تنتمي إلى مدرسة الواقعية التقدمية أو التحليلية .. تلك المدرسة التي ظهرت في الستينات وهذا يدل على أن هبة بو خمسين أسست ثقافتها على أسس سليمة فالبطلة هنا تبحث عن الإنجاب بعد أربع سنوات من الزواج فتقترح عليها أمها الذهاب للشيخ بركات عبد الرازق .. وهذا الأيمان بالسحر والأعمال والتذوق جزء من تركيبة العقلية العربية وبطلة القصة شعرت باليأس والإحباط فهزمت للشيخ الذي كاد يلتهم جسدها .. قامت بكل الفحوصات الطبية والكل أجمع على سلامتها وكذا قال زوجها بأنه سليم معافى وقتما بمشيئة الله حتى أن زوجها ذاته لم يكن ليلج على هذا الموضوع .

وتكررت زيارتها للشيخ وطالت زيارتها له في الأسابيع الأخيرة وكانت أطول من سابقاتها ولا تذكر منها

شيئا .. تخرج من بيت الشيخ متألة متمزقة الأفخاذ . ألم في ظهرها .. في أسفل الظهر وصداع يأكل رأسها .. شكت أن الشيخ يوسعها ضربا قبل أن تغادره وحضر زوجها ذات يوم وسقطت بين ذراعية مغشيا عليها .. استفاقت في المستشفى علأ صوت الطليبية مبروك أنت حامل .. قالت الأم بركات الشيخ عبد الرازق .. صرخ الزوج كيف تكون حاملا وأنا عقيم لا شفاء لي إلا هذه القصة صفعه .. إنها الصدمة .. إن ولع الناس بالحياة والعلوم الخفية والسحر قد تؤدي إلى كوارث وهذا الاعتقاد كان سائدا في القرن السابع عشر .. أما عند القرن الثامن عشر ظهر عصر النور الذي سيعيد الاعتقاد بالسحر والسحرة وتسلب الشياطين على عقول الناس (٣) وفي نفس السياق تجري قصة ولديك الأسود حكاية .. حيث إن الجيران في حفل عرس يتشائمون من الديك الأسود ذي العرف ويذبحونه ويلقون به في البحر حتى يذهب السحر وعند الاحتفال بالعرس تكتشف أم العروس أن جارقتها أم أحمد تأخرت بسبب أن ابنها الصغير الذي فقد ديكه الأسود جسوم..!!

بين قصة بركات الشيخ والديك الأسود حكاية رابط خفي وجوهري موضوع السحر والشعوذة ونحن الآن مع قصتين (في الغرفة البيضاء) (و) لابد أن يحيي .. في القصة الأولى سرد لزوج حرقها زوجها الذي دمرت حياته .. ودمر زوجته وفي النهاية قد دخلت المستشفى في غرفة بيضاء وفي قصة ( لابد أن يحيي ) تبدأ القصة على زوجة في المستشفى أمام الدكتور المعطف الأبيض .. إن البطلة داخل مستشفى الأمراض النفسية .. نرى أن صوت بطلة القصة في مونولوج داخلي تتحدث عن رغبتها وضعفها الإنساني فهي عندما تواجه الدكتور ( أرادت الاختباء ما بين مقلتيه .. كنت كملقة نزقة يسيل لعابها عند النظر إلى قطعة حلوى ) « لأول مرة أرى وجهها شاحبا بهذا الجمال »

اطراوة بدد ألي .. وضعكته خلقت بي إلى جنة تغذي بجمالها خيالي مذ وعيت على دائرة الدنيا » وأعتقد أن هذه القصة مرتعشة في التواصل مع القارئ.

إن هبة بو خمسين تنتمي إلى تيار الوعي لأنها تهتم بالإنسان من الداخل والصدق الفني في التعبير عن ذلك العالم الخفي في الإنسان بدلا من إضاعة الوقت والجهد في وصف الحياة من الخارج . وهي تستبطن نفس أبطالها والتعبير عن أثر هذه الحياة فيهم .

سأكتفي هنا بالحديث عن الجزء الأول في المجموعة القصصية الثرية للكاتبة هبة بو خمسين .. هي كاتبة مبشرة بالكثير .. إنها تخطو نحو مستقبل الكتابة يخطى وأتقة تحتاج منها إلى شجاعتها في اقتحام الصعب والخصوصية والبحث عن لغتها المتميزة . وكما نحن في احتياج إلى مواهب متميزة في القصة القصيرة والرواية والشعر والفن التشكيلي .

نحن في احتياج إلى نهوض أمه واستمرارها ....

#### المراجع :

- (١) محمد السيد قطب. كتاب منطق السرد عام ٢٠٠٤ وزارة الثقافة المصرية.
- (٢) محمود الحسيني. تيار الوعي في الرواية المصرية المعاصرة. عدد ٥٩. وزارة الثقافة ١٩٩٧ .
- (٣) يحيى زهار- كتاب عالم غير منظور خارج القواعد العلمية، يحيى زهار كتاب عالم غير منظور خارج القواعد العلمية ذكرى. ملح دموعنا.

## هزيم الزجاج مسرحية مونودراما بقلم: روان إبراهيم الجسمي\*

يسود الظلام أركان المسرح بينما تتعالى أصوات خطوات رقيقة تقطع المسرح لتستقر في منتصفه ، تمر لحظة من السكون تخللها صوت ضغطة زر يتبعه فجوة أخرى من السكون ثم زفير رقيق...  
يضاء منتصف المسرح ببقعة من الضوء على شكل دائرة ذات لون قرمزي ، فور انطلاق موسيقى خافته لبيتهوفن فيكشف الضوء عن فتاة في مقتبل العمر تقف وقفة استعداد لتؤدي رقصة للباليه ، ترتدي فستان باليه ناصع البياض شديد البريق أثر تركيب مجموعة كبيرة من قطع الزجاج الصغيرة ، يمتد الفستان إلى ركبتيها و على ظهرها جناحا فراشة طويلا ن يعلوها الكثير من اللمعة، بينما صنع كل شيء في المسرح من زجاج الشفاف و على أحد الجوانب ساعة زجاجية كبيرة قرمزية اللون و الطرف الآخر مرآة مستطيلة ذات أطراف حادة و خلفها خزانة خشبية مهترئة جار عليها الزمن... بالقرب من المرآة صندوق زجاجي صغير...

و في أعلى المسرح ثلاث شاشات تلفزيونية كبيرة...

الأولى تركز على وجه الفتاة...

الثانية تركز على يديها...

و الأخيرة تركز على المسرح ككل...

انتظرت الفتاة عدة لحظات حتى تحين اللحظة الحاسمة لبدء عرضها...

احتلت ملامح الجدية وجهها حتى تنهيا نفسيا لاقترب تلك اللحظة، أخذت نفساً عميقاً ثم رفعت رأسها واستدارت بكل احتراف، و فور وقوع عينها على الجمهور أصابها الجمود...

وقفت بكل سكون تحديق إليهم و كأن الوقت قد توقف...

تحديق إليهم و كأنها تحديق إلى شبح أحد ما...

شبح شخص لا تكن له أي ذرة من المحبة...

تأففت ، و أخذت تحديق إلى الأرض بدورها و الخيبة تعلوها وأخذت تهمس محدثة نفسها بههمة غير مفهومة..

(يا لشدة ألمي عندما يسمع أحد بجانب لي لصوت ناي لا أستطيع أنا سماعه، أو يسمع آخر غناء أحد الرعاة بينما أنا لا أسمع شيئاً، كل هذا كاد يدفعني إلى اليأس، وكدت أضع حداً لحياتي اليائسة، إلا أن الفن وحده هو الذي منعتني من ذلك... وبالرغم من اليأس الذي أصابه في أوقات عديدة، وكاد يصل به للانتحار، إلا أنه قاوم ووجه طاقته كلها للإبداع الفني...)

توجهت إلى جهاز التسجيل و أغلقتة ثم أضافت:

(لماذا يظل غول تلك الأفكار السلبية يجتاح عقلي كغزو غاشم يطمح أوصال الأمل و يتركني وحيدة عارية

\*كاتبة من الكويت.



من كل سبل الحياة ، فأعيش في دنيا مليئة بالهواجس ، أشباح تلك الخطايا تطاردني... لا أستطيع أن أتغلب على يأس من حياتي... لا أستطيع أن أوجه طاقاتي... لا يستطيع الفن أن ينقذني ).  
تستدير ثم تنظر بحدة إلى الجمهور و تضيف :  
(أعين)

استدارت بسرعة لتعطي الجمهور ظهرها ثم أضافت و هي تضع يدها على وجهها :  
(أعين متشمة... تمنى سقوطي... تمنى أن ترى انكساري ، لا أعلم كيف يعيش الناس في هذا العالم..  
الجميع محاصر بالعدو و الخيانة... الكل يهدد بالرحيل... الكل يضع قناعاً يمثل الحب و الود... فتن  
في زمن يملؤه الكذب... لدرجة أن هناك لعبة اسمها الصراحة...)  
ترفع رأسها تحديق إلى الجمهور تكمل و كأنها تقصدهم شخصياً...  
(يا لهم من مقنعين سفهاء ، شياطين خرس..  
فهذا هو عالمنا ، عالم الأفتعة ، وإن لن نتقن فن النفاق فلابد من إنك فاشل..  
عالم الأفتعة...)

عالم الواقع يسمونه و لا يمس الواقع من أكاذيبهم ، تسمع عن ثورات تلك الدول و تسمع عن انتخابات  
تلك ، ترى مقتل هؤلاء و تسمع عن احتضانات البعض ، هذا يبتسم إلى ذلك و هؤلاء يتعجبون في فخ هذا ،  
تحاول أن تركز تحاول أن تختار جانباً حتى إذا سُئلت في صف من أنت تجيبهم و كأنه يوم الحساب و هم  
من سيطلع على جيبك ، ليست القضية في صف من أنت ، ليست القضية من أي طائفة أنت ، ليست  
القضية من أي ديانة أنت.. القضية هي أنك روح بشرية تكره الذل و المهانة أنانية ، تعشق الأنانية ، ومهما  
اخترت من الصفوف و الجوانب ظلت روحك أنانية..  
لأنك تتابع مجازرو و آلام...  
صرخات و دموع..  
ليس لأنك تريد أن تقدم لهم ما بإمكانك تقديمه..  
لكن..

فقط حتى تختار جانباً و صفاً ، تقف فتجادل فتكون من على مرأى الناس أنك الأعلم و الأسبق بالعلم  
و المعرفة تقول بما لا تشعر...  
تشعر بما لا تقول..

تجعل روحك الأنانية تمتص كل ما تريد أن تمتص ، كل ما يكفي من النشرات الإخبارية فتتملئ جعبتك  
بحديث الغد و نهاية لجدال اليوم فتخلد إلى النوم بأحلام من الريش تنتظر الغد للمزيد من الروتين  
المتفق عليه !

فهل هو الإنسان بطبعه أناني ؟!  
(أم أنه مجرد أنت ؟)  
أخذت نفساً عميقاً ثم قالت بصوت مهزوز :

(علي أن أسترخي قليلاً... علي أن أبتعد عن هذا الجهد النفسي الذي سيقودني إلى الجنون... علي  
أن أبتعد عن ترهات هذا الواقع..

علي أن أجد ما يسمى ب... السعادة الداخلية... آآآ... أية سعادة أتحدث عنها...  
لقد مضى الكثير من الوقت منذ ما شعرت بتلك القشعريرة التي تسري في جسدك عندما ينتفض قلبك  
في صدرك من شدة الضحك...  
آآآ ، لقسوة أيامي التي أخذت مني كل ما أحب...

أمي...  
أبي...)

تجتاحتها لحظة سكون ثم تتجه إلى الطرف الآخر من المسرح الذي أضيء في ألحان كاشفاً عن بيانو كبير أسود اللون...

جلست الفتاة على المقعد دون أن تحدث ضجة كثيرة، بدأت بالضغط على مفاتيح (دو) عدة مرات بينهم فترة زمنية قصيرة لكن ثابتة...

حاولت أن تسترخي لكنها سرعان ما تلوذ بالفشل فتقوم بالضغط على مجموعة من مفاتيح البيانو مصدرة ضجة عالية...

ثم وقفت و اتجهت إلى مرآة في طرف المسرح القريب من الجمهور و أخذت تحديق إلى نفسها لوهلة ، ثم قامت بتمزيق الجناحين و رمتهما على الأرض و هي تقول بصوت مملوء بالبكاء:

(أشعر باحتياق يقتلع قلبي، بغصة تتحشرج في مؤخرة فمي ، هم ثقيل يزعزع استقرار روحي ، أشعر بكل شيء ينهار).

تعود لتجلس على البيانو مرة أخرى و هي تحاول ألا تفقد السيطرة على سليل الأحاسيس التي يحتل كيانها...

تحديق إلى النوتة الموسيقية الموضوعة...

تحاول أن تبدأ عزف المقطوعة لكنها تظل تخطئ المقطع الأول... فتحدق إلى أصابعها و كأنها تلومهم على عدم تركيزها...

تأفف و تصرخ:

(سحقاً)...

تتجه إلى الخزانة و تبدل قصارى جهدها حتى تصل إلى قمتها فتمد يدها و تسحب ملفاً قديماً مملوءاً بالغبار...

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

حدقت إليه للحظة ثم همست:

(لن أجد أكثر من مقطوعات (تشايكوفسكي) حتى تساعدني الاسترخاء و التخلص من التوتر...)  
تفخ الغبار عن الملف ليتناثر على أرضية المسرح ثم تكمل:

(وصفت شايوفسكي بأنه مؤلف الموسيقى التي يغلب عليها الحزن...

أليس الحزن هو ما يدفع الإنسان للإبداع...)

تجلس على الأرض و تسند ظهرها على الخزانة ثم تهمس مخاطبة البيانو:  
(بحيرة البجع...)

تهرع لتجلس على البيانو... و تهمس و هي تعزف المقطوعة بلا أخطاء...

(تقول الرواية أن حفلاً أقيم في الذكرى ٢١ ليلاد الأمير سيجفرايد حيث يحتفل بهذه المناسبة في حديقة قصره الذي ورثه عن عائلته ويشاركه في هذه المناسبة عدد من شباب المناطق المجاورة الذين جاؤوا والتحيته وتهنئته وكان الأمير متواضعاً وسيماً خير متعجرف، ولا يتخطى حدود اللياقة، وتبدو عليه السعادة لرؤية أصدقائه وفجأة تدخل الأميرة الأم مما يعكر صفو الحفل ويتوقف المرح، وتبدي غضبها من هؤلاء الأصدقاء حوله، ويحاول من جانب آخر إخفاء زجاجات الخمر ولكن الأم تشير إلى ابنها موضحة أن المرحلة المقبلة من حياته يجب أن تختلف عن هذا العبث، وأن عليه أن يختار عروساً له من الآن، وتقترح عليه في صيغة أمر أن يختار زوجة المستقبل من بين أجمل الفتيات الموجودات الراقيات في احتفال الغد،

وعندما خيم الليل و يحاول الأمير الابتعاد عن هذه الأمسية التي تعدها الأم فيسمع صوت أجنحة ترفرف فوق رأسه، فيرفع ناظره ليرى سرياً كاملاً من البجع البري الجميل في السماء ويصاب بالدهشة عندما يرى أن البجع قد استقر على البحيرة الموجودة على بعد عدة أقدام قليلة، وحيث يوجد هناك طائر أبيض جميل يقود مجموعة البجع، وتبدو البحيرة وكأنها مملكتها فيرى الأمير شيئاً عن بعد يجعله يتوقف على مقربة من جانب البحيرة، ثم يتراجع مسرعاً عبر الأرض والفضاء ليخفي نفسه، فقد رأى شيئاً شديداً الغريبة لدرجة أنه ظل يراقبه عن كثب سرّاً فقد وقعت عيناه على أجمل فتاة رآها من قبل ولا يستطيع أن يصدق عينيه، فالفتاة تبدو وكأنها بجعة و فتاة في نفس الوقت، فوجهها الجميل محاط بريش البجع الأبيض اللصق بشعرها تماماً، وتعتقد الفتاة الشابة أنها بمفردها، ويتبهر الأمير بهذا المخلوق الساحر الجميل، مما يدفع به لدخول الأرض الفضاء متحركاً يهدوء خشية أن يسبب لها إزعاجاً، تصاب الفتاة الجميلة بالذعر، بينما يرجوها الأمير ألا تبعد، فقد وقع في غرامها وأعجب بها وأحبها، وعليها ألا تلير بعيداً.

يستمر الأمير سيفرايد في محاولاته التقرب إلى الفتاة، ويحاول أن يتعرف عليها، من هي؟ ولماذا هي موجودة في هذا المكان؟ ويعرف أنها أوديت ملكة البجع، فيحبها ويخبرها أنه سيعاملها باحترام وحب، ويسألها: كيف أصبحت ملكة للبجع؟ إلا أنها تطلب منه أن يكون جسوراً وتشير إلى البحيرة التي تكونت من دموع والدتها التي أمعن في بكائها بسبب الساحر الشرير فونر وتبارت الذي نجح في تحويل ابنتها إلى ملكة للبجع، وأنها ستخل بجعة إلى الأبد ما عدا الفترة الواقعة ما بين منتصف الليل وطلوع الفجر، حتى يحبها رجل ويتزوجها، ولا يحب غيرها على الإطلاق، عندئذ يتحمس الأمير العاشق لإنقاذها ويؤكد لها أنها لن تصبح بجعة بعد ذلك. أقسم الأمير بحبه وإخلاصه لها بينما يظهر الساحر الشرير على طرف البحيرة ويودي بحياته الأمير ويحرر الملكة من السحر....

تتوقف عن العزف فجأة ثم تهمس بصوت يكاد لا يسمع:

(ليتي أجد أمير يحررني من ياسي)

توجه إلى المرآة بسرعة ثم تقوم بفل شعرها لينسدل ويصل إلى أسفل ظهرها، شعر شديد السواد، جلست على الأرض وأخذت تمشط شعرها بكل رقة و حنان بتمشط زجاجي... همست وهي تحاول ألا تطلق العنان لتلك الدموع المتكدسة في طرف عينيها بينما أخذت تتساقط حبيبات البرد الصغيرة على أرضية المسرح:

(كنت أصارع في كل لحظة من حياتي، لأصل لهذا اليوم، ولكن...)

تسود لحظة سكون وهي ما زالت تمشط شعرها وتحديقاً إلى نفسها في المرآة... ثم اكملت:

(لا أعلم لماذا لا يزال يقشعر جسدي منه كأنني أقع في فجوة عميقة لا نهاية لها أسمع شبحي والذي للذين لطالما ما اختلفنا حلمي)

تضع المشط بعيداً ثم توقفت وأخذت تحديقاً إلى الجمهور وهي تهمس:

(من يركز على الفشل سيفشل)

تستدير بعزم لتتظر إلى ساعة كبيرة معلقة على الحائط التي كانت تعلن عن تمام الساعة الثانية عشرة.. قالت بصوت مرتبك:

(لم أحظ بالوقت الكافي للتدريب الأخير قبل المقابلة غدا... أو بالأحرى بعد بضع ساعات...)

تناولت الجناحين من الأرض وعانقتهما بشده وهي تحديقاً إلى ما وراء الجمهور هامسة:

(لن أنهار تحت الضغط...)

استدارت إلى البيانو ثم أضافت:



(كل العظماء كانوا مجرد أطفال في يوم ما...)  
تمد يدها لتمتليّ بالبرد و تضيف:  
(و ما الألباس إلا مجرد فحم)  
تجلس القرفصاء في منتصف المسرح و هي مازالت تعانق الجناحين و تحديق إلى الجمهور... تستشعر  
ريحا من البرد ثم تقول....:  
(الوقت..)

يتعالى صوت دقات أكثر من ساعة في أرجاء المسرح.. فتكمل بصوت عالٍ إلى حد ما:  
(كيف لي أن أغلبه... كيف لي أن أتغلب على البعد الرابع؟)  
تقف و تحدث شبح شخص ما، لا يراه أحد سواها فتقول بعدما علا وجهها الخجل:  
(أيها العالم أينشتاين؟...)  
تصمت للحظة و كأنها تلتفت إجابته فتكمل:  
(كيف لي أن أخترق ذاك الحاجز لأعود للماضي فأمحو كل ما كون بي كل هذه الرهبة من حلمي..)  
تتسارع الكلمات في الخروج من فمها بعدما تكدست الدموع على حافة عينيها.. اقتربت من حافة  
المسرح و أكملت و كأن شبح ذلك الشخص تحول ليكون الجمهور:  
(سأعود إلى أيام طفولتي و سأمنع والدتي من تمزيق أول فستان للباليه ، سأمنع و الذي من تحطيم  
البيانو خاصتي...)

تستدير تجاه المرأة و تحديق بصورة لوالديها موضوعة داخل إطار كبير زجاجي اللون شديد اللمعان...  
تسري قشعريرة في جسدها فتهرع و تجلس على الأرض بجانب البيانو وهي تضع رأسها بين ركبتيها...  
و تكرر برعب:  
(لن أعود إلى المنزل...)  
تكرر بصوت أوضح:  
(لا أريد العودة إلى المنزل...)

تدخل في دوامة من الهستيريا... و تصرخ:  
(أمي اتركي شعري... أمي لا تضربيني... أمي لن أكرر هذا الخطأ...)  
تجهش بالبكاء حتى كاد قلبها أن يقتلع من صدرها... مرت عدة لحظات حتى استطاعت تمالك نفسها  
و هي تنغمم موجهة حديثها للجمهور... بعدما همت بالوقوف مطأطئة رأسها تحديق بالأرض و تمسح  
على البيانو بيدها و قد علاها الخجل:

(أعلم أنهما أرادا لي أن أكون الأفضل.. أعلم أنهما أرادا أن أكون الفتاة المثالية... لكن... لكن لا يمكنك  
تربية ابنك بناء على كتيب... لا يمكنك أن تركز كل الضغط على أكتافه... لا يمكنك إصااق أحلامك  
بطفلك... لا يمكنك إجهاض حلم طفل بريء ، حتى يتمكن أن يحقق حلمك...)  
أخذت تتحسس شعرها و هي تهمس محدثة نفسها هذه المرة:

(كم أحببت أمي أن يكون شعري طويلا...)  
انقضت في مكانها كما لو مرت بها صاعقة زعدية و توجهت إلى المرأة بخطوات ثابتة ثم أخذت تحديق  
في نفسها لعدة ثوان و هي تهمس بهدوء بعدما أخذت مقصا من الصندوق...:

(أمي...)

أبي...

أحببتكما أكثر مما تتصوران...

أعلم أنكما الآن بين يدي الرحمن... أعلم أنكما لم تقصدا أن تأذي روعي... أن تقتلما حلمي و أن تجعلا ذكراكما شبحاً يطاردني... لكنكما رحلتما قبل أن أفهم لماذا كنتما قاسيين معي... رحلتما بعدما توسف الخوف بي منكما و لم أحتظ بالفرصة الكافية لأنال الحنان الذي كان لايد له من أن يشفي تلك الجراح تلك الأيام)

أخذت نفساً عميقاً... ثم أضافت...:

(أنا لا أحمل أي ضغينة في قلبي لكما... لكنني أريد أن أحرر نفسي من تلك الهواجس التي آمنت بها بعد رحيلكما...)

رفعت المقص و قصت شعرها ليصل فوق أذنها... و هي تشعر بتحرر روحها من شبح والديها الذي بنته في عقلها... ابتسمت ابتسامة واسعة و همست:

(إن عدت بالزمن لن أمحو أي ذكرى من ذكراكما... فلولاكما... لما عشقت هذا الحلم...)

تعبت بشعرها القصير و هي تنظر إلى نفسها بالمرآة و الفرح يغمرها... لكن سرعان ما انزلت عينها على قلادة زجاجية على شكل قلب... تمسكها وتحكم قبضتها عليها للحظة ثم تهمس بعدما تشعر ببرد قاس يحلل جسدها:

(ربما علي أن أعود بالزمن إلى سنة واحدة فقد مضت...)

تطأ طئاً رأسها و تحديق إلى الأرض بعدما يجتاحها شعور غادر بان قدميها لا تقويان على حملها طويلا، تخفت الإضاءة على المسرح و تبدل بلون رمادي داكن يميل للزرقة...

تنظر إلى انعكاس صورتها المتلوي من سطح الزجاج...

يتلاشى صوت دقات الساعة شيئاً فشيئاً بينما يتخلله صوت ريح عاتية و هي تهمس:  
(يوسف)...

مرت عدة ثوان ثم همست بصوت تردد صداه في أجواء المسرح:

( قتلتي... )

غزاً عالمي..

احتل كل ذكرياتي...

أحببته أكثر من روعي...

آمنت به أكثر من نفسي...

أهديته كل ما أملك...

(ثم...)

تسود لحظة من السكون مع توقف صوت الرياح... فتقول بنوع من الانكسار:

(ثم رحل...)

يتعالى صوت رعد في أرجاء المكان... ترفع رأسها لتحديق إلى الساعة و من ثم إلى الجمهور... تتوجه إلى طرف المسرح الآخر ثم تسند ظهرها على الحائط الزجاجي و تهمس موجهة حديثها إلى القلادة في يدها:

(كلما أتعرض لانكسار يرهق روعي أهرب من عالمي الصغير، عن طريق تسريحة شعر جديدة، أصدقاء جدد، تغيير لديكور منزلي تاركة كل تلك التفاصيل الصغيرة التي تلاحقني في أحلام كأشباح ظلت معلقة بين الحياة و الموت...)

لكن كما أرهقني التفكير بك... كما أرهقني انتظارك، أرهقتني زويدة عوامي، فكمن من انكسار إداري... أنا الآن سجين عوامك بكل تفاصيله، مخلصه له، إخلاصاً أعمى... لا يرى مدى انخدالي...

فلا أشعر بك طالما يومي مزدحم بالأعمال... أشاهد فيلماً، أستمع إلى أغنية، أقرأ كتاباً، أدرش مع أحدهم أدرس، أعمل، أبقى عقلي مشغولاً إلى أقصى حد، لكنه من المستحيل إنكار طوفان شوقي، و تجاهل غصة حنيني، تراكم دموعي... و سرعة خفقان قلبي...  
تصمت للحظة ثم تقوم بمد يدها تجاه طرف المسرح وكأنها على وشك أن ترمي القلادة... ثم تكمل:  
(أحارب... و أناضل حتى أكون أقوى مما أنا عليه... أبتسم)  
تطلق ضحكة استهزاء قصيرة ثم تكمل:

(ليست في الحقيقة ابتسامة)

تأخذ نفساً عميقاً ثم تكمل:

(إنه قناع... علمني حكيم اسمه الزمن كيف أضعه... ليس خجلاً من ضعفي... بل هرباً من عيون الناس... فلا حاجة لهم أن يرو ضعفي... لا حاجة لهم أن يرو انكساري... ففي تلك اللحظات القصيرة التي تخلو من أي مشقة مادي... أتذكر فيها أنني ما زلت مريضة بعشقتك، و لكن لكل داء، دواء... و دوائي هو أن أتخطى الزمن و أمحو كل ذكرياتك... فأنت ماض و من يعيش في الماضي يفقد لذة الحاضر...)

ثم رمت القلادة.. ليتعالى صوت انكسار زجاج في أرجاء المسرح...  
تراجع خطوة للخلف... يتعالى صوت هزيم الزجاج أسفل قدميها...  
تشعر بانهايار عاليها... تزداد زرقة المسرح و يزداد عصف الرياح المفاجئ...  
تشعر بسوء ما فعلته... تهمس:

(لماذا أتقلب بين الحب و حلمي... أتقلب بين الماضي و الحاضر...)

ترفع رأسها لتتظر إلى الجمهور ثم تضيف:

(فإن كان الوقت هو كل ما أخشاه... فقد حانت لحظة مواجهة مخاوفي...)

سأترك قلبي محطماً في إحدى زوايا صدري...

لن أكرث لأنيته...

لن أنصاع لحنينه...

فليرعد و ليبرق في زوايا صدري...

فأنا لن أكرث...

فمن اختار الرحيل فليرحل...

و من اختار البقاء فليبق...)

تأخذ نفساً عميقاً بينما تتم إضاءة المسرح تدريجياً بإضاءة تميل إلى الحمرة... و تكمل و هي تخاطب الجمهور بكل حماس:

(إن قلبي مجرد قرية آتاه موسم الحب، ملأه بالحب و لكن لايد من أن يأتي الخريف... فانا الآن سأجمع أشقات حبي و أدسها بين أوراق كشكول ذكرياتي، و أضعها على قطار الزمن... فالرحيل لايد ان يقابل بالنسيان و الحنين لا علاج له سوى بمرور الوقت...)

تحديق إلى الأفق تشعر بسعادة تغمر جسدها و كأنها تحررت من احتلال جائر...

استدارت لتواجه البيانو... ثم تجلس بكل هدوء...

و تبدأ العزف بكل ثقة و هي تهمس...:

(لن أتدرب الآن سأعزف لأرفه عن نفسي، فلقد كنت أتدرب لهذا اليوم منذ نعومة أظفاري... فكل شيء في حياتي كاد يدفعني إلى اليأس، وكدت أضع حداً لحياتي اليائسة، إلا أن الفن وحده هو الذي منعني من ذلك...)



## دراسات مسرحية

### ورقة في سيولوجيا المسرح سياسة في المسرح الجزائري مسرحية « المائدة » أنموذجا

بقلم: د. أحمد حمومي\*

#### التحول السياسي ومسرح السبعينات

كانت تلك الفترة مرحلة غليان اجتماعي. كانت الجزائر تستشرف تغييرات اجتماعية تتحول بموجبها الجزائر من مجتمع منعدم الملامح إلى مجتمع مؤسس كما هي مؤسسة المجتمعات الأخرى. كانت الجزائر إذن، على أبواب قرارات مصيرية، بعد قرارات التسيير الذاتي بواسطة مراسيم مارس ١٩٦٣. وكان التسيير الذاتي العامل الأساس الذي سمح للثورة الجزائرية - وكانت منذ انبجاسها ديمقراطية شعبية - أن تخلق القواعد الموضوعية للاشتراكية فب احتلال الفلاحين والعمال الأراضي والمصانع التي بقيت شاغرة بفعل رحيل الكولون، تبين الطريق للاختيار الاشتراكي المتضمن التوزيع العادل للخيرات «٢» وتأميم البنوك في السنة ١٩٦٦ ثم تأميم المحروقات في أبريل ١٩٧١ وإصدار إجماعي التسيير الاشتراكي للمؤسسات والثورة الزراعية في نوفمبر ١٩٧١. ولن نعرض في هذا المقام كل المواثيق التي أسست للمجتمع الجزائري، مكتفين بالقانون الذي أثر أيما تأثير في المسرح الجزائري.

#### ميثاق الثورة الزراعية (٣)

لم يعرف نص آخر قدرا مثل الذي عرفه ميثاق الثورة الزراعية<sup>٤</sup>. فلئن كانت الثورة الصناعية تعني اعتماد وتشغيل واستثمار أحدث التكنولوجيات من أجل تحسين الإنتاج، إلا أن الثورة الزراعية مست البشر بشكل مباشر: لقد أثرت في حياتهم وفي مسارهم. لم يكن العمال في الصناعة معينين مباشرة بالثورة الصناعية لأن التسيير والتفكير وإقامة المخططات أصبحت كلها من اهتمام واختصاص التقنوقراطيين والمهندسين والأخصائيين. أما الثورة الزراعية فكانت تهم الفلاح بالدرجة الأولى. لا ينكر عاقل أن الأهداف المنشودة من الثورة الزراعية كانت أهدافا نبيلة سامية. كانت تتوخى إعطاء الفلاحين<sup>٥</sup> - وهم الأغلبية في المجتمع - ما يسمح لهم بحياة كريمة هنيئة. كما كان الهدف تسجيل قدرة الجزائريين على النهوض بالفلاحة بعد رحيل الكولون.

أراد قانون الثورة الزراعية أن يكون التعاون هدفا ووسيلة وأن «يكون، على غرار التسيير الذاتي، نوعا من الشراكة الديمقراطية»<sup>٦</sup> وأن تشهد الثورة الزراعية «الترقية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للجماهير الريفية»<sup>٨</sup> وتطعيم مشاركة الفلاحين في مجهود التنمية الريفية لأن «الثورة الزراعية لا تستهدف تحميل الدولة وحدها مجهود التنمية الريفية»<sup>٩</sup>.

أرادت الثورة الزراعية تعبئة الفلاحين سواء أكانوا منخرطين في تعاونيات فلاحية أو منتظمين إلى فئة

\* أكاديمي من الجزائر - جامعة وهران

صغار الفلاحين فيتغير وجه الريف.

أوجد القانون الهياكل اللازمة للتمويل والتسويق ١٠ ووسّع المجلس البلدي إلى ممثلين من الحزب ومن المنظمات الجماهيرية ١١

صاحب هذه الحملة العارمة قرار بناء القرى الفلاحية ١٢ لتأوي الفلاحين الذين كانوا يقطنون الأكواخ؛ من أجل إنجاح الثورة الزراعية لأنها بدت الوسيلة المثلى للقضاء على كبار الإقطاعيين ١٣. ومن جراء هذا المدّ العنيف، تصدّق كثير من كبار الملاكين بآلاف الهكتارات لصالح الصندوق الوطني للثورة الزراعية. ١٤. لعل أهمّ فئة - خارج الفلاحين أنفسهم - تفاعلت مع تدابير الثورة الزراعية، هي فئة المثقفين ١٥. لم يكن حدث في حجم الثورة الزراعية ليترك المثقفين في حالة لامبالاة: تبوّأ هذه الثورة لأنها كانت النهج السالك، النهج الذي يوصل إلى برّ الأمان، كانت الاختيار الذي يقيم المجتمع وينتبه على أسس سليمة تجعل منه مجتمعاً ضمن التاريخ، مجتمعاً يسير كما تسير كل المجتمعات. لذا فلم يقتصر دورهم على التصفيق الأجرد الذي لا طائل من ورائه. وكان التلفزيون في ذلك الوقت يترأس قائمة المنشغلين بالقضية الفلاحية: [هـ] لا أحد كالتلفزيون عرف كيف يتكلّم عن المسألة الزراعية وعن الوشبة الخارقة التي طبعتها الثورة الزراعية في حياة الفلاحين الفقراء منذ السّنة ١٩٧٢. فإذا اعتبرنا فيلم رشيد بنبراهيم «العنكبوت»، أنصح لدينا التزام المثقفين حيال هذا الإجراء الصيري: يذكر من عاشوا فترة الثورة الزراعية أنّ الأعداء الطبيعيين لها - الإقطاعيين وذيولهم في الإدارة ١٦. والفيلم طرح لأسئلة أساسية حول اختيار الثورة الزراعية من أجل الانطلاق من الكائن إلى الممكن الأحسن - بالنسبة إلى الجماهير العريضة. وهو فضح مناورات الإقطاعيين وللشبكات التي يحيكونها مثل العنكبوت من أجل بلوغ مراميهم وهو دعوة للعمل من أجل أن يبرز الفاضح ١٧.

إلى جانب كل هذا الزخم لم يكن الطلبة الجامعيون أقلّ الفاعلين المتدخلين نشاطاً ١٨. فقد رأوا أن يعطوا لمساهمتهم طابعاً عملياً: عزموا على جوب الأرياف وتجوابها، متصلين مباشرة بالفلاحين من أجل تبسيط قانون الثورة الزراعية ١٩. كانت تلكم ظاهرة التطوع الطلابي ٢٠ الذي انطلق في العطلة الصيفية من السّنة ١٩٧٢، ممّا سمح للرئيس يومئذ أن يلاحظ: «(فبراير ٧٢): ...تأثير الثورة الزراعية على الجامعة نفسها تلك الجامعة التي أخذت بعد الاستقلال اتجاهاً يكاد يوصف بالانحراف حيث كانت جماعة من الطلبة منعزلة تعيش محاطة بالجدران ولا تعرف ما يجري في المجتمع سواء كان ذلك في المدينة أو في الريف. ونرى اليوم مئات وآلاف من الطلبة والأساتذة يستغلّون فرص العمل ويخرجون إلى البوادي ليعيشوا الواقع ويتصلوا بالفلاحين لكي يخلقوا رابطة مثينة ودائمة بين المدينة من جهة والأرياف من جهة أخرى، بين الطبقات الكادحة والفلاحين الأميين وبين النخبة المثقفة»

لا شك أنّ الهدف من إجراءات الثورة الزراعية ومساهمة العمال في التسيير كان مشاركة فعلية للفلاحين والعمال في تقعيد المجتمع على أسس مثينة تسمح ببناء الاشتراكية. في خضمّ هذا الابتهاج وفي كنف هذه الغبطة الناجمة عن مشاركة العمال في التسيير - في الفلاحة وفي الصناعة جميعاً - واضطلاع صغار الفلاحين والفلاحين الفقراء بمهمّة الإنتاج القمينة بإبعاد شبح التبعية الغذائية، لم يكن المثقفون ليتخلّوا عن دورهم التاريخي فساندوا ما استطاعوا المساندة وشرحوا النصوص الأساسية للإجراءين. وكان مسرح الهواة على رأس الركب فتمّ تبني طريقة الكتابة الجماعية لأنّ الواقع الجديد أصبح حتماً موضوع المسرحيات. ومنه سلوك مسرح وهران ذات النهج.

### علوّة وتجربة الكتابة الجماعية

اختار الهواة طريقة الكتابة الجماعية ٢٢ لأنها أسرع مسلك لإنجاز عمل ما انطلاقاً من ضرورة الكتابة السريعة. وقد تمثّلت الكتابة الجماعية في مناقشة الموضوع أو الموضوعات مناقشة جماعية يخرج الجمع

منها بمخاطب لما يجب فعله .

بعد تأسيس لامركزية المسرح، وبالتالي الحصول على استقلالية مالية نسبية، أصبحت الظروف مواتية لإنجاز عمل مساندة لكفاح الفلاحين والعمال من أجل بناء الاشتراكية . فكانت «المائدة» ثم تلاها المنتج .

### المائدة: ألفتها المجموعة في السنة ١٩٧٣

جاء علولة بمشروع المسرحية جاهزا ٢٢ وطلب من الفريق المساهمة في تصميم الحبكة وكتابة الحوارات . كان الشبان مقتنعين بضرورة مساندة الثورة الزراعية فتبنوا المشروع . وقد موضعوا ذواتهم في النص منذ الاستهلال، ضمن الأغنية التي يؤدونها الطلبة وفي أيديهم ميثاق الثورة الزراعية :

قم بجهد كبير	اعمل عمل يا فلاح
يثبت المصير	تتحقق الأمنية
تدعم بهم الاشتراكية	٣ ركائز أساسية
وسقوط الامبريالية	لمحو الاستغلال
لاستمرار الثورة الزراعية	اعمل عمل يا فلاح
في اتحاد وتعاونية	بجنب العامل والمثقف (٢٤)

لعل هذه المسرحية هي النموذج المثالي (archétype) الذي يشخص السبعينات ٢٥ مسرحاً . ومنه فهي أبلغ ما يطرح مفهوم المسرح السياسي مطرح السؤال .

### حول المسرح السياسي

لا بد من التأكيد أولا على أن كل يجري في المدينة سياسي ٢٦ .

ثانيا حينما يتم الحديث عن المسرح السياسي، يتبادر إلى الأذهان اسما إروين بسكاتور وبرتولد بريخت . أما الأول فعمل بطريقة التأليف الجماعي . كيف كانت تسير هذه الطريقة؟ يقول بسكاتور : « يؤلف مشروع إقامة ورشة - ضمن مسرح بسكاتور - من اعتقاد [مفاده أن لا بد أن يتبنى أسلوب المسرح الجديد من عملية يتدخل خلالها الكاتب وكذا الممثل، والتقنيون والموسيقيون .] ... (في الاستوديو .) لم يعد يجمع بين الممثلين رباط عقد فضفاض؛ أصبحوا يشكلون مجموعة ينتمي إليها، بذات الحقوق والواجبات الشرعية، الكاتب والموسيقي والمخرج والسينمائي» ٢٧ .

كما أن لا أحد يستطيع أن يعزل الإنتاج الفني عن المجتمع، لأنه منبثق منه وعائد إليه . فلا أحد يكتب انطلاقا من الفراغ المطلق . وإذا كان المسرح يسهم ، على غرار باقي الفنون في تغيير المجتمع ولو بشكل بطيء جدا إلا أن المسرح السياسي يستعجل الوقت في محاولته إكساب الشرائع العريضة في المجتمع وعيا يسمح لها بالعمل في اتجاه يؤثر في الحياة السياسية، [لأن المسرح السياسي لا تقتصر وظيفته على تصوير الواقع الحياتي الحالي في المجتمع فقط، وإنما تتخطى ذلك إلى توجيه المجتمع ومحاولة تغييره] ٢٨ . كما أننا في هذا المقام بالذات - مقام إنتاج مسرحية المائدة - أمام قضية هامة أثارها . يقول علي عقلة عرسان : « [ ... صاحب الإبداع الملتزم معرض لأن يصطدم بالسلطة إذا ما تعارضت ممارساتها أو تطلعاتها مع ما يراه في صالح الأفراد والجماعات » فهذا الموقف البادر من الفنان هو الشائع . لكن الباحث السوري يسجل في الهامش - بعد هذا القول مباشرة : « أو الاتفاق معها [يعني الفنان الملتزم والسلطة- الباحث إذا كانت ممارستها في صالح الأفراد والجماعات] ٢٩ .



### مسرحية المائدة

تبدأ المسرحية في لحظتها الأولى باجتماع جمع من الطلبة ينطلقون كلاما ويأتون خطبا سياسيا جافا حول ما عانى منه الفلاحون من ويلات الاستعمار، وكأن الجماعة تتشد تبرير ضرورة الثورة الزراعية. من بين الشخصيات التي تمثل الطلبة الكعرا ٣٠ والقانون ٣١ والزين ٣٢ وليلى ولحلو ٣٣ ورئيس البلدية وخليفته وصنهاجي ٣٤ والإقطاعي والناطور، حارس الغابة. وحتى تجلو العلاقة بين العامل الصناعي والفلاح وضع الفريق المنتج لوحة في دكان حلاق التقى فيه القانون والطالب التقدمي ٣٥ والنقابي والعامل وزبون نراه ممثلا للشعب. وفيه تبرز العلاقة بين عالم الصناعة وعالم الفلاحة من أجل بناء الاشتراكية ٣٦. تتخلل الفصل الأول أنشودات تمجد الوحدة والثورة الزراعية التي تكون أساس النضال ضد الإمبريالية:

### الثورة الزراعية تنمية اقتصادية

#### ترفع مستوى العيش تقضي على الامبريالية

#### سلاح نافع تكوين عدالة اجتماعية

#### زالت (٣٧) الخماسة زالت الإهانة والرعية. (٣٨)

أما في نهاية اللحظة الثالثة ٣٩ فأنشودة جديدة بالملاحظة: فقد زخرف العرض بتشبيب لطيف من طرف لحلو حيال ليلى ونراه جمع بين النافع والظريف ٤٠. في اللحظة السابعة يعلن والدنا لزرق عداءهما للثورة الزراعية: أما الأم فبسداجة، وأما الأب فلأنه معني بالتأميم لأنه لا يستغل أرضه مباشرة ٤١ بل يستغل عرق الغلبة، ويكتفي بجني ثمرة جهدهم. قبل الاجتماع الذي يعقده أعداء ٤٢ الثورة الزراعية في مقر البلدية، كلام وخطاب سياسي حول دور المرأة والفتاة وحول ضرورة الشرح والتوعية...

يبدأ الفصل الثاني بالاجتماع في البلدية والذي يتم خلاله التحضير لاستقبال الطلبة المتطوعين والمسالك التي يجب أن يمرروا منها تضاديا للقاءات مشبوهة مع عمال «التسيير الذاتي» مثلا، على أن يكون أفكه المسليات ٤٣ مشوي، قصبة وقلال. وفي اللحظة الثالثة كلام حول توزيع الأراضي على الفلاحين والذي يصادف انطلاق المرحلة الثانية ٤٤ التي كانت الأدوار الأولى والأساسية فيها من اهتمام وصلاحيات المجالس الشعبية البلدية ٤٥ فالولاية. فإذا قال أحد الفلاحين: قال باللي الحسيان (الآبار) والأرض اللي مجانية الوادي كلها راحت لعائلة المير (شيخ البلدية) تأكد لدينا أن عملية الإحصاء الدقيقة التي كان التوزيع يتم على أساسها بعدالة لم تكن في كثير من الأحيان إلا حبرا على ورق. كما تسجل المسرحية سلوكا شاع من قبل وما زال سائرا : « شفت إبراهيم هذا الصباح غير يجيب (يأتي) في الشجر، يا درى (يا ترى) واش من شخصية راه فايت اليوم في الفلاح » ٤٦. في اللحظة ذاتها كشف تلاعب بعض كبار الملاكين: « قاريين حسايهم، بوزناد ولد الحرام تبرع ب٦٥ هكتار ، ذيك الأرض انتاع الحجر، الشوك نبتت فيها أعوج.. » وبما أن المائدة درس تشترك فيه مع ما يقدمه الطلبة في الميدان ففيها إخبار بأن التعاونية البلدية المتعددة الخدمات ٤٧ ستحل مشاكل قطع الغيار. كما نقرأ في اللحظة الخامسة السلوك القديم المتجدد المتمثل في ارتشاء العباد حين يخبر كاتب شيخ البلدية سيده : « راني قسّمت عليهم دقيق القمح وأفهمتهم في الكلام اللي لازم يقولوه (...). أما اللحظة السابعة فلوحة كانت ملازمة للمسرح السياسي: رئيس البلدية أو المدير أو المسؤول في التفتون. فمن خلاله يبرز المسرح العلاقات الأفقية التي لا تظهر فوق الخشبة، عاقات مع ناس الفوق. في اللحظة التاسعة خطاب رئيس البلدية وهو مع الطلبة: « بحيث ٤٨ يصعب على الدولة وحدها تواصل مهمة الفلاحة » ٤٩ ويتخلل الخطاب كلام يهدف تسليمة المتطوعين وتلبيتهم ٥٠ وينهي كلامه بما يظن أنه يروق الطلبة سماعه: « نبني قرية السعادة وارتباطنا في البناء يكون سلاح قاطع ضد الاستغلال، ضد الفاشية،

ضد النازية، وضد الامبريالية والصهيونية»

في اللحظة العاشرة لقاء الطلبة والفلاحين من دون رقيب : «فلاح - البارحة قصدنا أبو القاسم وقال لنا إذا سألكم ذك الصبيان جاوبوهم تحيي الحكومة وما ناقصنا حتى شيء»<sup>٥١</sup>  
تفاديا لكل تعميم قد يدفع إليه العرض نجد في اللحظة الثانية عشرة ملاحظة أن «اشيخ البلدية اللي مجاورتنا مخلص ومتفاهمين معه مليح»<sup>٥٢</sup>. ثم نعيش مع الطلبة مشيهم بين الأشواك والأوعار وهو الطريق الذي اختاره لهم الأعداء لتنتهي اللوحة بأنشودة:

اعمل اعمل يا خليفة	دير مجهود كبير
راننا فقنا بالخديعة	ما بقى لكم تدبير
اعمل اعمل يا خليفة	ساعد خوك المير (شيخ البلدية)
Lgard <sup>(٥٣)</sup> يراقب ويتجسس	متحمس للتزوير <sup>(٥٤)</sup>

في اللحظة الرابعة عشرة يبرز العرض ما قامت به الطالبات في الوسط النسوي الريفي. ٥٥. يرفض الطلبة المشوي ٥٦ في اللوحة الخامسة عشرة حيث ينهونها بصيحة تفاؤلية تتم عن رومانسية سياسية:

تحديد الملكية يا سامعين لكل أرض زراعية  
بطريقة المساواة وبشكل ديمقراطية  
نبذل كل مجهود يا السامعين في خاطر الثورة الزراعية.

في اللحظة السابعة عشرة يتفق صنهاجي وفلاح و٥٧ على ضرورة فضح أعداء الثورة الزراعية ومن يقفون حجرة عثرة في وجه تحقيق الاشتراكية: الفلاح - قالها السي قدور اللي يخدم في الشسير الذاتي، الثورة الزراعية ما هيش تنمية اقتصادية فقط؛ إنما ركيزة من ركائز الثورة الاشتراكية. ٥٨.

في الفصل الثالث، يؤدع الفلاحون الطلبة في اللحظة الأولى ثم في اللحظة الثانية نقرأ تفاعل الفلاحين معهم وما هي الصورة التي أعطى الأعداء الفلاحين إياها: «واحد غير قلت له أنا طالب سألتني إذا حافظ الستين ٥٩. (...)» وأنا قال لي فلاح: «الثورة اللي راك تتكلم عليها جئة لكن من الضامن؟»<sup>٦٠</sup>

اللحظة الثالثة والأخيرة موازنة ركحية بين الطلبة وسيخ البلدية وجماعته. كلهم يحضر تقريراً عن زيارة الطلبة المتلوعين: يفضح الطلبة تلاعب وتواطؤ الأعداء وكيف منعوهم من تسيير تلوعهم كما كانوا يريدون له أن يكون ويقدر الآخرون في سلوك الطلبة المشين، سلوك أتوا به من المدينة إلى القرية حيث الحشمة والحرمة. يتوسط تقرير الطلبة اعتماد الأعداء على البيروقراطية ويؤكد صنهاجي أن المقصود بالكلام كونها وسيلة مسخرة من طرف البرجوازية لضرب الاختيار الاشتراكي.

ينهي المير وجماعته التقرير بجملة تحيي الثورة الزراعية ويختم الطلبة جلستهم بالاتفاق على موعد لتحضير التلوع المقبل وتنتهي المسرحية كما بدأت:

اعمل اعمل يا فلاح	دير مجهود كبير
تتحقق الأمنية	يثبت المصير.

خلاصة، إن مسرحية المائدة لم تكن مسرحية بالمعنى الفني للكلمة، ولكنها أبلغ ما يمثل تلك المرحلة،

فهي شبيهة ببيانات ابن دانييل الموصلي<sup>٦١</sup> تفيد المسرحي والمؤرخ والسياسي ليطلع كل منهم على مل كانت عليه الحال في السبعينات.

### الهوامش

\* أكاديمي من الجزائر - جامعة وهران.

١- كان لتخلي الدولة عن التسيير الذاتي في المؤسسات الصناعية - وهو الاختيار الذي أكدته مقررات ميثاق الجزائر - أثر هام في أوساط العمال وسندهم الطبيعي - المثقفين والنقائبيين الذين اعتبروا مرحلة ٦٩/٦٥ مرحلة يمينية. ينظر : Abderrahmane BOUZIDA. LE PROJET SOCIAL : ١٩٩١. ALGERIEN « Genyse et évolution » OPU. Alger p. ١٩٩١.

Ibidem.. p ١٧٩-٢

٣- أمر رقم ٧١/٧٣ مؤرخ في ٢٠ رمضان ١٣٩١ الموافق لـ ٨ نوفمبر ١٩٧١. وكان من بين أهدافها إلغاء استغلال عمل الغير (الخماسة) و ضرورة خدمة الأرض بواسطة العمل المباشر<sup>٢٢٢١</sup> op.cit. p ٢٢٢١ A. Bouzida

٤- كان الحديث غداة الاستقلال على الإصلاح الزراعي الذي قامت به كل دول العالم، وكان الهدف منه- حسبما اقترحه السيد أحمد بن بلة في خطابه الختامي في أول مؤتمر الفلاحين التابعين لقطاع التسيير الذاتي والذي انعقد في الجزائر أيام ٢٥ و ٢٦ و ٢٧ أكتوبر ١٩٦٣ - تحديد الملكية الخاصة إلى مستوى يصبح معه تشكل طبقة ذات امتيازات من قبيل المستحيل. Ibidem. p ٤٢

٥- قامت سياسة البلاد في السبعينات على أساس الثورات الثلاث - الصناعية والزراعية والثقافية، لكن النهج المتبع كان نهج الأدرج: أي أننا نخرج درجة الثورة الزراعية ثم درجة الثورة الصناعية وأخيرا درجة الثورة الثقافية. بينما التنمية عملية معقدة لكن عناصرها مترابطة متشابكة متفاعلة. فالصناعة مهما كان مستوى المكاثر وحجم الرساميل لا تفسر من دون الإنسان ولا الزراعة مهما بلغت درجة المكنة في القطاع. وإذا اعتبرنا أن الثقافة تبني الإنسان ظهر واضحا أن التصور القائم على سياسة الأدرج لم يؤد إلى النتيجة المنشودة

٦- وقد عانوا من ويلات الاستعمار في الزيف أكثر بكثير مما عانى منه المدينون. إلا أن الدولة وجدت نفسها أمام ضرورة إقناعهم بتقبل الثورة الزراعية. وقد عبر عن هذه الفكرة Ripault - Mègérand فيقول: « l'Etat doit convaincre les paysans du bienfondé du projet » Voir Les Villages Socialistes Algériens. In Annales de l'Afrique du Nord. Année ١٩٧٥.

١٨٥/١٩٤ pp « كان لزاما على الدولة أن تقنع الفلاحين بشرعية الثورة الزراعية »

٧- الثورة الزراعية (نصوص أساسية) نشر اللجنة الوطنية للثورة الزراعية. وزارة الفلاحة والإصلاح الزراعي. الجزائر. ١٩٧٥. ص ٣٠

٨- م.ن. ص ٣٤

٩- م.ن. ص ٣٦. وقد جاء في إحدى خطب الرئيس يومدين : « وقد كتبت أعلنت في السنة الماضية (...) بأن تطبيق الثورة الزراعية سيكون من صلاحيات الولايات والبلديات وهذه مسؤولية تاريخية خطيرة. ولأول مرة تواجه السلطات المحلية معركة وطنية تخرجها من العمل الروتيني العادي ولهذه المعركة أبعاد تاريخية في جميع الميادين الاقتصادية منها والاجتماعية وغيرها. ينظر المؤتمر السابع لرؤساء المجالس البلدية ١٤/١٧ فبراير ١٩٧٣. خطاب الرئيس هواري يومدين. إصدار قسم التوجيه



والإعلام بالحزب. دت.

١٠- أحدثت التعاونية الفلاحية المتعددة للتسويق والخدمات كان الهدف المسطر لها تموين التعاونيات باليدور والعتاد وتمويل الإنتاج بالتدخل لدى البنوك.

١١- الاتحاد العام للعمال والاتحادات الوطنية للنساء والفلاحين والشبابx وإلى ممثل لجمعية قدماء المجاهدين.

- تعوض شبيبة جبهة التحرير الوطني من طرف الاتحاد الوطني للشبيبة الجزائرية في السنة ١٩٧٥

١٢- كان المخطط يرمي إلى بناء ألف قرية لتعويض القرى التي هُدمت للاستعمار. وكانت تسمى أيضا القرى الاشتراكية. وكانت أولها أوراس المايعة التي سيأتي الحديث عنها فريبا.

١٣- الحلفاء الطبيعيون للاستعمار وللرأسمال الكبير، وبالتالي فهم أعداء التقدم.

١٤- صندوق تأسس بمقتضى قانون الثورة الزراعية وتكفل بجمع الأراضي وتوزيعها.

١٥- يكفي التذكير بالفيلم الرائع لعبد العزيز طلبي « نوة » الذي كتب له السناريو الطاهر وطار، وفيلم الهاشمي الشريف « الطرفة » (الحبل) وفيلم حاج رحيم ذهاب من دون إياب حيث ينزح البطل (حسن الحسني) إلى المدينة فيلاقي من الولايات ما يجبره على الرجوع من حيث أتى ليجد الرّيف وقد حولته الثورة الزراعية جنة يلجأها بعد ما لفظته المدينة - وبرواية الطاهر وطار الزلزال - عنوان موح أبلغ ما يكون الإيحاء - ورواية عبد الحميد بنهدوقة ربح الجنوب.

xإذا كان الالتزام أن توجب على نفسك ملازمة بشر أو الأفكار التي تؤسّسهم، فإن المفهوم اكتسب معنى تبني أيديولوجيا الطبقات الكادحة والدفاع عنها. ولو لم تع هذه الطبقة أيديولوجيتها ولم تع بعد كونها طبقة، مثلما هو الحال في الجزائر.

١٦- لننتذكر ما جاء في ميثاق الجزائر بصدده هؤلاء. فمما يميّز البرجوازية الصغيرة تذبذبها وعدم ثبوتها على حال أيديولوجي؛ لأنها عديمة الأيديولوجيا، فشرائع منها تتبنى أيديولوجيا الطبقة الأقوى وشرائع تختار أيديولوجيا الطبقة الشغيلة، طبقة المستضعفين في الأرض. ومن هذه الأخيرة الفنانون أمثال رشيد بن براهيم ووطار والرّسام محمد خدة وهواة المسرح وتلك قصة أخرى.

١٧- هذا المعنى قصد إليه بن هدوقة في روايته بان الصبح.

١٨- كان وراء ذلك الالتزام قدامى مناضلي الاتحاد الوطني للطلبة الجزائريين UNEA وكان تنظيميا تابعا للحزب إلا أن أيديولوجيته لم تكن تمت إلى أيديولوجيا جبهة التحرير بأية صلة، ما عدا بضعة مناضلين في الحزب كانوا يحملون الانشغالات ذاتها. وقد ناور في السنة ١٩٧٠ من كانوا في الحزب ضد الاختيار الاشتراكي، معتمدين فرصة وجود الرئيس بومدين في زيارة إلى الاتحاد السوفياتي فحلوا الاتحاد وأودعوا القيادات السّجن؛ وقد باشر الرئيس فور عودته إلى إطلاق سراح المساجين الذين صرّفوا إلى الخدمة الوطنية.

١٩- كانت نسبة الأمية بين الشعب الجزائري تفوق ٨٠٪ وقد فاقت هذه النسبة في الأرياف. فكان لا بد من يتراً لهم التصوص ويفهمهم إياها.

٢٠- لم يكن مجموع الطلبة يشرحون ويشرحون ميثاق الثورة الزراعية، فقد تكفل طلبة الطب بالفعوص وإسداء الإرشادات الطبية - الطالبات مع النساء - واهتم طلبة المعاهد الزراعية والبيطرة بالمسائل المتعلقة بالفلاحة وتربية المواشي. وقد بلغ التطوع الطلّابي من الشأن ما دفع بالرئيس بومدين إلى الاجتماع بالمتطوعين في قاعة حرشة حسن قبل انطلاقهم بداية صائفة ١٩٧٤. وقد حضر الباحث هذا اللقاء بصفته عضواً في فرقة رفاق المسرح.

٢١- علما أن الانطلاقة الرسمية للثورة الزراعية كانت يوم ١٧ جوان ١٩٧٢

٢٢- كانت هذه طريقة جلّ الفرق باستثناءات قليلة من أمثال فرقة العمل في وهران التي كتب لها ميسوم سعيد ثم محمد بختي

٢٣- أخبرنا به محمد أدار في حوار كان لنا معه في سبتمبر ٢٠٠٧

٢٤- كان العمّال والفلاحون والمتقنون يشكّلون الثالوث الإيجابي التّقدّمي، وبعد وقت غير طويل تمّ دمج الجنود سنداً متيناً لإنجاح الثورة الزراعية. الاستشهادات من نصّ المائدة نسخة المسرح الجهوي. ص ١

٢٥- إنّ التسونامي الثقافي الذي كانت الثورة الزراعية سبباً له يذكّر بالمدّ الهائل الذي طبع الحياة الثقافية المصرية بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ : يقول نعمان عاشور « (...) حركة مسرحية جديدة كانت من الضخامة بحيث اجتذبت إليها كافّة كتّاب وأدباء تلك الفترة من القصاصين والشّعراء والروائيين أيضاً إلى جانب العديد من النقاد والدارسين والباحثين ». نعمان عاشور. المسرح والسياسة. الهيئة المصرية العامّة للكتاب. سلسلة المكتبة الثقافية. القاهرة. ١٩٨٦. ص ٦١

٢٦- أطلق اليونان على المدينة اسم بوليس Polis ومن هنا فكّل ما يجري داخل هذا الإطار politic سياسي

٢٧- Erwin Piscator. LE TH??TRE POLITIQUE. L'Arche éditeur. Paris ١٩٦٢.

١٤٩/١٤٨. p

٢٨- د. أحمد العشري. المسرحية السياسية في الوطن العربي. دار المعارف. القاهرة ١٩٨٥ ص ٤٧.  
٢٩- علي غفلة عرسان. سياسة في المسرح منشورات اتحاد الكتاب العرب. دمشق. ١٩٧٨. ص ١٣.  
ويضيف في ذات الهامش ما نراه من الأهمية بـ«كان»: « وفي صالح مستقبل الأمة الذي قد لا تراه الكثرة. وفي هذا ينبغي أن يوضح موقفه الذي يؤدي بالضرورة إلى توضيح موقفها. وفي هذه الحال لا يكون الأديب قد باع نفسه أو خان رسالته، رسالة الأدي والفن، أو تنازل وضعف .. إذ ليس من الضروري أن تختلّ السلطة دوماً، أو أن نكون ضلّماً دوماً. »

٣٠- هو من يبحث عن المصاعب حيث لا توجد حسب التعبير العربي. ويمثل الذين ساهموا في العملية من دون اقتناع أيديولوجي، أو ربما أريد به شجب مواقف اليساريين المتزمتين les gauchistes leftist. هو من يسأل مثلاً: « فهمني كيفاش نكلم فلاح واد الملقى على لِدِكوتومي » يعني dichotomy ليخبره أحدهم بترجمتها الازدواجية.

٣١- وهو من يعرف قانون الثورة الزراعية عن ظهر قلب، وقد وجد فعلاً من كانوا بارعين في هذا ولا سيما من بين طلبة الحقوق.

- كان جلّهم منتبهاً إلى حزب الثورة الاشتراكية الذي أسّسه محمد بوضياف وحلّه بعد مراسيم دفن هواري بومدين، بعدما شاهد خروج الجماهير المجهمة. فها هو، وحيداً، أمام المرأة يحدث الفلاح: يا camarade فلاح... قبل ما نشرح لكم ميثاق الثورة الزراعية، نعطيكم درس أو دروس في تاريخ الجزائر ودروس فيما يخص علم الكيمياء..

المائدة ص ١٣

٣١- وهو من يعرف قانون الثورة الزراعية عن ظهر قلب، وقد وجد فعلاً من كانوا برعين في هذا ولا سيما من بين طلبة الحقوق.

٣٢- وقد أضيف كي يطبع العرض بشيء من الهزل من حيث ترداده اسم محولي كثيراً فيكون مثل أروعون موليير عندما أشبع دورين خادمته كلّما رفعت إليه أخبار زوجته المريضة : وطرطوف؟

٣٣- الحلو

٣٤- هو أكثر الطلبة متانة أيديولوجية، وسنرى آياه (اللحظة ٦ ص ١٥- في كبريه يظهر عداؤه للاشتراكية ولأفكار ابنه).

٣٥- لايتعرّف عليه المتفرجون تقديماً إلا من خلال خطابه، فلا أحد يتأديه بهذا الاسم.

٣٦- يتم كل هذا بواسطة الكلام وحسب.

٣٧- ومن منا خطر المسرح السياسي الذي يحل المشاكل الاجتماعية المعقدة فوق الركح بينما تبقى في الواقع المعيش قائمة دائمة.

٣٨- الخماسة من الخمس الذي يحصل عليه الفلاح حصّة مقابل كل أتعابه. والرعية هي الرعي وهي اجتماعيا فعلة ساقطة تصل بصاحبها إلى أسفل السلم...

٣٩- هي لحظة أو مشهد أو لوحة على الورق فقط. لأنّ المشاهد يتفرّج على عرض ولا يأبه باسم الأجزاء داخله، لأنها لا تبرز.

٤٠- تبدأ هكذا: هيا بنا لواء الملقى\* يا عينيا

نفسرو ميثاق الثورة الزراعية

قانون اتحاد الفلاحين والتعاونية ضرورتهم لتحقيق الاشتراكية

يا ليلى يا عيني تحددت الملكية يا ليلى زالت الخماسة والرعية

يا ليلى معاك نشر القضية تحسنت المعيشة تحسنت الوضعية

فواد الملقى يا ليلى صويتتي كالتجمة

يد رافعة الميثاق والأحرى تأكد فالكلمة

وجودك صار في تلك القرية كالوثيمة

فلاح هنا وآخر هناك قبالتك بالتبسيمة

متمنين معاهم تبقىاي ديما

\* ولو أنّ المسرحية كتبت على شرف القرية النموذجية المثلى أوراس المائدة إلا أنّ القرية في المسرحية هي واد الملقى، تنادي لكل إسقاط سياسي مباشر. المائدة ص ٨ يزعم أنّ هذا التصيد هو اللبنة الأولى لمسرحية سيكتبها علولة في السنة ١٩٨٤، ونعني مسرحية «الأجواد».

٤١- هو ما يعطيه ببلاغة فائقة لفظ absentee

٤٢- إلى جانب شيخ البلدية وكاتبه العام، السي بوزيان صاحب العمل، السي بوزناد والسي الميلود والسي بن عودة ملاكون كبار ومعهم السي بلقاسم حارس الغابة - الناطور أو الجرد بالعامية (تطلق الجيم قاهرية بالضرورة) علما أنّ هذه اللفظة تحمل شحنة سلطوية على الضعفاء و معنى الذل أمام الأقوياء - لا ترجعها لا حارس الغابة ولا الناطور.

٤٣- حينما تعني لفظة تسلبية تلهية العباد عمّا بهمهم.

٤٤- توزيع الأراضي التي احتواها الصندوق الوطني للثورة الزراعية. أمّا المرحلة الثالثة فكان مجالها الفلاحة السهبية والرعي.

٤٥- وقد كان رؤساء البلديات يعقدون كلّ سنة - منذ ١٩٦٧، سنة أول مجلس بلدي شعبي - مؤتمراً في الجزائر العاصمة، حتى كان المؤتمر الثامن الذي تمّ عقده عشية تطبيق المرحلة الثانية هذه. وكان الرئيس يومئذ قد ألقى في هذا المؤتمر كلمة تتمّ في نظرنا عن سداجة فائقة خارقة. كان الرئيس يوجه حديثه إلى رؤساء المجالس الشعبية البلدية وكأنهم مقتنعون جميعاً بضرورة هذا الإجراء ويوجب نجاحه. فلتستمع إليه: «... وأنى لجد مسرور بأنكم قرّرتم في هذه السنة كذلك أن يعقد اجتماعكم تحت شعار



الثورة الزراعية و التنمية الريفية. (...) وإذا كان هناك بالأمس من أصابه نوع من التخوّف و الهيبة بسبب عدم الفهم فإنه قد زال الآن لأن الأمور أصبحت واضحة تماما بفضل حملات الشرح المتعددة والشاملة ويفضل الممارسة العملية لتطبيق ميثاق الثورة الزراعية و تأسيس المئات من التعاونيات. (...) يساعدنا على استنتاج الخلاصة التالية و هي أن العمل الثوري يتركز دائما على الإيمان القوي و على الإرادة الصلبة و على النزاهة أثناء مباشرة أعمال التطبيق. (...) فالثورة التي لا تتجدّد هي ثورة سائرة نحو الزوال و ثورة تشرف على الانهيار والاضمحلال. (...) من خطاب الرئيس هواري بومدين أمام المؤتمر السابع لرؤساء المجالس الشعبية البلدية. ١٤-١٧ فبراير ١٩٧٣. إصدار قسم التوجيه والإعلام بالحزب. صص ٤-٧-٨. ولأنّ الباحث شارك في عدّة حملات تطوعية لاحظ العداء الشديد الصلدا الذي كان شيوخ البلديات يواجهون به الثورة الزراعية.

٤٦- المائدة ص ٢٥. بعني الكلام أنّ القرية تزيّن قبل زيارة المسؤول السياسي. أو حتى مروره بها.

٤٧- عمليا، كان الجميع يقول كاسياس CAPCS

٤٨- لفظة تتردّد كثيرا في مسرح علولة اللاحق.

٤٩- يتشدّد المير هنا بما جاء في ميثاق الثورة الزراعية (ص ٣٦) « لاتستهدف الثورة الزراعية تحميل الدولة وحدها مجهود التنمية الريفية، بل العكس صحيح، لأنّ أحد مبادئها الأساسية يرمي إلى ضمان وتنظيم مشاركة الفلاحين في هذا المجهود الوطني ».

٥٠- الحديث عن الماضي المجيد عوض الحاضر.

٥١- المائدة ص ٢٤.

٥٢- جاء هذا على لسان عامل في التسيير الذاتي. المائدة ص ٣٦.

٥٣- هو الناطور الذي يتكفل بحماية الغاية

٥٤- هذا من ضعف المسرح السياسي عندما يفصل في الأمور ويقرّر أنّ الرجعية ما بقالها تدبير. بينما أخبرتنا الأحداث اللاحقة أنّه كان في متناولهم تدبير وتدبير وتدبير. <http://www.abas-khiti.com>

٥٥- ولو أنّنا نقرأ عن الضريبة التي دفعها كل سكان القرية (٥٥ دنانير) (× مساهمة في استقبال الضيوف.

المائدة ص ٣٩

- علما أنّ هذا المبلغ كان كافيا لشراء قفّة وأكثر من الخضر والفواكه.

٥٦- لأنّهم يرفضون أن تشتري ذممهم. المائدة ص ٤٠

٥٧- لم يخل المسرح في تلك الفترة من الوعي عاملا كان أو فلاحا أو مثقفا.

٥٨- جاء في خطاب الرئيس بومدين المشار إليه: « فالعملية أوسع وأعمق من كلّ هذه المظاهر المادية إذ القصد منها هو مواصلة الثورة وتحقيق الثورة الاشتراكية وهذا هو الهدف الأسمى من الثورة الزراعية ».

ص ٨.

٥٩- وكانت الشيوعية والإلحاد رשمان يلصقهما الأعداء على جبين كلّ من يتكلّم بالمساواة والعدالة الاجتماعية. وكان هذا سلاحا أشهره غير ما مرّة الاتحاد العام للعمال الجزائريين: أشهره لفسخ الفرع النقابي في الجامعة في السنة ١٩٧٦، أشهره محافظة الحزب في ذات السنة لطرد مدير المسرح الجهوي في وهران آنذاك، وتدرّعت به وزارة الثقافة لطرد غلولة من منصب مدير المسرح الوطني الجزائري.

٦٠- المائدة ص ٤٨.

٦١- هو محمد ابن دانيال الموصللي طبيب العيون القادم من الموصل إلى القاهرة في بداية القرن الثالث عشر - زمن الظاهر بيبرس - ولعله أول من مارس خيال الظل في الرقعة العربية.

## أعلام من جزيرة فيلكا - (١)

الشيخ مسيعيد بن أحمد بن مساعد (١٠٩٤هـ - ١٦٨٢)

أقدم نساخ المخطوطات في الكويت

بقلم : خالد سالم محمد \*

- عاش في جزيرة فيلكا في القرن السابع عشر الميلادي القرن الحادي عشر الهجري.
- مخطوطة الموطأ للإمام مالك التي نسخها تدل على ازدهار الحياة الثقافية والدينية في الجزيرة خلال تلك الفترة.
- يرى الدكتور خليفة الوقيان أن الشيخ مسيعيد ناسخ المخطوطة، ربما يكون جده للشيخ مساعد العازمي.
- المخطوطة كتبت بخط جميل وأنيق وباللونين الأحمر والأسود، وزُيّنت حواشيها ببعض الشروحات.
- المخطوطة كانت من مقتنيات والد الأستاذ عبد العزيز حسين.
- الباحث أول من عرّف بالمخطوطة ونشر الصفحة الأخيرة منها في كتابه: جزيرة فيلكا صفحات من الماضي عام ١٩٨٧م. <http://Archivebeta.Sakhril.net>
- أذهشت الباحثين بجمال خطها وقدمها ومكان نسخها وأشادوا بها.
- قال عنها الأستاذ الدكتور عبد الله يوسف الغنيم: «أن نسخ هذه المخطوطة في الكويت في ذلك الوقت المبكر يؤكد أن وجود الكويت كياناً حضارياً مستقلاً يعود إلى ما هو أبعد مما ظنّه البعض.
- كانت المخطوطة ضمن مخطوطات وكتب أحد العلماء في جزيرة فيلكا.

أحد العلماء الأفاضل الذين استقروا في جزيرة فيلكا في منتصف القرن السابع عشر الميلادي، القرن الحادي عشر الهجري. لا نعرف عن حياته في الجزيرة سوى ما دَوَّنه في نهاية مخطوطة «الموطأ» للإمام مالك التي نسخها بخطه في عام ١٠٩٤هـ، حيث يقول في الصفحة الأخيرة منها: «وقع الفراغ من كتاب الموطأ ضحى يوم الاثنين في شهر عاشوراء للسنة الرابعة والتسعين والألف من الهجرة النبوية على مهاجرها أفضل الصلاة والسلام، بقلم أفتر عباد الله وأحوجهم إلى رحمته: مسيعيد بن أحمد بن مساعد بن عبد الله بن سالم، نزيل فيلكا، غفر الله له ولوالديه ومشايخه».

وواضح من الخط الجميل الذي كتبت فيه المخطوطة، وورق الكتان الناصع ونوعية الحبر بلونيه الأحمر والأسود، أنه كان مهتماً بتدوين كتب الحديث وربما غيرها من الكتب الدينية، و عالماً جليلاً على دراية كبيرة في مختلف العلوم الإسلامية وربما كان يتولى القضاء في الجزيرة إضافة إلى إمامة أحد مساجدها.

\* باحث من الكويت.

ولكن للأسف لم يذكر لنا عن إقامته في الجزيرة شيئاً ولا في أي قرية من قرأها القديمة كان يسكن، ولا اسم الجامع الذي يتولى إمامته.

حيث أن هناك عدة قرى دارسة في جنوب الجزيرة وشمالها لم يبق منها إلا بعض الأساسات التي لا تكاد تبين، ومن حولها شواهد لبعض القبور الدارسة.

أهم قرى جنوب الجزيرة هي: الصَّبَّابِيَّة، المَليطَة، أم الدخان، وشبيجة.

أما قرى شمال الجزيرة فأهمها: سعيدة، رويسية، الدشت، القرينية، والدهيمشية.

كما تدل المخطوطة على ازدهار الحياة الدينية والثقافية في المنطقة في ذلك الوقت، وأن الجزيرة لم تكن بمعزل عما حولها من حضارات، كالحضارة الدلونية واليونانية والفارسية، مروراً بالحضارة الإسلامية في مختلف مراحلها، كما أنها لم تخل من السكان ومن التواصل التجاري والثقافي والديني على امتداد تاريخها الطويل.

### نسب الشيخ مسعيد

أما فيما يخص نسب الشيخ مسعيد بن أحمد بن مساعد، فيرى الدكتور خليفة الوقيان، إنه ربما يكون جداً للشيخ مساعد العازمي، حيث يقول: والشيخ مسعيد «ناسخ المخطوطة» من قبيلة العوازم- كما يبدو- ويعدّ أفراد هذه القبيلة من أوائل سكان الكويت، ومن المرجح أن يكون جداً للشيخ مساعد العازمي، الذي كان من أوائل الكويتيين الذين درسوا في الأزهر خلال القرن التاسع عشر.

ويضيف: وقد أكد لي صلة القرابة بين العالمين السيد حمد بن عبد الله بن مساعد العازمي، ومما يرجع صحة انتساب الشيخ مسعيد إلى قبيلة العوازم أن القبيلة تتبع مذهب الإمام مالك، وأن الناسخين الأوائل في الكويت كانوا أكثر ميلاً للبدء بنسخ الكتب التي تمثل المذهب الذي ينتمون إليه لحاجتهم العلمية إليها. والأمثلة عديدة في هذا المجال، وضرب مثلاً بكتاب: الدرة الثمينة في مذهب عالم المدينة نظم العشماوية للشيخ عثمان بن سند العالم المالكي الشهير، وكذلك علماء من آل العدساني والقناعي والتركي (١).

### وصف المخطوطة

تقع مخطوطة الموطأ للإمام مالك كما يذكر مُعَدِّها الأستاذ محمد بن ناصر العجمي في ٣٠٢ ورقعات، وعدد سطورها ما بين ١٧-١٩ سطراً، ومقاسها ٢٠ × ٣٠ سم، وقد كتبت بخط جميل مشكول خالاً ببعض الحواشي خصوصاً في أول النسخة، وألحق فيه ما فاتته من بعض الكلمات أو السطور، وذكر في أول المخطوطة وقبل العنوان بعض الفوائد والفضائل حول الموطأ، ثم ذكر أنه برواية يحيى بن يحيى الليثي عن مالك، وأشار إلى ما اشتمل عليه الموطأ من الكتب ابتداءً بالصلاة وانتهاءً بكتاب الجامع (٢).

والنسخة من مقتنيات الأستاذ عبد العزيز حسين وقد ورثها عن والده الذي كتب عليها بخطه: «في ملك حسين بن عبد الله بن حسين، في ٢٧ ربيع الثاني سنة ١٣٤٥هـ».

هذا وقد أهداني الأستاذ عبد العزيز حسين صورة عن الصفحة الأخيرة منها وذلك في عام ١٩٨٥م عندما أهديته نسخة من كتابي: «صورة من الحياة القديمة في جزيرة فيلكا».

وفي عام ١٩٨٧م قمت بالتعريف بها ونشر الصفحة الأخيرة منها في كتابي «جزيرة فيلكا صفحات من الماضي» الذي أصدرته في العام نفسه.

وأقول - بلا فخر - بأنني أول من عرّف بهذه المخطوطة، ونشر الصفحة الأخيرة منها.



### قالوا عن المخطوطة

لفتت مخطوطة الموطأ انتباه الباحثين والدارسين، وأدهشتهم بجمال خطها وتسيقها، والأهم تاريخ نسخها ومكانه وهو جزيرة فيلكا، هذه الجزيرة التي أخرجت العديد من العلماء والرياسة طوال تاريخها الطويل.

واسم الناسخ والذي يتوافق إلى حد كبير مع الأسماء الكويتية. هذا وقد قام مركز البحوث والدراسات الكويتية بالتعاون مع الأمانة العامة للأوقاف بطباعتها ونشرها بطريقة التصوير عن الأصل بطريقة متقنة وذلك في عام ١٩٩٧م.

وصدرها الأستاذ الدكتور عبد الله يوسف الغنيم رئيس المركز مبيناً أثرها المتميز في الكشف عن بدايات الحركة الثقافية والدينية في الكويت، وبين القيمة التاريخية والفكرية لها في تأكيد وجود الكويت قبل التاريخ المعتمد سابقاً بقوله: «فقد كان مما وفق الله تعالى إليه الاهتداء إلى مخطوطة ثمينة لموطأ الإمام مالك - رضي الله عنه- من بين مخطوطات عدة احتوتها المكتبة الخاصة للأستاذ عبد العزيز حسين - يرحمه الله- وتفضلت عائلته الكريمة السماح لنا بتصويرها ونشرها إبرازاً لهذا الأثر العظيم وتعميماً لفائدته، وهي منسوخة في الكويت بخط محكم أنيق، قام بنسخها المغفور له مسعيد بن أحمد بن مساعد بن سالم في فيلكا إحدى جزر الكويت في عام ١٠٩٤هـ ١٦٨٢م».

ووجود هذه المخطوطة على أرض الكويت- إضافة إلى مخطوطات أخرى من عيون التراث الإسلامي يعود بعضها إلى عدة قرون- يدل بما لا يبقى معه خفاء ما كان لعلماء الكويت من إسهامات سبّاقة في المحافظة على التراث الإسلامي والعربي والعمل على إحيائه وصونه، ويؤكد بما لا يدع مجالاً للشك ازدهار الحياة العلمية والثقافية على أرض الكويت في تلك العصور المبكرة. ويضيف: «كما أن نسخ هذه المخطوطة في الكويت في ذلك الوقت المبكر ١٠٩٤هـ ١٦٨٢م يؤكد بكل جلاء أن وجود الكويت كياناً حضارياً مستقلاً يعود إلى ما هو أبعد مما ظنه البعض، وجعله يبدأ في منتصف القرن الثامن عشر، إذ أن كل القرائن والوثائق التي وصل إليها الباحثون في مركز البحوث والدراسات الكويتية تقطع بالوجود الكويتي منذ ١٦١٣م، وتاريخ هذه النسخة، يعزز النهج الذي اتخذته المركز لإبراز كل ما يؤكد ذلك الوجود المبكر(٣)».

وأشاد بالمخطوطة مُعدّها الأستاذ محمد بن ناصر العجمي بقوله: « فإن من صور الحياة العلمية والثقافية في الكويت الاهتمام والاعتناء بالمخطوطات ونسخها، فلم تغل الكويت منذ بداية نشأتها من نساخ المخطوطات، ومن العلماء المهتمين بهذا الفن الجميل، وإن من أقدم المخطوطات المنسوخة في الكويت «موطأ الإمام مالك» الذي قام بنسخه بخط أنيق: مسعيد بن أحمد بن مساعد بن سالم في فيلكا إحدى جزر الكويت وذلك سنة ١٠٩٤هـ الموافق، ١٦٨٢(٤)».

كما أشار إليها الدكتور خليفة الوقيان في كتابه: «الثقافة في الكويت» تحت عنوان نسخ المخطوطات قال: « اهتم علماء الكويت الأوائل بنسخ بعض الأصول التراثية والفقهية منها خاصة، وقد وصلت طائفة من المخطوطات التي نسخها هؤلاء العلماء من أهمها وأقدمها موطأ الإمام مالك قام بنسخ المخطوطة الشيخ مسعيد بن أحمد بن مساعد بن سالم والمخطوطة من مقتنيات الأستاذ عبد العزيز حسين أبرز أعلام الثقافة في الكويت، ويبدو أنها انتقلت إليه من مكتبة والده حسين التركيت، وقد أشار إليها للمرة الأولى الباحث الأستاذ خالد سالم محمد في كتابه جزيرة فيلكا صفحات من الماضي عام ١٩٨٧م(٥)».

### كيف آلت المخطوطة إلى آل التركيت؟

ربما هناك من يسأل كيف انتقلت هذه المخطوطة إلى مدينة الكويت وبالتحديد إلى والد الأستاذ عبد العزيز حسين؟ فأقول: هناك صلة نسب ما بين أسرة آل التركيت التي ينتسب إليها الأستاذ عبدالعزيز حسين وعائلة آل شعيب في الجزيرة، لذا كان الملا حسين التركيت - والد الأستاذ عبدالعزيز حسين - يتردد على الجزيرة ويلتقي بعلمائها من آل السرحان وغيرهم، حيث كان الملا عبد القادر بن حسن السرحان والد الملا معروف السرحان والمتوفى عام ١٩٠٥م يتولى إمامة مسجد شعيب وقتها، وكذلك الملا عبد القادر محمد عبد القادر المتوفى عام ١٩١٤م، وهو جد الملا عبد القادر السرحان مختار الجزيرة ومأذونها فيما بعد، كان يتولى إمامة مسجد آل مال الله في شمال الجزيرة. ومعروف أن عائلة السرحان خرج منها علماء وقضاة الجزيرة، وهؤلاء العلماء كانت - بلا شك - لديهم مكتبات تحتوي على كتب عديدة ومخطوطات ورثوها عن آبائهم وأجدادهم. أما عائلة شعيب فهي عائلة معروفة في الجزيرة ومن أعيانها، وأصحاب أياد بيضاء في عمل الخير، فقد بنى السيد شعيب بن علي - أحد رجالات الجزيرة المعروفين - أكبر مساجد الجزيرة وهو مسجد شعيب قرب بيته في وسط الجزيرة، وكان يتوارث إمامته مشايخ من آل السرحان، ويقال أن هناك مصحفاً كريماً خطه أحد أفراد هذه العائلة لم يبق منه إلا وريقات، وقد أشرت إليه في كتابي جزيرة فيلكا أشهر الجزر الكويتية الذي أصدرته في عام ٢٠٠٦م، وهذا مما يدل على أن بعض أفراد من هذه العائلة كانت لديهم بعض الكتب والمخطوطات التي توارثوها. أما عن مخطوطة «الموطأ» للإمام مالك محور البحث، فأعتقد أنها كانت ضمن كتب أحد العلماء أو خطباء المساجد في الجزيرة توارثوها جيلاً بعد جيل إلى أن آلت إلى ملكية والد الأستاذ عبد العزيز حسين إما بطريقة الشراء أو الإهداء من أحدهم.

(١) الثقافة في الكويت - الدكتور خليفة الوقيان - الطبعة الأولى ص ١١٩-١٢٠.

(٢) الموطأ للإمام مالك - إعداد - محمد بن ناصر العجمي ص ١١.

(٣) المصدر السابق ص ٥-٦.

(٤) المصدر السابق ص ٩.

(٥) الثقافة في الكويت - الدكتور خليفة الوقيان الطبعة الأولى ص ٥٢-١١٩م.

### القاص والروائي منير عتيبة: الكتابة لعبة تفكيك العالم وإعادة تركيبه

حاوره: عذاب الركابي\*

منير عتيبة قاص وروائي، له حضوره في الساحة الثقافية المصرية والعربية، استطاع أن يمد جسور التواصل مع المنابر الثقافية العربية عبر إبداعه المميز ومقالاته النقدية، وحواراته الثقافية، يتميز بلغة دافئة، وجملته قصصية رشيقة معبرة، يسعى بقلمه المثابر، وحماسه وتطلعه إلى التفرد وسط جيله الذي يراه جيلاً ناهضاً متمرداً على كل الأشكال .. جيل المقاومة والتجريب بامتياز.

هو يكتب لا ليعكس الواقع أو يصوره، وهو يجنّد أبطاله الواقعيين، ليخرج بهم إلى حقول ويساتين واقع آخر، حيث ينعمون بقسط من البهجة والراحة والخلص، وقدسية الوجود، يتحدث عنهم بلغتهم التي أبجديتها همومهم، ليسوا غريبين عنه، بل قريبون من رثتيه، وفكره، وأحلامه، لهذا تظل الكتابة عالمه الأمل، والفن كونه الموسق بتراويل أحلامه بلا انتهاء !!

#### الإبداع لعبة

■ قصة قصيرة .. رواية .. نقد .. أدب طفل .. يوميات ثقافية، قل لي أي مغامرة هذه؟ ماذا أعطتك؟ وماذا أخذت منك؟؟

- التفكير وبالتالي الإبداع في الأساس لعبة، لعبة تفكيك العالم وإعادة تركيبه عبر مروره بذات المبدع، أحب أن ألعب هذه اللعبة مع عالمي من خلال قالب القصة القصيرة الأثير لدي، لكنني أحياناً أجد نفسي مدفوعاً للعب باستخدام قوالب أخرى لأن الفكرة أو الموضوع غير مناسب للقصة القصيرة، أو للتجديد وكسر روتين الكتابة وكسر توقعات القارئ منك في الوقت نفسه. وهذا أعطاني قدرة على التصرف والحركة والكتابة من غير أن أقيد نفسي بشكل ما ألتزم به التزام الرهبان، لكن هذا أيضاً يتطلب من الكاتب التعامل مع أنماط عديدة من الكتابة بل والحركة بما يرهقه ويمثل عبئاً يكون أحياناً في غاية النقل.

\* صحفي وشاعر من العراق مقيم في مصر.



● اختزال زمن طويل  
عريض عميق في  
جنس أدبي أو شخص  
أو حالة هو ما علينا  
التخلص منه.

■ من بين فنون الكتابة المتعددة، وجدناك .. ووجدك القارئ المتابع  
منحازاً لفن القصيرة .. فما تمنحه من زمن سواء في الكتابة، أو من  
خلال مختبر السرديات وتبينك للأقلام الشابة يؤكد هذا الانحياز  
.. حدثني لماذا القصة القصيرة دون غيرها ؟؟

- لقد مارست فنونا عديدة منذ طفولتي، في المدرسة وقصور الثقافة  
والجامعة، بعضها فنون كتابية كالقصة والرواية والمقال والمسرحية والأغنية  
والشعر.. إلخ وبعضها فنون غير كتابية بالأساس مثل الكتابة الإذاعية  
والسيناريو السينمائي والتلفزيوني لأنها لا تكتمل إلا بالتنفيذ، بل جريت أن أكون مديعاً وممثلاً .. في فترة  
من حياتك تجرب كل شيء حتى تصل إلى الأنسب لك، ما تجد فيه نفسك، وأنا أجد نفسي في القصة  
القصيرة أكثر من أي شكل آخر، عرفت ذلك من الفرح الباطني الذي أستشعره عند الانتهاء من كتابة  
قصة قصيرة، لا يمكن مقارنته بما أشعر به بعد الانتهاء من أي عمل آخر، أظن أن القصة القصيرة هي  
التي اختارتني، وأنا شاكر لها ذلك، لأن فيه سرّاً وفيها شعراً وفيها عمق الحياة ذاتها.

### أبطال يعيشون معي

■ منذ صدور مجموعتك القصصية الأولى «يا فراخ العالم اتحدوا» ١٩٩٨، ومروراً بـ «حكايات  
البيباني» ٢٠٠٢ و«مرج الكحل» ٢٠٠٥ .. وحتى «حاوي عروس» ٢٠١٠ وأنت تواصل هذا النزيف  
الضروري بأصابع واقفة.. أهم أبطالك الواقعيون الذين يحاصرونك بهذا الشكل المُلح .. أم هو  
الجنون بالكتابة - هذا الانتحار الأنيق ؟؟ حدثني !!

- الكتابة عمل متعب جداً، التفكير بالكتابة والتحضير العقلي والوجداني للكتابة هو الممتع حقاً، أعتقد  
أنني أكتب لرغبة عميقة في الفهم والتواصل، أريد أن أفهم عالمي وأن أتواصل مع هذا العالم، والكتابة هي  
وسيلتي للفهم والتواصل معاً، وبالتالي فعكس ما يشاع أظن أن الكتابة هي منتهى العقل، بل إنها يامللتها  
المفاجئة للكتاب نفسه على عالم باطني غير مرئي تحدث عملية توازن نفسي كبير للكاتب ومن ثم للقارئ،  
وبالتالي فليس هذا انتحاراً، الكتابة التي تجعلني أحضر عميقاً فأفهم، وأمد يدي وعقلي وقلبي فأتواصل،  
ليست انتحاراً إنها عمر يضاف إلى عمري. أبطال لا يحاصرونني  
بقدر ما يعيشون معي، في الشارع والبيت والعمل والندوات وفي  
عقلي بالأساس، أصبح صديقاً لكل منهم بقدر أو بآخر، حتى غير  
الطليين أصبح صديقاً لهم، وبعد أن نتصادق يسمحون لي بأن  
أكتبهم، فأكتب من خلالهم نفسي.

● الإبداع العربي يسبق النقد  
العربي بخطوات، وربما ذلك  
لأن الناقد فقد تواصله  
أساساً مع تراثه النقدي  
العربي فأصبح في الغالب عالماً  
على إنتاج المدارس النقدية  
العربية.

■ يقول ألبير كامو: «والرواية نستطيع الإفلات من الواقع، وأن نقول له: لا».. أل هذا السبب يتسابق الكتاب - شعراء وقصاص ونقاد - على كتابة الرواية والتبجح بلقب «الروائي»؟.. أهي نسمة صحية في فضاء الإبداع؟ أم أنه زمن الرواية كما يردد عديد النقاد؟؟ ألا ترى أن البعض يستسهل كتابة الرواية وهي تاريخ ومخزون ومعاذة؟ ما رأيك؟

- أظن القضية مفتعلة بالأساس، أن نضع النثر أو السرد مقابل الشعر، أو نضع الرواية مقابل القصة القصيرة، ويكون ذلك اعتمادا على حجم المبيعات مثلا، فلماذا لا يكون اعتمادا على عدد مرات القراءة على الإنترنت؟ أظن سبب افتعال مثل هذه القضايا هو عدم إيماننا العميق بالديمقراطية، الديمقراطية حديثة تسمح لكل الزهور بأن تتفتح، كل زهرة على حسب قدرتها على نشر العبير، لكننا عندما نسقي زمن الرواية نلغي باقي الأجناس أو نهملها، كما نقول زمن أم كلثوم فنلغي العمالقة الذين كانوا في نفس هذا الزمن، أظن أن هذه الاختزالية، اختزال زمن طويل عريض عميق في جنس أدبي أو شخص أو حالة هو ما علينا التخلص منه، وبالتالي لا مقارنة بين الرواية والقصة أيهما أصعب وأيها أسهل، لأن ما يكون سهلا لشخص هو صعب لآخر، ثم أنه ما مقياس السهولة والصعوبة نفسه، أنا كقارئ أريد رواية أو قصة أو مسرحية.. إلخ جيدة بصرف النظر عن كل هذا الحبر الضائع في الحديث عن زمن كذا ومقارنة كذا بكذا.

### نقادنا بحاجة إلى كيان يجمعهم

■ والنقد؟ لماذا هو متهمة دائما بالتقصير من قبل المبدعين؟ ما رأيك بما يكتب من نقد؟ هل لدينا حركة نقدية عربية جادة؟ من ناقدك الأمثل مصرياً وعربياً وعالمياً؟؟ -أظن أن الإبداع العربي يسبق النقد العربي بخطوات، وربما ذلك لأن الناقد فقد تواصله أساسا مع تراثه النقدي العربي فأصبح في الغالب عالة على إنتاج المدارس النقدية الغربية، وليس هذا لأننا لا نستطيع أن يكون لدينا نقادنا ومدارسنا المستدة إلى تراثنا والمستفيدة من المنجز الغربي والشرقي معا، ولكن لأننا لا نريد، نفضل الجاهز السهل، كما أن الإبداع المتدفق حاليا بعد حل أزمة النشر أصبح معه من المستحيل على الناقد أن يتابع كل ما ينشر، وبالتالي فسيظل مقصرا تجاه شخص ما، أنا لا أتهم نقادنا لكنني أفضل أن يكون هناك كيان ما يجمعهم وأن يتم التعامل مع الإبداع بشكل منظم.

■ كمبدع.. ومحرر في مجلة ثقافية كـ «أمواج» لها حضورها في الساحة الثقافية المصرية .. كيف تقيم صحافتنا الثقافية العربية؟ يراها بعض المبدعين صحافة فقيرة بسبب المجاملات.. وتبادل المنافع؟ ماذا ترد؟ وماذا تقترح لوجود صحافة ثقافية تؤسس لإبداع جاد.. وتواصل مستمر؟؟

- لا تخلو صحافتنا الثقافية العربية من المجاملات، وحتى نسبة معينة المجاملات تكون مقبولة، لكن غير المقبول ما تقوم به بعض المجلات من تجاهل مبدع لحساب آخر، أو تلميع مبدع على حساب آخرين

بصرف النظر عن قيمة هذا أو ذاك، لكن الصحافة الثقافية العربية التي أتبعها في مجملها جيدة، وما ينقصها يمكن استكمالها، لكن النقص الأخطر هو في عدد هذه المجلات، أن تستطيع أن تعدها على أصابع اليد الواحدة، لو زاد العدد يمكن أن يحدث القافز ارتفاعا بالمستوى، كما أتمنى أن تكون هناك مجلات متخصصة ومجلات شديدة التخصص إضافة للمجلات ذات الاهتمام بالشأن الثقافي العام، لأننا بحاجة إلى كل هذه الأنواع التي تصب في النهاية في صالح بعضها البعض.

• حاولت وأعضاء مختبر السرديات أن نقدم نموذجا للندوة الأدبية الجادة التي تتفاعل مع الجمهور المثقف وفي نفس الوقت تناقش المنتج الثقافي بعمق يعود بالفائدة على المبدع والناقد والقارئ معا.

### مختبر السرديات .. تواصل فعال

■ ومشرف مثابر على مختبر السرديات في مكتبة الإسكندرية .. ماذا أضاف هذا المختبر للفضاء الثقافي الإسكندري - المصري على المستوى الإبداعي والنقدي ؟؟

- حاولت وأعضاء مختبر السرديات أن نقدم نموذجا للندوة الأدبية الجادة التي تتفاعل مع الجمهور المثقف وفي نفس الوقت تناقش المنتج الثقافي بعمق يعود بالفائدة على المبدع والناقد والقارئ معا، مع عدم تجاهل الجانب الإعلامي في التعريف بأنشطة المختبر ومبدعيه ونقاده، وكذلك إحداث حراك ثقافي بمزيد من التواصل بين المبدعين من محافظات مصر المختلفة وكذلك من الدول العربية وأحيانا الأجنبية، تواصل حميم وفعال أظنه أثمر ويثمر إلقاء الضوء على مواهب تستحق ذلك واكتشاف مواهب أخرى إبداعية ونقدية.

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

■ للحصول على الجائزة الأدبية .. وتكريم المبدع أهو بداية لعالم شبه سحري ؟ ما الذي تعطيه الجائزة للمبدع ؟ أهى عيب عليه كما يراها البعض أم دافع للمزيد من الإبداع ؟؟

- إنسانيا الجائزة شيء عظيم، فالكاتب كأي إنسان آخر يسعد إذا شعر أن هناك من يقدره ويثمن عمله. أما على مستوى الإبداع فالجوائز لا تكون عائقا أو دافعا للإبداع إلا وفقا للطريقة التي يتعامل بها كل مبدع مع الجائزة، فقلن تقف جائزة ضدك إذا قررت أن تكتب، ولن تفيدك الجائزة شيئا إذا جلست أمام شاشة الكمبيوتر لتكتب ولم يكن لديك ما تكتبه، لذلك أرى أن التعامل مع الجوائز على المستوى الإنساني فقط هو الوسيلة الأسلم لي على الأقل.

■ «أسد القفقاس» آخر رواية صدرت لك، و«حاوي عروس» آخر مجموعة قصصية لك .. بماذا تفاجئ القارئ .. وما الذي ينضج تحت ثيران أصابعك للأيام القادمة ؟؟

- أكتب منذ عامين رواية تاريخية، انتهيت من الفصل الأول خلال هذين العامين، وهي مدة طويلة لفصل واحد من رواية، لكنني غير متعجل، فلأخذ وقتها ولئر، أنا أيضا معكم أنتظروا



## بطاقة إبداعية

- عضو اتحاد كتّاب مصر
  - عضو اتحاد كتّاب الإنترنت العرب
  - محرر مؤسس لمجلة - أمواج في الإسكندرية
  - مشرف على مختبر السرديات - مكتبة الإسكندرية
- صدر له :

- يا فراخ العالم اتحدوا - قصص ١٩٩٨ القاهرة
- حجايات البيباني - قصص ٢٠٠٢ القاهرة
- الأمير الذي يطارد الموت - قصص ٢٠٠٠ القاهرة
- مرج الكحل - قصص ٢٠٠٥ القاهرة
- كسر الحزن - قصص ٢٠٠٧ القاهرة
- حاوي عروس - قصص ٢٠٠٦ القاهرة
- حكايات آل غنيمي - رواية ٢٠٠١ القاهرة
- أسد القفاس - رواية بيروت ٢٠١٠



## للأطفال :

- تعال نلعب ونقرأ - مسرحية ٢٠٠٣ القاهرة
- شقاوة أوشا - قصص ٢٠٠٦ القاهرة

## الجوائز :

- جائزة إحسان عبد القدوس في القصة القصيرة ٢٠٠٨
- جائزة ساقية الصاوي في القصة القصيرة ٢٠٠٦
- جائزة جمعية الأدباء في القصة القصيرة ٢٠٠٦
- جائزة مجلة هاي الأمريكية في القصة القصيرة ٢٠٠٥
- كرمته عديد المؤسسات الثقافية والإعلامية والصحفية

## في مركز التسوق

بقلم: د. أحمد زياد محبك \*

دخلت إلى جانبه في السيارة، وقبل أن يضع حزام الأمان أقلع بسرعة كبيرة.  
قلت له وأنا أضغ حزام الأمان:  
إلى أين؟

أجابني، وهو يشد حزام الأمان بيد، ويده الأخرى على المقود:  
عندما تصل ستعرف.

هو صديق العمر، أكاد أقول ولدنا معاً، صداقة لا مثيل لها، ولا يمكن أن تتكرر، من الثانوية إلى الجامعة، نحن معاً، ثم هاقد مرت خمس عشرة سنة، ونحن في مكتب واحد، مهندسان في مركز واحد ومكتب واحد في قسم التصميم والمخططات، ونسكن معاً في عمارة واحدة، شقتي بجوار شقته، وزوجتي أخت زوجته، مرت بنا حالات من الاختلاف، هذا أمر طبيعي، ولكن ما تحولت قط إلى خصام.  
إلى أين يقود بهذه السرعة، ها نحن نغادر المدينة.

اليوم نزل على بطاقة الاعتماد التعويض السنوي من الشركة، هذه أول مرة نتقاضى فيها مثل هذا التعويض، كاد يبلغ رواتب ثلاثة أشهر، ما وصلت التعويضات السنوية في الأعوام السابقة إلى ما يقارب راتب شهرين، طبعاً هو التضخم، وزيادة العوائد للشركة والأرباح، ولكن المبلغ حقيقة جيد، هل سيمضي بي صاحبي إلى خارج الريف في طريق مهجورة ثم يسلمني هناك بطاقة الاعتماد، وقد نزل عليها التعويض؟ هو يعرف الرقم السري لبطاقتي، وأنا أعرف الرقم السري لبطاقته، بين بطاقتي وبطاقته فرق في رقم واحد وحرفين اثنين فقط، أي جنون هذا؟ أسخر من نفسي؟ ما هذه الفكرة؟ ولماذا هذه السرعة الجنونية؟ لا أكاد أصدق، هل هو حلم؟

تكلم، أسمعني صوتك؟

لا أعرف ماذا سأقول؟

تكلم على أي شيء، ولكن لا تسألني إلى أين سنذهب.

هذا يعني ألا أتكلم.

تكلم، سأعطيك مفتاح الكلام، سنذهب إلى مركز التسوق التجاري، وهاقد وصلنا، فكّر الآن بقائمة المشتريات، أو لا تفكّر، كل شيء ستجده أمامك، ولكن سنتناول أولاً الغداء في المطعم الدوّار، هذه دعوة مني، ونتناول الرطبات، أيضاً، ثم نمضي بقية اليوم في التسوق، سأشتري المركز كله، لا أعرف ماذا سأفعل بالبلغ الذي نزل اليوم في بطاقة الاعتماد.

طلب صديقي، وأكاد أقول شقيقي، كمية هائلة من اللحوم والخضروات والفواكه، فوجئت، لا أعرفه نهماً، أعرف جيداً أنه لا يأكل إلا القليل، سافرنا معاً، دُعينا معاً إلى ولائم كثيرة، حضرنا مناسبات كثيرة، كأنني أتعرف إليه اليوم أول مرة، هل يريد أن يتفق المكافأة كلها والتعويضات؟ مهما أنفق فلا يمكن أن

\*أكاديمي وقاص من سوريا.

ينفق المبلغ كله على الطعام، طلب كمية إضافية من اللحوم والمقبات والخضراوات والفاكهة، يخيل إلي أن الدهشة نالت من عامل المطعم، حُيِّل إلي أن أصحاب الموائد المجاورة قد دُهلوا من كميات الطعام التي ملأت المائدة، ولعلمهم أشفقوا على أحدنا، فثمن الطعام الذي على المائدة لا شك كبير، وبخلاف عادته، أكل صاحبي كثيراً، أكل حتى كدت أقول له هذا يكفي، لكنه أكل كأنه لم يذق طعاماً منذ سنة، حين جاء عامل المطعم بورقة الحساب، ترك له أغطية كبيرة.

عرضت عليه تأجيل المرتبات، لكي تقوم بجولة أو جولتين في أجنحة مركز التسوق التجاري، بعد أن ينال منا التعب يمكن أن نتناول المرتبات.

فور دخولنا إلى أول جناح، وهو جناح الألبسة الخاصة بالرجال، اشترى ثلاث بدلات، وخمس ربطات عنق فاخرة، ومעطفاً شتوياً، وثلاثة أحذية، عنده أربعة أولاد ذكور، أنا عندي ابنة وصبيان، أكد لي أنه يعرف المقاسات، اشترى لكل ولد ما يكفيه عامين، اشترى للصيف وللشتاء، دخل جناح الألبسة النسائية وهو يدفع عربته، اشترى لزوجته أربعة أحذية وحقيبتين لليد ومعطفاً غالياً جداً من الفرو، وخمسة فساتين، وقمصين حريريين، ما كنت أعرف فيه هذا الذوق، وهذا الكرم.

في جناح التحف والهدايا اشترى خمس لوحات جدارية صغيرة جميلة جداً، ينمُّ بعضها بعضها الآخر، يمكن وضعها متسلسلة في بهو منزله، وهي تمثل حداثق يابانية صغيرة، اشترى شمعداناً برونزياً تقليدياً يعود في نمطه إلى القرن السابع عشر، أعرف شقته تغص بالتحف والهدايا، ولكن لا أعرف فيه مثل هذا الانفجار في حب التسوق دفعة واحدة، لا شك في أن الرجل يودع الدنيا، وأنه يظن نفسه سيموت غداً، فهو يريد أن يحصل على كل شيء، وأن ينفق كل شيء.

عربة التسوق، وهي من النوع الكبير، امتلأت إلى نصفها، عرضت عليه مساعدته في دفعها، فأنكر علي ذلك، وقال: «هل تريد أن تحرمني من متعة التسوق».

المكافأة التي نزلت في بطاقة الاعتماد والتعويضات كانت كبيرة، ولكننا لم نحصل عليها بسهولة، طوال العام كنا نكد ونعمل ونداوم أربع ساعات إضافية، بالإضافة إلى عملنا في يوم العطلة، المكافأة والتعويضات من مستحققاتنا، ولا مبرر لتبذيرها في ليلة واحدة، لا أعرف هل يودع صاحبي الدنيا؟ هل يحس بدنو أجله؟ كأنه يريد أن ينفق الرصيد كله؟ أعرفه حق المعرفة معتداً في كل شيء، وصاحب عقل راجح، أكثر مني، أنا أندفع أحياناً، ولكنه أكثر مني ضبطاً لمواقفه، وهو رب أسرة، أب لأربعة أولاد، وأنا أب لثلاثة، وهذه بعض نقاط الاختلاف، وزوجته عاملة وزوجتي ربة بيت، وهما شقيقتان، أعرف زوجته تدفق معه في الحساب، تسأله عن راتبه، كم أنفق منه، وماذا بقي، أما أنا فلا تتدخل زوجتي في شيء، وأعرف أنه هو الذي يتسوق دائماً، وليست هذه أول مرة، فليس لدى زوجته اهتمام بالتسوق، بخلاف زوجتي التي تتولى بنفسها شراء كل شيء، وأنا أعتمد على ذوقها، وأترك لها الراتب كله لتصرف به كما تشاء، ولا أستبقي لنفسني غير أجرة المواصلات، وثمن كتاب بين حين وآخر، ربما كل شهرين أو ثلاثة مرة.

حين جر عربة التسوق قال لي ألا تريد أن تجر عربة، قلت له: لن أشتري شيئاً، أنا، زوجتي تتكفل بكل شيء، فأضاف معلقاً: «ولكن إذا حدثك نفسك بشراء شيء فلن أسمح لك بوضعه في عربتي»، قلت له: «اطمئن، أعدك، لن أتسوق شيئاً».

تناولنا المرتبات، ونحن نأمل عربة التسوق، وقد ملأها إلى جوار الألبسة واللوحات والهدايا



بالخضراوات والفواكه والمعلبات، وأكياس الأرز والسكر والدقيق، ملأ العربة بكميات كبيرة من الأطعمة، تكاد لا تصدق، كأنه صاحب مطعم، يتزود لمطعمه بما يكفيه سنة، لا حظت أن بعض من في المركز كانوا يرمقون العربة بعين الدهشة، كأن الرجل يتوقع قيام الساعة أو حدوث كارثة أو قيام حرب وإغلاق الأسواق وحدوث مجاعة، المعلبات وحدها التي اشتراها يمكن أن تكفي أسرته عدة سنوات، لا أعرف كيف امتلأت عربة التسوق.

أبى إلا أن يدخل إلى جناح المفروشات والستائر والسجاجيد، شقته مفروشة بالسجاجيد من باب الشقة إلى الشرفات، حتى أرض المطبخ مغطاة بسجادة كبيرة من قطعة واحدة، اختار سجادتين فارسيتين قديمتين ثمنهما في الحقيقة باهظ، استهلك نصف المكافأة، قال لي من غير أن أسأله: زوجتي تلح علي منذ زمن، تريد شراء مثل هاتين السجادتين.

صاحبي ليس مريضاً بأي مرض جسدي، ولا نفسي، ولا يتوقع أن يموت غداً، وما هو بالفقير، فقد نشأ في أسرة غنية، لا أعرف في الحقيقة دافعه إلى هذا الجنون، ضخامة المبلغ وحدها لا تبرر هذا الاندفاع، يريد أن يحصل على كل شيء، عرضت عليه أن نستريح قليلاً قبل المغادرة في المقهى، ونحسني الشاي، سره العرض كثيراً، ولكن أصر على أن يكون هو الداعي، طلب سيكارة فاخراً وأخذ يدخن بشراهة عجيبة، أعرفه لا يدخن على الإطلاق، لا أكاد أصدق، أحياناً يبدو الواقع كالحلم، وأحياناً يبدو الحلم كالواقع، بل أجمل، هل أنا في حلم؟

عربة التسوق أمامنا مثل هرم، أعتقد أنها أصبحت محط أنظار الجالسين في المقهى، وأنها حركت خيال كل واحد فيهم.

التفت إلي فجأة وقال:

انظر إلى تلك الدمية التي تبدو في واجهة المحل وراء العربة مباشرة.

<http://Archivebeta.Sakhrir.com>

قلت له:

لباس البحر الذي ترتديه مثير جداً، أوافتك على شرائه.

قهقه ضاحكاً، ثم قال:

لم أفكر في لباس البحر، فكرت في الدمية، أود شرائها ووضعها فوق عربة التسوق، أتفيلها مستلقية فوق العربة، وأنا أدفعها في المركز التجاري، ولكن للأسف، هي للعرض، ليست للبيع.

أدركت أن الوقت قد حان لمغادرتنا المركز، سألت الدليل عن أقرب منفذ يقودنا إلى البوابة رقم سبعة حيث دخلنا، وحيث ركن صاحبي سيارته قبل وصولنا إلى البوابة لمحت واجهة مكتبة، قلت لصاحبي:

ما رأيك في الدخول إلى المكتبة؟

نظر إلى عربة التسوق، ثم قال:

الحقيقة، لا موضع فيها لأي كتاب، انظر، وعلى كل حال، فقد نال مني التعب، وأحس أنني سأنام، ولا أستطيع التجول في المكتبة، وهي كما ترى ليست مكتبة، إنما هي جناح للكتب، وبعد ذلك نغد رصيدي. الذي أدهشني أننا نتعامل هنا ببطاقة الاعتماد، ولكن كيف وصلت إلى أيدينا، هذه أول مرة نتعامل فيها ببطاقة الاعتماد، رواتبنا دائماً نقبضها من معتمد الرواتب، نحضرها في جيوبنا، ولا نخشى عليها السرقة، لأنها ليست كبيرة.

قلت له:

. هنا عند البوابة مقعد للاستراحة يمكنك أن تقعد، لن أبحث، سأسأل عن كتاب، لن أتأخر أكثر من خمس دقائق.

بعد ساعة، أو أكثر، خرجت من المكتبة، مرهقاً، أدفع أمامي بصعوبة عربية مملوءة بالكتب، بل الكتب يعلو فيها بعضه بعضه كالحرم، استنفدت فيها . وأنا لا أكاد أصدق حرصي كله.  
وجدتُ صاحبي مستلقياً على طوله فوق المقعد، أشفقتُ عليه، أسرعتُ إليه، حسبته نائماً، لم يكن نائماً، نهض، سألته:

. أين العربية؟

أجاب ببساطة، وهو يضحك:

. راحت.

. كيف راحت؟

. يبدو أنني غفوت، انتهت، فلم أجد العربية أمامي، سرقها أحدهم، خرج بها بكل هدوء.

. وماذا ستفعل؟ هيا نتصل بشرطة المركز، هناك كاميرات مزروعة في كل مكان.

ضحك، علّق:

. لن أفعل أي شيء، أنا سعيد لأنها سرقت، أنا مللت، مللت، كل يوم شراء، كل يوم، أصبحت مجرد بطاقة اعتماد، أردت أن أشتري لهم ما يكفي سنة، والآن ارتحت، لا شراء، ولا بطاقة.  
حدقت في عيني، وجدت فيهما الفرح الحقيقي، فكرت لحظة، ثم قلت له:

. ليت أحداً يسرق عريتي.

ضحك، قهقهه، علّق:

. أتركها، عريتك لا يسرقها أحد.

قلت له:

. سأتركها، ولن أرجع بعد اليوم إلى مركز التسوق.

غادرنا مركز التسوق، انطلق بالسيارة، ثم فجأة رفع يديه عن المقود، لوح بهما في فضاء السيارة، ثم ضاعف من السرعة، وهو يصيح:

. أهنتك، قرار حكيم، أنت تركت العربية بإرادتك، أنت أكثر جرأة مني، هذه هي الحرية.

أستيقظ على رنين الهاتف إلى جوار سريري، أرفع السماعة، وأنا في الفراش، وإذا هو صاحبي، يسألني:  
كيف نمت الليلة الماضية؟

. نمت بشيabi، من غير عشاء، حتى إنني ما استحمت، التعب هدني، زوجتي شغلت عني بترتيب المؤونة في خزائن المطبخ.

. وأنا مثلك، لولا أنني خلعت حذائي وراء الباب، لكنت نمت بالحداء، زوجتي تركتني ونامت عند الأولاد، شغلت كما قلت مثل زوجتك بالمؤونة، خرقت في المطبخ، مثل أختها، وترك \* شاعر من الكويت. ٤  
لاحظت تعبني، فتركنتي أنا وحدي.

. سائق التاكسي كان أذكى منا .

. ما غاظني إلا هو، وقف يتفرج علينا ونحن ننزل الأكياس من صندوق السيارة، وأخذ يسخر منا، قال: لو اشترىتم هذه المواد التموينية من السوق المجاورة لكنتم وفرتم أجرة التاكسي، الفرق بين أسعار المركز التجاري وأسعار السوق بسيط، فرق وهمي.

. كلامه صحيح، لا يمكن شراء شيء من المركز التجاري غير الأطعمة والمواد التموينية، ذهبنا إلى الفرجة، ولم يبق فينا قوة، هلكنا من الفرجة والتجوال، وطار الراتب كله، وما بقي معنا غير أجرة التاكسي . فوق هذا، زاد قهرنا، رأينا أشياء جميلة، لا يمكن شراؤها، كلها أجنبية مستوردة، وأسعارها نار، أنا رأيت بدلة مناسبة لي، ولكن ما قدرت حتى على التفكير في شرائها .

. ليتنا تناولنا في المركز فتجان قهوة على الأقل، التعب هُنا .

. أنا دعوتك إلى العشاء، وأنت اعتذرت، قلت جئنا للفرجة، لا للأكل .

. وأنت حرمتني حتى من السؤال عن كتاب كنت أحلم بشرائه .

. الشهر القادم إذا قبضنا المكافأة السنوية وتعويضات العمل الإضافي سأدعوك إلى العشاء في المطعم الدوار، سأشتري لنفسني عشر بدلات، لا بدلة واحدة، وسأشتري لك الكتاب الذي كنت تحلم به، بالله

عليك، قل لي ما هو؟

. المختصر في تاريخ البشر .

. سأشتري لك ألف كتاب، سأملأ لك عربة التسوق بالكتب .

أقول له:

. وسيكون عندك سيارة، وستذهب بها إلى السوق وبها نرجع، وتقود أنت بسرعة .

يلقى:

. لأ، هذا أكثر مما أحلم به، طوال عمري ما تمنيت سيارة، ولا حلمت بها .

. لا يعرف أنني حققت بالحلم كل ما تمنيته أنا وكل ما تمناه هو، بل أكثر .

. كان الحلم أجمل .



## قصة

### امراة تريد أن تحب بقلم: سليمان الحزامي\*

رمت بنفسها على السرير لتنام بعد أن أغلقت هاتفها النقال بعد مكالمه جاءت لها بالخطأ، قال لها :  
ألووو أنت ليلي ، فقالت بعفوية وهي تتذكر عمرها الذي شارف على الخمسين: نعم أنا ليلي، فقال لها  
لكن الصوت مختلف! ضحكت وهي تقول: إذن عليك أن تبحث عن ليالك وتتركي لأنام ، وأغلقت الهاتف  
وأخذت تفكر من هو هذا الشخص، نظرت إلى الرقم قبل أن تغلق هاتفها ويبحث في الذاكرة عن هذا  
الرقم أو صاحب هذا الرقم من يكون، وكيف عرف تليفونها! وأرادت أن تمسح الرقم من ذاكرة التليفون  
ومن ذاكرتها لكنها لم تستطع، لكنها ببساطة بعد أن أغلقت الهاتف أخذت تردد بينها وبين نفسها ...  
الرقم يبدأ بكذا وينتهي بكذا وجدت أن الرقم جديد عليها لم تستلم مكالمه بهذا الرقم إطلاقاً، وأخذت  
تؤكد هذه النظرة إلى نفسها من خلال تذكرها الرقم فهو يبدأ ب تسعة وينتهي ب تسعة إذن هو هاتف  
نقال!! من يكون؟ حاولت أن تبحث بذاكرتها حول الأهل والأصدقاء والصديقات وحتى أولئك الشباب  
الذين ارتبطت معهم بعلاقة عاطفية قبل أكثر من عشرين سنة، عندما بدأت الهواتف النقالة تنتشر  
وجدت أن ذاكرتها لا تمدّها بأي نوع من الإسعاف أو الإنقاذ في البحث عن هذا الرقم، وأخذت تفكر حتى  
غلبها النعاس، واستيقظت في الصباح، وتفاجأت أن لا يزال ذات الرقم قد نقش في ذاكرتها واستعدت  
للذهاب للعمل وأخذت سيارتها لتتطلق، وما إن حركت السيارة رن الهاتف النقال ولم تلحظه، الرقم قالت  
بعفوية: نعم، وجاءها نفس الصوت، فكما أن الرقم قد انطبع بذاكرتها فإن الصوت لصاحب الرقم قد  
رسخ في أذنيها وبحركة لا شعورية قالت: قلت لك أنا لست ليلي التي تبحث عنها، فقال بشيء من الإصرار  
أنت من أبحث عنها وفاجأها: أنت الآن تسيرين أمامي، أنا أقول السيارة ربما الثانية أو الثالثة ولكنها  
ليست الأولى، فأنا أراك من المرأة الجانبية للباب الأيمن، انظري .. انظري إنني أراك الآن وأنت تدورين  
برأسك وعينيك للبحث عن صاحب التليفون، قاطعته قائلة: ماذا تريد؟

قال لها: أدعوك إلى فنتجان من القهوة أو من الشاي في المقهى القادم على الطريق في بداية دخولي  
المدينة سوف أقف عند مقهى يسمونها كوسيكاه وهو مقهى فرنسي يقدم فطوراً فرنسياً وأنا أدعوك لهذا  
الفطور، قالت وهي ما تزال تبحث بعينيها عن هذا المتحدث: لقد اعتدت أن أخرج من البيت بعد أن أتناول  
فطوري .. فأنا لا أرغب في أي نوع من الفطور وعلي أن أذهب إلى مكنتي الآن، فالوقت متأخر.  
وتأخر بالقيادة وهذا السرعة حتى رآها بالمرآة بعد أن صارت خلفه تماماً، قال لها مفاجئاً: أنا الآن أسير  
أمامك فهذه سيارتي البيضاء وأنت سيارتك سوداء، سبحان الله، أرجو أن لا نكون متناقضين في الطباع  
فردت عليه بحزم هذه المرة: ماذا تريد أنا لست من اللاتي تفكر بهن اتركني من فضلك لا شأن لك بي.  
قال بإصرار هو الآخر سأتركك الآن، ولكن لا بد من أن تتناولتي معي فطوراً أو غداء أو عشاء هذا رقم  
هاتفي أمامك في هاتفك وأعتقد أن هاتفي قد رسخ رقمه في ذاكرتك فأنت لن تنسي هذا الرقم، وجدت  
نفسها وبدون شعور وبالذراع كامل تضغط على زر إنهاء المكالمه.

عندها أخرج يده من نافذة السيارة مودعاً وانطلقا بسرعة مذهلة بين السيارات واختفى نهائياً من

\*كاتب من الكويت.

الطريق وهي الأخرى أيضاً ويدون شعور تضغط على هاتفاها وسمعت صوته يقول: ألو، فعادت إلى إغلاق الهاتف، بعد دقائق وصلت إلى مقر العمل ووجدت شخصاً يبدو عليه أنه من طبقة ذات مستوى معين وشكله جميل، قال لها: ليلي؟ فارتجفت وهي تقول أرجو أن لا تكون أنت .. إنه شخص متطفل أخذ يكلمني بالهاتف .. ولماذا لا أكون أنا، فهل من عيوب ليلي إن الصدفة تلعب في حياة الإنسان ليس دوراً واحداً بل أدواراً .. وأنا وأنت مررنا بهذه الأجواء المختلفة والمتوعة، والدور هذا بالنسبة لي هو دور المشهد الأخير، نعم المشهد الأخير قبل أن تدخلني إلى مكتبك لتزاولي عملي، أنا أقول لك إنني وجدت نفسي أضع نهاية لحياتك وحياتي، أنت تبحثين عن الحب وأنا أبحث عن امرأة تحبني بقدر ما أحبها ولي رأي أن الحب يقع أمام الإنسان بدون إعلان، فالحب الذي يولد بشكل مفاجئ يكون حباً قابلاً للتمو، فأقول لك يا ليلي أريد أن أتقدم للزواج منك وقد عرفت من حياتك وعرفت عن حياتك الشيء الكثير، أعرف أنك يتيمة الأيوين وإنك امرأة نظيفة السيرة .

وأخذ يسهب في وصف ليلي وصفاتها الأخلاقية والجمالية حتى وجدت نفسها تقول له: ماذا تريد حتى اسمك لا أعرفه .

قال لها وعيناه تدور حول وجهها متفحصة وفرحة: اسمعي يا ليلي، معرفة الاسم لا يعني الحب ومعرفة عدم الاسم سهل، لقد عرفت اسمك خلال أقل من خمس دقائق، سألت حارس العمارة عن السيارة هذي من يملكها؟ فقال: الست ليلي، وعرفت منه كل ما يحيط بحياتك لأنني جئت خاطباً راعياً في الزواج منك فأختصر الطريق، وجدت في صوتك بالنسبة رغبة مكبوتة عن عدم الإعلان عن أنك امرأة عاطفية وأنت في انتظار ذلك المحب وأنت في نفس الموقع وجدت أن من ترغيبين بالارتباط به هو أنا .

أقول هذا الكلام ليس من باب الغرور، لكن فعلاً لا أعرف الحب لا يعرف المواعيد ولا يعرف الأماكن ولكنها تظل في الذاكرة .

الآن ؟ ألا تعتقدين أنك كنت امرأة تبحث عن الحب؟  
وبعزاة غير طبيعية ردت عليه: هل نتحدى سوياً اليوم؟  
ضحك بصوت خافت وهو يقول: بهذه السرعة؟  
فقالت: لقد عرفت السر، فلك أن تتمتع بهذا السر، نعم لقد بلغت سنوات طويلة أبحث عنك أنا فعلاً .. امرأة تبحث عن الحب .

قال لها: اسمي عثمان وسأتيك لتتناول الغداء سوياً، فأنت فعلاً امرأة تبحث عن الحب وقال متردداً: ليلي أكون أنا من تبحثين عنه .

ومدت يدها له وهي تقول : مع السلامة يا عثمان .  
فقال لها وهو يأخذ يدها بين كفيه: لقد وصلت إلى الحب، والمحافظة على الحب أيتها الجميلة أصعب بكثير من امرأة تبحث عن الحب .

## قصة

### الرحلة

#### بقلم: د. علياء الداية\*

دعوة للإقامة والسياحة والمعيشة لمدة ثلاثة أشهر. هذا رائع! لقد نجحنا أخيراً في الاتصال بهم ويبدو أنهم ودودون يحبون استقبال الآخر والتعرف عليه.

لم نكن نتوقع أن محطة التقوية التي تركناها في بلوتو ستكون ذات فائدة، كنا نشعر بنوع من الحزن والأسف لأن مجمع علماء الفلك اتخذ قراره بإخراج كوكب بلوتو من المجموعة الشمسية، نظراً لأنه أصغر من أن يسمى كوكباً، كما أن مساره في الدوران حول الشمس ليس ثابتاً. ولكننا كمجموعة باحثين احتفظنا بصلاتنا السابقة بهذا الكوكب، ونجحنا في إقناع إدارة وكالة الفضاء بأن منشأتنا ومشاريعنا تبقى ذات فائدة طويلة الأمد.

كان سكان الكوكب البعيد في مجموعة سحابة البعد أيضاً قد التقطوا إشاراتنا التي نبثها عبر وحدتنا إلى الفضاء الواسع. كنا نوجه بعض الإشارات إلى جهات عدة، ونوجه واحدة منها باتجاه بلوتو، حتى تلتقطها محطة التقوية وتعيد إرسالها في عدة اتجاهات، لعلها تكون أقوى وأبعد تأثيراً. وهذا ما تم، التقطت سكان كوكب ٨٨. إشارة واحدة، كانت كافية ليفكوا الشيفرة ويوافقنا بإشارات أكثر قوة، وكان نظامهم التواصلي من التقدم بحيث أعطونا الترددات اللازمة لتتواصل معهم عبر محطة التقوية من دون شك في وصول الرسائل.

أرسلوا لنا عدة صور من كوكبهم، اضطررنا من أجل مشاهدتها إلى استخدام عدة أنواع من الأشعة حتى أفلحنا في استنتاج النوع المناسب لتظهير الصورة بالحاسوب. المهم في الأمر أنها صور تشبه الأرض إلى حد كبير. لمنا في بعض الصور «أشخاص» هنا وهناك بين الأشجار، أو على ضفة النهر. نعم، كانوا أشخاصاً لا يختلفون في مظهرهم عن سكان الأرض.

قررنا قبول الدعوة، ثلاثة أشهر زمن ممتاز للبحث ولاستكشاف الآخرين، نحتاج أسبوعاً لرسم الخطة وترتيب بدلاء عنا في الوحدة هنا داخل الوكالة، ونكون جاهزين. كانت إدارة وكالة أبحاث الفضاء مترددة في إرسالنا، ولكن النفقات كانت لا تتعدى تشغيل الصاروخ وإطلاق الكوكب، مع بعض المتابعة من زملائنا هنا في وحدة الإطلاق. أما نفقات المعيشة والبحث العلمي فسيتكفل بها مضيفونا في كوكب ٨٨. وقد علمنا أنه يشبه الأرض كثيراً، فلا حاجة لنا بأنابيب أوكسجين أو أية مرشحات للهواء، حتى الملقط يشبه طقس الأرض، صيفاً وشتاء، الرياح والأمطار والبحار والأنهار...

جميعنا كنا نشعر كأننا في حلم، وقال لي زميلي ساخرا: مادام كوكبهم يشبه الأرض، فلماذا نسافر إليه؟ فلنذهب في رحلة إلى أي مكان هنا في العالم، الأمر سيان! أما أنا فتذكرت جدتي التي تقضي كل ثلاثة أشهر عند أحد أبنائها في مدن مختلفة في العالم. سأحظى إذن بهذه الرفاهية أنا أيضاً، ولكن عبر الفضاء. باقي الزملاء كانوا متحمسين، فرحلات العمل، على الرغم من أنها محشوة بالأوراق والجداول والبرامج الإلكترونية، فهي أخف وطأة من التزامات العمل ومواعيده الصارمة كل يوم وكل ساعة.

كنا مهيين بطبيعة تدريباتنا الدائمة لارتياح الفضاء، اللياقة والاستعداد الذهني والنفسي، والعلمي أيضاً. ستة باحثين مؤهلين لهذا العمل. أطلق الصاروخ، ثم انفصل الكوكب عنه، ونحن فيه طبعاً. المشهد رائع من الأعلى، الأرض الكوكب الأزرق. كنت أحس بالسعادة لانفصالي عن هذا الكوكب، شعرت أن الشوق إليه سيكون إحساساً غير واقعي. هناك فرح غامض بالتخلص من التزام العمل، ورؤية الأشياء الرتيبة كل يوم، الطعام نفسه، والأشجار نفسها، وحتى الغيوم والسماء نفسها. حان وقت لتقليل من التغيير. الزملاء

\*كاتبة من سوريا



يشاطرونني الرأي، كنا جميعاً نوافقين إلى شيء ما خارج الكوكب حقاً. حين وصلنا إلى كوكب ٨٨٠ استقبلنا عالم ذو هيئة بسيطة، ولحية مدببة وشارب أبيض، وقليل من الشعر على رأسه. وكما تتوقعون، كان يلبس معطفاً أبيض أشبه بمعطف الأطباء، أما المساعدون فكانوا في القاعة الواسعة من حوله، منكبّين على أجهزة الكمبيوتر التي تشبه أجهزتنا كثيراً. «أهلاً بكم في ٨٨٠» كان هذا صوتاً لطيفاً خرج من مكبرات الصوت داخل القاعة. كنا نفهم لغة أهل الكوكب من دون الحاجة إلى ترجمة، يبدو أن ذلك تم عن طريق برمجة مباشرة استجابت لها أذهاننا لدى دخولنا هذا المبنى، ويبدو أنهم هم أيضاً مبرمجون لفهم لغتنا، لا حاجة لأحد بتغيير لهجته أو لغته، أو تعلم غيرها لفهم. أمر رائع! كنت من زمن طويل قبل التحاقني للعمل في مجال الفضاء، من هواة الأبحاث اللغوية، وأصول اللهجات. سأحاول البحث هنا عن طرقهم المبتكرة في برمجة اللغة. خُصصت لنا ست غرف في مجمع سكني علمنا أنه يضم فئة من الباحثين في الكوكب. والشئ الجديد هو وجود طابق كامل مجهز بأدوات الاتصالات المتطورة، وكان موضوعاً تحت تصرفنا. كنا قد هيأنا احتياطات داخل المركبة الفضائية من أجل الاتصال بالأرض، ولكن بهذه الطريقة كنا نتواصل مع علمائنا في الوكالة الأرضية من داخل المبنى.

في الواقع إن كل ما في الكوكب كان مثالياً، مرتباً ومنضبطاً، على نحو يثير الدهشة. الشوارع ممتدة ونظيفة، حوادث المرور قليلة، الوثائم والتسامح منتشرة بين الناس على نحو مريب بالنسبة لمثالثنا من أهل كوكب الأرض. لو كان معنا عالم إنسانيات لكان هذا مجالاً خصباً له. سنحاول في المرة القادمة أن نستقدم معنا بعض علماء الاجتماع، وربما الفلاسفة مع أني أظن أن هؤلاء يارعون في إثارة الأسئلة والقلق ونقض الواقع أكثر من أي شيء آخر. إنهم لا يملّون من القول بنسبية الحقيقة، سأتي بهم إلى هنا لأريهم: انظروا، حدّثوا جيداً من حولكم. أكل هذا نسبي؟ الحقيقة ثابتة، والدليل هو ما تشاهدونه من استقامة الناس وانتظام الأمور كلها.

مرّ شهران على خير ما يرام، وحققتنا تطوراً ملحوظاً في دراساتنا حول كوكب ٨٨٠، ودوناً ملاحظات كثيرة عنه، وفي واقع الأمر فإننا فكرنا في العودة وقد حققتنا هدفنا من الزيارة. ولكن أحد زملائي كان له رأي آخر، فقد اكتشفنا اختفاء طول يومين، من دون أن يضيرنا بشيء، حتى تبّه صديقه إلى أنه أعجب بإحدى فتيات الكوكب، وبأنه قد يتزوجها ويبقى هنا؛ طبعاً سيبقى هنا، ولماذا يعود بها إلى كوكب الأرض حيث العمل المتعب، والمكائد بين الناس، والحروب بين الشعوب، والحوادث، والصيد الجائر، ومشاكل التصحّر البيئي و... وريثما نجد حلاً لهذه المسألة الطارئة، قررنا البقاء أسبوعاً آخر.

«كيف ترغبين أن تموتي؟ وما هي رغبتك الأخيرة؟» ما هذه الرسالة؟ حدّثت ملياً في هذه الكلمات القليلة التي ظهرت في بريدي الإلكتروني. ظننتها في البداية مزحة سمجة، وإن كنت لم أعهد المزاح من هيئة العلماء التي ترسل لنا بريداً يومياً حول أهم القضايا المتعلقة بنا أو بالمناسبات اليومية المهمة في الكوكب ٨٨٠. واكتشفت أن الرسالة نفسها وصلت إلى كل زملائي في الوحدة. اجتمعنا في إحدى غرف طابق البحث، كنا ننظر من خلال النافذة الممتدة بامتداد الحائط. كل شيء في الخارج طبيعي، الناس والحركة والسيارات، ودخان المعامل القريبة، حتى إن طائرة بدت لامعة في السماء الصافية. وحين عادت زميلتنا التي كلفناها بالسؤال عن معنى الرسالة، كان وجهها مكمدّاً شاحباً.

وفهمنا أخيراً ما يجري: «أنتم تشهدون الآن طقساً لا يتكرر سوى كل ألف سنة» يقول لنا كبير العلماء الذي استقبلنا في اليوم الأول لوصولنا هنا. «على كوكبنا الجميل، عهدنا تطبيق هذه العادة الجميلة، بالضبط لدى مرور كل ألف سنة، يقوم سكان الكوكب بعملية إفتاء جماعي لأنفسهم، ولا يستثنى من ذلك إلا قلة، بضع مئات من الناس، حتى تولد منهم أجيال جديدة ونضمن استمرار الحياة لألف سنة قادمة، من دون إنهاء الحياة كلياً فليس هذا هو الهدف». وأسأله: «ما الهدف إذن؟» يجيب: «الهدف هو إفتاء البشرية قدر الإمكان، قبل أن تستفحل فيها الأمراض ونوازع الشر التي نسمع عنها في الكواكب الأخرى». - تقصد كما هو حاصل في كوكبنا الأرض.

- مثلاً.

. ولكن هل هذه طريقة عادلة؟ الناس الأبرياء سوف يموتون مجاناً .  
. لماذا؟ نحن معتادون على ذلك، أنا مثلاً سأختار طريقة موتي وأمضي، لست مستشئ من ذلك .  
. ولماذا وصلتنا هذه الرسالة نحن أيضاً؟ نحن ضيوف وسنرحل عنكم قريباً .

.....

. ما بالك صامتاً؟  
. لا نستطيع استثناءكم، نحن نستشئ العناصر الخيرة فقط من أهل الكوكب، وعن طريق القرعة أيضاً .  
. تقصد أننا لسنا عناصر خيرة؟  
. بل أنتم ...

يا للهول، يعلمون إذن أن نتاج كوكب الأرض عناصر يغلب عليها الشر! أو بالأحرى هي عناصر تمزج بين الخير والشر. من أين سأتي بالفلاسفة كي يشرحوا لهذا العالم أن طبيعة الإنسان تقتضي تجاوز هذين العنصرين، كيف نحقق بشريتنا الحقيقية من خلال الخير المطلق، كما هو هنا في الكوكب ٨٨٨ ؟  
تجادلت طويلاً مع كبير العلماء، ومع بعض مساعديه، ولكني لم أفلح في إقناعهم أننا على كوكب الأرض دفعتنا الضرورية منذ طوفان نوح، وأن الطوفان يحصل مرة واحدة في كل التاريخ البشري، ولا معنى لتكراره خاصة أن البشرية لم تتعلم منه شيئاً سوى سرد الحكاية وتبادلها من جيل لجيل مع اختلاف بعض التفاصيل والأمكنة. ويبدو أنهم مثاليون لا يتعاملون بالرشوة، فلم أفلح في التلميح لهم بمكافأة ما أو حتى بإهدائهم بعض الأسرار الاستراتيجية الخاصة بوكالتنا الفضائية والتي انتمت وحدتنا على تخزينها بسرية تامة. كنت أشعر أنني أمام وحوش لا بشر. أما هم، فيرون أنفسهم قمة في الإنسانية، وفي مبدأ العدل الذي يجب أن يسري على الجميع. لماذا صادف وجودنا هنا هذه الملقوس السخيفة؟ يا للرب! عندما التقينا في الأعلى حيث أصدقاء العمل، وجدت زميلنا الهارب قد انضم إليهم، والفرع يكسو ملامحه. هه، يبدو أنه هرب من فتاته وأهلها ومجتمعها الخانع أمام الأفكار الغريبة. أشفقت عليه فلم أسأله عن شيء، واكتفيت بوجهه وحديثه اللتين توسعتا، وعيناه تكادان تسيان أن ترفأ من حين لآخر.  
اكتشفنا أن ملاحظة مهمة فانتنا في الأسابيع الماضية، كيف لم نقبّه إلى أن عدد سكان الكوكب قليل قياساً بمساحته؟ لا شك أن ملقوس الإلقاء الجماهيري متأصل لديهم غير آلاف السنين، ولذلك فإنهم يحافظون لا على القيم والطبيعة والخير فقط. من وجهة نظرهم. بل على تعدادهم السكاني أيضاً، وبهذا فهم يقللون من نسبة الزيادة السكانية، ويحتاطون دون خروج الأمر من يدهم بتكاثر الأجيال واستقارها من عددها الكبير في التمرد على العادات والتقاليد.

كل شيء كان يموت ويدمر، لا الناس فقط، بل المنشآت والمباني والآلات، كانت مساحة صغيرة فقط بحجم مدينة أو جزيرة، مخصصة لإبقاء البشر القلائل المختارين لبدء الحياة فيها من جديد. إنه مذهل يكاد العقل لا يستوعبه، ولكنه حقيقي وواقعي هنا. لم يكن أمامنا الكثير من الوقت، فخلال أسبوع يكون الأمر كله قد انتهى. ولكننا لن ننهي. فكرنا كثيراً، وتداولنا ملياً في الأمر. فقدنا الشهية وذبلت عيوننا ووجوهنا. ولكن في النهاية توصلنا إلى حل رائع.

أظن أننا جميعاً كنا نفكر بالخواطر نفسها. كنا نعود بذاكرتنا إلى الوراء، على بُعد شهرين، كنا مبهورين بكل شيء هنا، كنا مسرورين، أحراراً، نعد أنفسنا للتباهي أمام زملائنا على الأرض بما اكتشفناه: المدينة الفاضلة، نعم، إنها هي. وكنا مصممين على عدم فقدان التواصل مع أهل الكوكب وعلمائه، بل إننا سندعوهم إلى كوكبنا وسنحرص على عدم «تلوثهم» بما فيه من ضرور. سنعرض أمامهم كل الإيجابيات الممكنة لـ «تحسين» صورتنا. أما الآن... فكان بعضنا يحمل زميلنا الشارد جزءاً من المسؤولية: «بسبب قصة حبك تأخرنا في البقاء هنا، كان يمكن أن نكون الآن على كوكب الأرض سالمين من هذه النقاهاة». وبعضنا كان سارحاً في أفكاره الذاتية. كنت أشتاق إلى كل ما تركته هناك على الأرض، طاولة المكتب، ونافذة غرفتي، والعملات الورقية والمعدنية التي لم أستخدمها منذ شهرين، ووسائل المواصلات، حتى الشجار مع حارس البناء الذي يهمل تنظيف الدرج المخصص للطوارئ، حتى الحروب التي تتدلع، وحتى

التجار الجشعون، وحتى مخالفات السير التي يطاردني الشرطي من أجلها يوم العطلة... كل هذا يبدو إنسانياً، بشرياً، حقيقياً، مقابل الفزع والزيف لمعنى الموت هنا.

وأخيراً أعلننا لكبير العلماء أننا نرغب رغبة أخيرة بقضاء ٢٤ ساعة في المتحف. أما الطريقة التي نختارها للموت، فسنواتيه بها يعد خروجنا. ولأنه سليم النية فقد أعجب باختيارنا، وفتح لنا أبواب المتحف، فدخلناه كأنه مغارة علي بابا، وانتابنا السرور والاطمئنان لدى إغلاق الباب خلفنا.

لم يكن أمامنا خيار أفضل، فمركبتنا الفضائية تم تدميرها ضمن «فعاليات» الاستعداد للموت، وكان الحل الوحيد للهرب عائدين إلى الأرض هو الاستفادة من موجودات المتحف. كان المتحف هو الوحيد الذي لن يخضع للتدمير. ولذلك فهو شامل وكبير لا يختلف كثيراً عن أي متحف محترم على كوكب الأرض. حتى إن محتوياته تشابه مع اللقى الأثرية المعروضة في متاحفنا نحن منذ فجر التاريخ. الميزة هي أن امتداد العصور جعل المتحف يحتوي على جناح كبير لعلوم الفضاء، وهذا الجناح يحتوي على أكثر من مكوك فضاء ومنتجات إطلاق صواريخ، أي كل ما يتعلق بـ«مهنتنا» بما في ذلك موارد الطاقة اللازمة. كل شيء هنا في كوكب ٨٨.٨ مثالي بما في ذلك الدقة والنزاهة في الاشتغال على كل المعدات اللازمة ولواحقها. من النوافذ العليا في المتحف كنا نشاهد العامل تحترق والأبنية تنهار، وكنا نعلم أن الكثير من أهل الكوكب كانوا يقضون ساعات أخيرة في العابد للحصول على مباركة لراحة نفوسهم، ورجاء استمرار الحياة الصالحة فيمن سيأتي من أهالي ٨٨.٨. أما نحن فباشرنا العمل، وصلنا كل الدارات الكهربائية المطلوبة وسار كل شيء بأسرع مما توقعنا، الشيء الوحيد الذي لم يكن متوافراً هو الاتصال مع الأرض. فقد قلمت كل الاتصالات بمجرد بدء خطة الإقناء الجماعي تلك. لذلك كان يتوجب علينا الإسراع من أجل مغادرة هذا الكوكب والبحث عن اتصال بمجرد دخولنا الأجواء «الإقليمية» لمجموعتنا الشمسية، أو على الأقل مجرقتا درب التبانة. هذا يشبه نوعاً ما أن ينقطع اتصال الإنترنت في مدينتك، وأنت تحاول الخروج منها بأي وسيلة لتدخل في نطاق اتصال متاح.

وفي النهاية فإننا نجحنا في الخروج من المجال الجوي للكوكب ٨٨.٨، انطلق الصاروخ ومعه المكوك ونحن فيه، ثم انفصل المكوك بنجاح، وتفتت الصعداء وقد خرجنا نهائياً من حدود مجموعتهم الشمسية، ليس بإمكان أحد ولا شيء تعقبنا الآن. كان هناك ضوء أحمر على شاشة الرادار يضيء ويخفت، يؤكد الزميل الخبير بالاتصالات أنه على الأرجح نداء من الكوكب ٨٨.٨. ولكننا لن نرد على أي نداء بعد الآن. لن نضع مجدداً في فخ الانبهار بأي كوكب!

نحن نبتعد ونبتعد، والضوء الأحمر يشح ثم يخفت نهائياً. نهال فرحين وقد اقتربنا من صديقنا كوكب بلوتو، وننفذ قراراً سبق الاتفاق عليه: تدمير محطة التقوية بالتحكم عن بعد. كان من الممكن الاكتفاء بتعطيل الدارات الكهربائية والإلكترونية، ولكننا فضلنا التدمير التام لكل المنشأة. لا نريد أي وسيلة يتبعنا بها سكان الكوكب ٨٨.٨ باتصالاتهم المتطورة. كان بلوتو صلة الوصل الأساسية ولا بد لدوره أن ينتهي. وهناك، على الأرض، كان أول ما فعلناه قبل لقاء هيئة إدارة الوكالة، ثم الحصول على راحة طويلة من الشغل والعناء، قيامنا بالتخلص من كل الشيفرات الخاصة التي كانت يحوزتنا للتواصل المباشر مع سكان كوكب ٨٨.٨ قبل سفرنا إليه. وهكذا تركنا لهم حقائهم وعدنا إلى أوامنا وتخليتنا عن الحلم بكوكب آخر، إلى ما بعد ألف عام قادمة.



## ميناءُ مبارك

وليد القلاف (الخرز)\*

يَبْقَى الْمِينَاءُ لَنَا مِينَاءُ  
وَكَفَى بِمُبَارَكِنَا إِحْيَاءُ  
مِينَاءٍ فِيهِ سَيَادَتُنَا  
تَتَبَنَّى الْبَحْرَ مَعَ الصَّخْرَاءِ  
وَنَرَى بِتَبَنِّيْهَا وَطَنًا  
مَا زَالَ الشَّعْبُ لَهُ بَنَاءُ  
يَبْنِيهِ بِمَا مَا كَتَبَتْ يَدُهُ  
وَهَلِ الْبُنْيَانُ سِوَى الْإِصْلَاءِ  
وَهَلِ احْتِسَدَتْ يَوْمًا هَمَّهُ  
فِي غَيْرِ سِوَا حِلِّهِ الرِّزْقَاءِ  
تَلْقَاهُ كَمَا هُوَ يَلْقَاهَا  
وَلَنَعْمَ لِقَاؤُهُمَا الْوَضَاءُ  
وَلَهُ تَصْغِي .. وَلَهَا يُصْغِي  
وَالْكُلُّ يَطِيبُ لَهُ الْإِصْغَاءُ  
وَإِذَا مَا قَامَ لَهَا يَتَهَا  
فَالْبَارِغَلَاتُ بِرُؤَاهُ مَاءُ  
أَمَّا الْأَطْيَارُ فَلَيْسَ لَهَا  
فِي غَيْرِ سِوَا حِلِّهِ إِرْسَاءُ

\* شاعر من الكويت.

تَسْقِيهِ الْحَبَّ وَيَسْقِيهَا  
وَيُحِبُّهُمَا صَفَتِ الْأَجْوَاءُ  
يَبْقَى مِينَاءُ مُبَارَكِنَا  
وَالْكُلُّ بِهِ عَرَفَ الْإِبْقَاءُ  
كَمْ تَبْتَسِمُ الْأَلَاءُ لَهُ  
أَجْمَلُ أَنْ تَبْتَسِمَ الْأَلَاءُ  
بِالْهَمَّةِ يُنْشِئُ مَا نَرْجُو  
وَكَفَى بِالْهَمَّةِ مَنْ إِنْشَاءُ  
وَإِذَا جَلَبَ النِّعْمَاءُ لَنَا  
فَالْفَخْرُ مَنْ جَلَبَ النِّعْمَاءُ  
فَلْتَبْقِ كَمَا يَبْقَى .. وَكَفَى  
بِبِقَاءِ لَيْسَ لَهُ أَكْفَاءُ  
وَكَمَا يُثْرِيهِ أَثْرِيهِ  
أَوْلَيْسَ لَهُ وَلَهَا الْإِثْرَاءُ  
وَعَلَى الظَّالِمَاءِ هُمَا الْأَقْوَى  
مَا أَقْوَى الضُّوْءُ عَلَى الظَّالِمَاءِ  
وَإِذَا مَا رَاحَ بِهَا وَغَدَا  
فَسَيَبْقَى رَوَّاحًا غَدَاءُ  
مَنْهُ الْإِخْيَاءُ يُنَاصِرُنَا  
وَلِنَعْمَ مُنَاصِرَةُ الْإِخْيَاءِ  
وَبِحُجَّتِهِ الْغَرَاءُ عَلَا  
فَلَنَشْهَدْ حُجَّتَهُ الْغَرَاءُ  
مَا زَالَ يُضِيءُ سَوَاحِلَنَا  
وَسَوَاحِلُنَا تَهْوِي الْأَضْوَاءُ

تَذَنِّيهِ كَمَا هُوَ يُذَنِّيهِهَا  
أَيُّنَ الْإِقْصَاءِ مِنَ الْإِذْنَاءِ  
وَقَرَاهُ بِهِ الْجَوْزَاءُ شَدَّتْ  
أَحْبَبُ بِثَرَاهُ إِلَى الْجَوْزَاءِ  
كَأَنَّ الْإِسْدَاءَ لَهُ هَدَفًا  
مَا أَحْلَى مَا كَانَ الْإِسْدَاءُ  
وَبِهِ الْأَيُّسَامُ تَسِيرُ إِلَى  
مَجْدٍ مِنْ رَوْعَتِهِ وَضَاءُ  
وَعَلَى الْقُرَاءِ قَرَاءَتُهُ  
فَقَرَاءَتُهُ تُثْرِي الْقُرَاءَ  
فِي كُلِّ فَوَادٍ غَايَتُهُ  
وَبِغَايَتِهِ التَّزَمُ الْإِيضَاءُ  
وَكَمَا يَأْتِيهِمْ وَأَنَابَتْهُمُ  
وَالْكُلُّ بِمَنْ يَهْوَى قَدْ ضَاءُ  
وَكَاكِبُهُ الزُّهْرَاءُ غَدَّتْ  
فِي الْفَخْرِ كَوَاكِبُنَا الزُّهْرَاءُ  
فَهُوَ الْمَاضِي .. وَهُوَ الْآتِي  
وَكَفَى بِإِقَائِهِمَا إِبْقَاءُ



## الغزالة العاشقة

علي العطار\*

أنظر إلى تلك الغزال العاشقة  
ريحانة والعطر منها فائح  
بيمينها عود وفيه نغمة  
وهي التي غنت قوافٍ لهوى  
وهي التي سرج الدلال تمتطي  
وهي التي مثل الفراش رقة  
وهي التي أودت فؤادي ذاهلاً  
يا خاطري مالي أراك والهأ  
أم أنت في بحر الغرام غارق  
قال الفؤاد والغرام معذب  
كذبت عيني مذكراتها فرفداً  
قالت عيوني إنها حورية  
جارت علي بحكمها وبظلمها  
قد صيرتني من هواها خادماً  
وأنا الذي عانيت من جمراتها  
أو هكذا يا ظبية لم ترحمي  
أو هكذا ترميه سهماً مؤذياً  
بالله كفي وارحمي ذاك الذي  
فحسبك يا ظبية فكانك  
فكانك وسط الحسان زهرة  
مهلاً أيا عين المها فترفقي  
أما كفى دقات قلب عاشق  
أما كفاك أن تكوني قصة

حسناء في بحر الغرام غارقة  
جذابة مثل اللآلي البارقة  
أوتار زهر في الرياض الرائقة  
مثل البلايل للنخيل الباسقة  
وهي التي باب الجمال طارقة  
وهي التي مثل الأغاني ناطقة  
وذابلأ مثل الغصون المائقة  
منها فهل هوت عليك الصاعقة  
أم طحت من فوق الجبال الشاهقة  
قد عذبتني ظبية مرهقة  
لكن عيني في رؤاها صادقة  
فأجبتها مهلاً فهذي أبقة  
وهي التي دقاتي كانت سارقة  
مثل الأسير في السجون الخائقة  
آه كوتني بالعيون الحارقة  
أنفاس قلب في هواك عالقة  
حقاً فأنت في الإيذاء حاذقة  
أنفاسه مر المأسى ذائقة  
حيرت عيناً في رؤاك راسقة  
كنرجس ذات العطور العابقة  
وحذاري أن تكوني فينا مارقة  
تنسأل رعثاً كالصخور الهابقة  
تروي لنا شعر الغزال العاشقة

البارقة/ اللامعة. الرائقة/ الجميلة. الباسقة/ العالية. المائقة/ المجتونة آبهة/ عاصية ومتمردة. حاذقة/ ذكية. راسقة/ ناظرة. العابقة/ الزكية. عين المها/ عين البقرة وهي أجمل عيون يضرب بها المثل حارقة/ معاندة. تنسأل/ تبدي. رعثاً/ ارتجافة. الهابقة/ المهدمة والطائفة.

\* شاعر من الكويت.

## من بقاياها

د. أحمد بن نزال الرشيدى\*

تُراها هل تُميتُ الحلم يأساً  
أليلى كم لنا في الدهر يوم  
فيها نمتطي الأفراح فلما  
نَحيك من السحاب لنا شراعاً  
تعالى نحتسى الفجر المندى  
نطير إلى الحياة بقلب صقر  
وهاتيك القفار تسيل فُلاً  
تعالى نجعل الصهباء سكرى  
فمن شعر قشيب ليس يلى  
فأحيى في رميم القلب حلماً  
أويلي منك ليلي غدت أهذي  
وحاربت القفار فكنت جمرأ  
لقد سقت القصيد نزيه قلبي  
أصمتاً بعدما جُنُت ظنونني  
ولست بكاتم من بعد قولاً  
ستدبر غير عابئة بكأمي

وآه كم سيبقى الوصل همساً  
ليمضي العمر حرماناً وبأساً  
عليها نورد الأتراح رمساً  
يدثرنا معاً في كل مرسى  
صبوحاً بالمدامة قد تأسى  
وروح فراشة أمتنا وأنساً  
إذا ما مسها قدماك مساً  
بهمس يرفد الأوتار جرساً  
ومن نثر عجيب ليس ينسى  
قطعت به الأسى ذيلاً ورأساً  
بقول لا يحرك فيك أساً  
وعانيت الحصار فكنت حبساً  
تفيض بحاره إن رمت كأساً  
يناديها الهوى أهلاً وتعساً  
وإن آذيت سُحبانا وقساً  
لقد خلقت عيون الغيد نعى

\* شاعر من الكويت.

## الميساء

خلف الخطيمي الخالدي \*

أيا حسناً بدا أسطورة الكتب  
فلم أقرأ ولم أقرأ من الكتب  
فلا قيس ولا ليلي ولا عنتر  
ولا عبل غدوا قطرات من حب  
ولا روم ولا كرد ولا أرمن  
ولا فرس بهم مارية العرب  
كأن الليل ظل في ظفائرها  
وكحل الخلق مسكوب على العنب  
لها نحر كصفح الماء إن قرئت  
تري المستور كالأوداج والعصب  
فكل الناس من طين إذا خلقوا  
وأما فاتن الأناب من ذهب  
إذا الميساء قد وطئت على أرض  
كان الأرض تمسكها من العقب  
يغار الورد إن مرت وإن وقفت  
بوسط الروض مملوءاً من الغضب  
رأها البلبل الصداح أنشدتها  
فحث الغصن والأوراق للطرب  
بها طيف من الأرام إن جفلت  
ويا الأوجان صبحاً صادق النسب  
فكان القلب عملاقاً كما جبل  
فدك الرمش هذا الكبر كالشهب  
أيا حسناً من الآيات فالدينيا  
يؤكد روعة الإبداع من ربي  
أنا بالله أرجو من يعاتبني  
يكف لومه عني وعن قلبي

\* شاعر من الكويت.



ومنهم من يمشي على رأسه  
إبراهيم عبد الحميد الأسود\*

يُكرّر يومي ما أُعانيه في أمسي  
وأصبح من كيد الليالي كما أمسي

وما زالت الأيام تقطع وعدّها  
بصلح غدي، لكن يكذبها حدسي

أأرجو شروق الحظّ من حلك الدجي  
وأبغى طلوع السعد من طالع النحس؟

وما أأقلي فيها وقد شمت برقيها  
وجريت منها عادة الخلف والمكس

إذا لم تطب والعزم كالسهم قائماً  
فما طيبها والظهر أجناً كالقوس؟

عدمك يا من تدعي الزجر بالحصي  
وكشف خفي الحال بالظنّ والهجس

أتزعم علماً بالنجوم، وإنني  
لأدرى بغيبي من حُصيّاتك الخمس

لقد ذرأتني حكمة الله ذا حجاً  
كما برأتني شاعراً مرهف الحسّ

\* شاعر من سوريا مقيم في الكويت.

أكاد أرى ما خبأ الدهرُ في غدي  
قياساً على ما نابني منه بالأمس

وحسبك من ذي خبرة بزمانه  
دليل عناء أنه شائب الرأس

خُلِقْتُ - على رغم الظروف - مُفَوَّهاً  
عليماً بإحكام اليراعة في الطُّرسِ

كأنِّي قد أُورِثْتُ خُطَّ «ابن مُقلَّة»  
أو أنِّي قد قُمَصْتُ رُوحَ «أمرئ القيس»

سوى أنني أجري لوجه وغاية  
وتيار هذا العصر يجري على العكس

فلا زمني ينقاد وفق إرادتي  
وتأبى انقياداً وانضاجاً له نفسي  
<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

لذلك تلقاني وما لي بشاشة  
إذا ضرب الندمان خمساً على خمس

تُضايقني الأرزاء حتى كأنني  
على سعة الأرجاء أرقد في حبس

وتتشط روحِي إن دُعيت لمأتم  
ويكسل طبعِي إن دُعيت إلى عرس

ويمشي على رجلين ناسٌ، وبعضُهم  
على أربع، أما أنا فعلى رأسي

وتحرمني الدنيا الخؤونة رِفْدها  
وتختصني بالضييم دون بني جنسي

ويعبس في وجهي الزمان مُقْطِباً  
كأن زمني من بقايا «بني عبس»

وأعتاش في غاب كأن وحوشه  
مُسَخَّن على هيئات أو خَلَقِ الإنس

إذا لم يُصِبنِي من ثعالِها أذى  
لَقِيتُ الأذى من فتك دُؤْبَانِها الطُّلس

وان أحترس يوماً عقارب وعثها  
فكيف احتراسي شرَّ حَيَاتِها المُلْس

كذلك حظي في الشقاوة أزل...  
وما أنا من عدل المقادير في بُس  
<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

فهل لك في إدراك مستقبل مضي  
فتُخَضِرُ عُوداً جف من زمن الغرس؟

كذبت، وهل في مَكْنَةِ السحر أنه  
يُعيد انبلاج الصبح من مغرب الشمس؟

زمني ألقى بي إلى صم جندل  
ولو شاء ألقاني على موطن دَهِس

ولكن نفساً أعجز الهم قتلها  
من الغبن أن تبتاع بالثمن البُخس



ومن سوء حظي أن تبيأت معشراً  
وما طبعهم طبعي ولا جرسهم جرسِي

لهم منطق لا يفهمون بغيره  
وما هو إلا منطق العض والرّفس

إذا قلت شعراً أطرّقوا عن جهالة  
فأحسب أنني في (هماشرة) خرس

أترجم للجلاس شعري، كأنني  
أترجم في ما بينهم لغة الفرس

أرقق أشعاري لأطرب سامعي  
فيغلب فيها طابع الحزن والبؤس

ولو كنت ذا لهو وقفت قصائدي  
على منشدي الأعراس أو طالبِي الأُنس

ولكنما قدحُ الهموم بخاطري  
يُولد في إنشائها شرّ اليأس

ومن أدياء الشعر من عاب أنني  
شريت وأهل الجاهلية من كأس

ويعرض عن شعري، وينفر طبعه  
كما ينفر الشيطان من آية الكرسي

ويدعو إلى التجديد وهو مُسخر  
لهدم كيّان الشعر بالخلط والدس

لقد رفض الشعر القديم وإنه  
كمن شاء أن يبني بناءً بلا أس

أرى شيخ الآداب يمشي مُعْصِياً  
وأخشى عثارةً منه في هوة الرمس

ولا غرو في أن يُبَخَسَ الشعرُ حقّه  
إذا الشعراءُ استعذبوا رنة الفلّس

فَوَ «المتنبي» و«المعري» و«جربول»  
وما ورثوه عن «زهير» وعن «أوس»..

لئن بزني سيف الصراحة ظالم  
لحسبي، وأنعم بالكتابة من تُرس

سألنسه ثوباً من الشعر أسوداً  
وأوهمه بالشعر أنه من بُرس

وقال: استعن بالصبر، واصمد لها، فقد  
يحوّل مجرى السيل عند صفاء شكس

ومن لي بعين يرقاً العذل سيلها  
فتجمد، أو من لي بقلب من الجبس؟

## محطات ثقافية

### إشراقة مع همة مساعد

بقلم: طلال الرميضي\*

تعد الروايات التاريخية التي تناولت ماضي الكويت من خلال السرد، قليلة إلى حد ما في المكتبة الكويتية، ذلك أن هناك محاذير تعترض الخوض في مثل هذا المجال، كدقة المعلومة والأمانة التاريخية. وهذا النمط من الكتابة يحتاج إلى كاتب يتحلى أولاً بالموضوعية والمصداقية العالية ثم بمعرفة تامة بحياة الكويتيين ما قبل النفط وصولاً إلى عصرنا الحالي. كما أن عملية التوثيق بطريقة السرد تختلف عن عملية التوثيق الرسمي، حيث أن السرد يتطلب من الكاتب إدخال الخيال في النص، وهذا يجعل عمله الأدبي معرضاً لاحتمالات الصواب أو الخطأ.

ولكن مع ذلك لدينا في الكويت تجارب قصصية جميلة أتحفنا بها نخبة من أدباء الكويت أمثال الدكتور عادل العبدالمعني والدكتور خالد الشايجي والأستاذ هيثم بودي والأستاذة ليلى العثمان والأديب عبد اللطيف الخضر وغيرهم ممن وثقوا لحياة الكويتيين في مراحل مختلفة من العصر السابق، وتحلت أعمالهم بالمصداقية والقيمة لدى القارئ. ونرى في رواية (همة مساعد) للأديبة عائشة الفجري والتي صدرت مؤخراً اتخذت منحى تاريخياً استمدت الكتابة فيه شخوصها من الواقع حيث جسدت قصة الشيخ مساعد العازمي وأبدعت في تصوير الأحداث التي جعلتها مادة حية أعادت من خلالها للأذهان زمن كاد يغيب وراء حجب النسيان، لتقلنا بذلك إلى حياة الأمس الجميل، وتكشف لنا عن جوانب من الكويت في القرن التاسع عشر ربما الكثيرون لا يعرفها اليوم، وساهمت عبر روايتها بأن تضيف لشخصية الشيخ مساعد العازمي رؤية خاصة من جوانب حياته الكريمة لم يطلع عليها الباحثون لا من خلال الوثائق ولا في المخطوطات، إنما جعلت من خيال الأديب وسيلتها الناصعة في تصوير أحداث سفرته الشهيرة إلى الأزهر الشريف وحصوله على الشهادة العالمية والتي تعتبر أعلى مراتب العلم في القرن التاسع عشر ليكون أول كويتي يحصل على هذه الشهادة العملية الرفيعة. ولنا أن نشيد بجمال أسلوب الكتابة السري وما يحمله من إبداع وتألق وبلاغة، وأن أشكرها على إتاحة الفرصة لي للاطلاع مسبقاً قبل النشر على هذه الرواية الممتعة ومراجعتها من الناحية التاريخية، حيث أعكف حالياً على تأليف كتاب يتناول تاريخ وحياة الشيخ مساعد العازمي وقد استغرق مني سنوات طويلة من البحث والعناء. ختاماً- التراث الكويتي غني بمكوناته وحكاياته ونأمل من الأدباء النهل من الإرث العظيم مع تمنياتي بقراءة ممتعة للقارئ الكريم الذي سوف يبحر مع سطور رواية همة مساعد إلى عالم من البهاء لن يتكرر.

\* باحث من الكويت- أمين عام رابطة الأدباء الكويتيين.

## أنشطة الرابطة

### أمسية استذكرته بكلمات الرثاء والإصدارات\* رابطة الأدباء تؤبن الشاعر سليمان الفليح

أقامت رابطة الأدباء الكويتيين أمسية تأيينية للشاعر الراحل سليمان الفليح، بعنوان «ذكرى طائر الشمال»، بحضور السفير السعودي في الكويت د. عبدالعزيز الفايز وعدد من المسؤولين والكتاب وأصدقاء الشاعر، أدارها رئيس اللجنة الثقافية والإعلامية الشاعر إبراهيم الخالدي.

وتحدث في الأمسية الشاعر عبدالله البصيص، الذي أشار إلى أن الراحل سليمان الفليح «ترك إرثاً مكوناً من ستة دواوين شعرية، ثيمتها البداوة، والشوق لرعي الإبل في حدود الشمال، قريباً من مكان نشأته، وفيها يقدم الفليح الثقافة البدوية، كأنها الأسس التي بني عليها الكون، كأنها أصل الحضارة التي يفهمها نستطيع أن نفهم الإنسان، وقد ترجمت هذه الدواوين إلى لغات العالم، وأشاد بعمقها ويساطتها كبار نقاد العرب وبعض المستشرقين»، ومن كلماته: «رحل طائر الشمال سليمان الفليح، ولم يترك لأحد فرصة لتوديعه، رحل على طريقة الصعاليك الذين سبقوه في الصعلة، رحيلاً مباحثاً ومؤثراً، ترك التحليق ولم يترك الارتضاع، وأنهى به سلسلة ارتحالته الطويلة، والرحيل نوعان رحيل يأخذ ورحيل يبقى، ورحيل الفليح كان الاثنين معاً، أخذ وأبقيته في أن، أخذ الفليح عقلاً وجسداً وأبقى الفكرة والروح، وإن كان الرحيل غيب الهيئة فإنه هياً الحضور.

#### استيسال وثيل

وحول زاويته الشهيرة «هذلولوجيا» قال البصيص: «يمكننا معرفة ما كان يشغل الوسط الثقافي الكويتي تحديداً والعربي عموماً على مدار تلك الأعوام وتقلباتها، ونستشف من خلالها تأثير التيارات الفكرية على المشهد المحلي كالاشتراكية والقومية، وكيف تعامل معها المثقف الكويتي وما موقف المجتمع منها.

أما عن كتابات الفليح الأخرى، فقد استذكر البصيص دفاع الراحل عن الكويت تحت وطأة أي ظرف، مستذكراً مقالاته في جريدة الرياض السعودية التي اتسمت بالضراوة والاستيسال في تنقيد ادعاءات بعض الكتاب المناصرين لاحتلال الكويت، وقد وثق في هذه الكتابات التداعيات والأبعاد والظروف التي شهدتها العالم.

وأضاف: «سليمان الفليح هو الذي هندس الساحة الشعبية، وأعطاهما أفقاً أوسع، فهو أول من رعى التيار الحدائثي في الشعر الشعبي، ويكوّن في ديوانه جواً ملائماً لتهيئة شعراء جيل الحداثة، وعلى حد علمنا أنه أول من أقام أمسية للشعر الشعبي في العام ١٩٨٤، وكان صاحب فكرة إطلاق مجلة شهرية مختصة في الشعر الشعبي.

#### ذكرى من الذهب

أما الأمين العام لرابطة الأدباء طلال الرميضي فقد تحدث عن نتاجه الإبداعي، فتوه بالعمق الفلسفي والبساطة والسلاسة العفوية في أسلوب الراحل، مؤكداً أن حفل التأبين يأتي تكريماً لهذه الشخصية الأدبية الثرية التي تميزت بالخلق الرفيع والذكاء الفطري البديع، واعتراف بما قدمه لحركة الشعر الحديث في الكويت، والأجيال التي تخرجت على يديه من الشعراء والكتاب، وتأكيداً على أن هذا البدوي الذي رحل عنا، وهو يحمل أحزانه قد خلد اسمه بسطور من الذهب في ذاكرة الأدب الكويتي والعربي، ولنؤكد أيضاً أن ذكرى الفليح لم تمت، ولن تتلاشى محبته أبداً في قلوب عشاقه، وزملائه، وتلاميذه.

أما خليفة الوقيان فثنّ في مداخلته دور القائمين على تنظيم هذا اللقاء الأسري لمحبّي الراحل سليمان الفليح رمز الوفاء النادر، ممتدحاً تجربته الممتدة على مدى أكثر من أربعين عاماً.

وتحدثت الإعلامية أمل عبدالله مؤكدة أن الراحل ترك إرثاً ضخماً واشتهر باحتضانه للشباب داعماً وموجهاً لهم.

\* نقلاً عن صحيفة الكويتية.



## من تاريخ البيان\*

شعر

### تحية للمغرب

محمد أحمد المشاري\*

أي شوق به الفؤاد تغنى  
لبلاد تتيه مجداً وحسناً  
علم الله أنه قد رعاها  
من قديم، ونصرها قد تمنى  
نحن منها وإن تضاءت ديار  
وهي مهما يحاول الغرب منا  
أمة نحن لا تقل عراها  
فهي أقوى شأننا وأصلب متنا  
تتلاقى صفوفنا في طريق  
واحد في أوامر ليس تغنى  
إن بتينا أو أن بنيتم سواء  
ذلك أن البناء لكل بيني  
أيها المغرب الحبيب سلام  
غير أن السلام يحمل حزناً  
عظمت في النفوس مأساتنا الـ  
يوم وأدمى الحديث عنها وأضنى  
ليس للقول - قيل أن ينطق الفعل  
معيداً حقوقنا - أي معنى  
ويشاد الذي تهدم ظلماً  
بيد الثائرين ركناً فركنا  
أيها المغرب الأبى سلام  
عاطر يسكب المودة لحناً  
من أباة الكويت فالشعب فيه  
بالبطولات في رباك تغنى  
همه أن يقول والجرح دام؛  
عشت للدين والعروبة حصناً

• العدد الحادي والخمسون - يونيو، ١٩٧٠م.

\* شاعر من الكويت.

## من تاريخ البيان\*

شعر

### لقد أزفت يا بني الأكرمين!

أحمد السقاف\*

طرينا إلى رؤية المغرب  
ورؤية شعب كريم أبي  
يدل بأعراقه الموغلات  
صعوداً إلى النسب العربي  
ويفخر إن فآخَرَتُهُ الشعوب  
بتاريخه الزاهر المذهب  
وكان المجلي في ثورة  
أضاءت فلم يبق من غيب  
وسار على منهج صائب  
يفذ إلى منهج أصوب  
وأملى فأتعب كف الزمان  
وما زال يملئ ولم يتعب  
وما زال مطلبه في السماك  
هناك له الله من مطلب

\*\*\*

أحبابنا يا أسود المحيط  
سلمتم على رغد ارحب  
حملنا لكم قبلات الخليج  
وأطيب إحساسه الطيب  
فأنتم ونحن بنو أمة  
يحاول تمزيقها الأجنبي  
ونحن وأنتم على موعد  
بأرض الرسالات مسرى النبي

لقد حان أن يعصف الثائرون  
بإرهاب نازية مرعب  
فيا أمة كفرت بالوعود  
ردي الموت يا أمتي واشربي

\* شاعر من الكويت.

فما النصر إلا المستبسل  
يحطم أسطورة الأغلب  
ويا دهر يا سفر هذا الوجود  
عزمنا على خوضها فاكتب  
فهيهات نخضع للغاصبين  
ونركع للجشع الأشعبي  
وهيهات يخذعنا الماكرون  
ببرق- وإن حلفوا خُلب  
ومن ذا يريد السلام الكذوب  
وقد جاء من حاقد أكذب

x x x

ويا ثائرا في أعالي الجليل  
تقحم معاقلهم واضرب  
فلا يدفع الضيم غير الأباة  
ولا يقبل الذ غير الغبي  
وصوت المدافع عند اللقاء  
ألذ لدى السمع من مطرب  
فلسطين أرضك أرض الجدود  
رواها دم الجد قبل الأب  
فقتل لفنايات شتى الشعوب  
مقامك ليس هنا فاغربي  
حزيران جدد قينا الحياة  
وألوى بتفكيرنا المجذب  
ومن يتخلف يجد نفسه  
غربيا بمنعزل أغرب  
حشود العروبة تواقة  
إلى زحفها الهادر المغضب  
ينافس فيها الشيوخ الشباب  
ويزحم فيها الفتاة الصبي  
وأنجبها أمة صلبة  
حزيران بورك من منجب  
وقد خاب من ظن أن الجهاد  
مواظ من لغوه المتعب  
لقد أزفت يا بني الأكرمين  
وليس عن الحرب من مهرب

● العدد الحادي والخمسون - يونيو، ١٩٧٠ م.

## من تاريخ البيان\*

شعر

### الشداد الغلاظ

عبد الله سنان محمد\*

يا لعمري وفي الضلوع شواظ  
أنيام أم أنتم أيقاظ  
أيها السادرون في ظلمات الـ  
غبي بحت أصواتها الوعاظ  
لو وقفتكم على الحقيقة يوماً  
في اعتقادي لزاغت الألفاظ  
أورأيتم هناك بذل الفدائي لما تم في الألسن الألفاظ  
أقسموا أنهم على الدرب ماضو  
ن أيرضى العدو أو يفتاظ  
لم تكن للفداء قط قناة  
صلبة أنهم شداد غلاظ  
سئمو الوعد والوعيد فلم يهـ  
بدأ قلب لهم ولا نام جفن  
وتلاقوا على صعيد فلم يعـ  
لحق بهم قط في المعامع جبن  
نسفوا كل قائم حيوي  
لأعاديهم فما كل متن..  
وإذا ما أتى السؤال عن الفا  
عل هذا أتاهم الرد نحن  
نحن نحن الذين نفعل هذا  
ولكم عندنا خسار وغبن  
نحن أهل الحمى ونحن فدائيـ  
نوه نحن الذين للثأر حنوا  
\* \* \*

أيها المستطيب حمر الليالي  
بين كأس وغادة وقمار  
ومقيم على الملذات جدلاً  
ن أتدري عن الحمى والدار  
وعن الخيمة التي مزقتها  
عاديات الزمان بالأظفار

\* شاعر من الكويت.



وعن الهائم الطريد وقد أق  
صي جوراً بالصارم اليتار  
وبكاء الأيتام والشيب والأط  
خفال من كل عاجز محتار  
أبعدوا عن ديارهم وأذيقوا  
من صنوف التعذيب والإشهار

\* \* \*

قف قليلاً وأرجع إلى الخلف شبراً  
لترى كيف تفعل الأرزاء..  
كيف تفري بهم فريقتاً فريقتاً  
دائبات وتفتك الأدواء..  
كيف باتت نساؤهم وعليه  
من من الجوع والتراب كساء  
لم يعيروا اهتمامهم قسوة الده  
ر كما كان يفعل الجبناء  
فمشوا والرؤوس ترفعها العز  
ة والكبرياء والخيلاء

\* \* \*

وعلی الصمت والصمود تواصلوا  
فتداعى ما شاده الأعداء  
كل يوم لهم فعال حسان  
شهد الله أنها بيضاء

لم تطأطئ لهم صروف الليالي  
هامة أو أصابهم إعياء  
نسجوا النصر فتلة فتلة حتى بدا لانتصارهم للألاء  
وغدا في القلوب للأمل البس  
سام وقع وفي الرؤوس انتشاء  
كلما أوقد العدو سعيراً  
جاءها من ليونثا الإطفاء  
في طلوع الصباح ينهزم الليل ويبدو بعد الظلام ضياء

\* \* \*

● العدد الحادي والخمسون - يونيو، ١٩٧٠م.